الفرقان

بين الحق والباطل

تأليف

شيخ الإسلام ابن تيمية

قدم له وحققه

الشيخ حسين يوسف غزال
قاضي الشرع الشريف في لبنان

دار احياء العلوم
بيروت

الطبعة الثالثة
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

ص.ب: ٥٧٥١٤ - بيروت، لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لفضيلة الشيخ حسين يوسف غزال
قاضي الشرع الشريف في لبنان

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين بعدهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فإنا إذ نقدم هذا الكتاب:

الفرقان بين الحق والباطل

بثوب جديد لمؤلفه شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية عليه رحمة الله، نجد لزاماً علينا أن نُعرّف بالمؤلف وبالكتاب.

التعريف بالمؤلف

ولد الشيخ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية بحران في العاشر من ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ، وخلال سنة ٦٦٧ قدم مع والديه وإخوته إلى دمشق هرباً من غزو التتار، وعندما شب عن الطوق درس على والده وعلى شيوخ دمشق وتلقى عليهم العلوم العربية والدينية من تفسير وحديث وفقه، وكان يتمتع بذكاء خارق وحافظة مدهشة ففاق الأقران وهو ابن بضع عشرة سنة وكانت حافظته حديث الأوساط في دمشق، حتى روي أن شيخاً قدم من حلب ليختبر حافظته فأملى عليه ثلاثة عشر حديثاً وبعد

أن قرأها دفعها اليه وأسمعها عليه عن ظهر قلب ، ثم أملى عليه عدة أسانيد انتخبها فقرأها ثم أسمعه إياها مثل الأول فدهش الشيخ وقال إن عاش ليكونن له شأنٌ عظيم .

شهادة معاصريه فيه

يقول الحافظ الذهبي عنه بتصرف : وكان معاصراً للشيخ : « إنه نشأ في تصون وعفاف وتأله وتعبد وكان يحضر المحافل والمدارس في صغره ويناظر ويفحم الكبار ، ناقش وله من العمر أقل من تسع عشرة سنة وشرع في ذلك الوقت في الجمع والتأليف وعندما توفي والده سنة ٦٨١ أخذ مكانه في تدريس المذهب الحنبلي وبَعُد صيته عندما أصبح رئيساً لهذا المذهب وله من العمر إحدى وعشرون سنة وأخذ في تفسير الكتاب والسنة فكان يورد المجلس لا يتلعثم وكان يؤدي الدرس بتؤدة وصوت جهوري وقول فصيح .

نشأ في حجور العلماء راشفاً كؤوس الفهم لا يلوي إلى غير المطالعة والأخذ بمعالي الأمور خصوصاً علمي الكتاب والسنة لا يشبع من العلم ولا يمل من البحث ، ذاكراً الله في كل أمر راجعاً إليه في سائر الأحوال واقفاً عند حدوده ، ورعاً عابداً عفيفاً عابداً ناسكاً صواماً قواماً ، ولم يزل في ازدياد من العلوم وبث العلم والاجتهاد في سبيل الخير حتى انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل سنة ٧٢٠ هـ .

حالة العصر الذي عاش فيه الشيخ

وعندما نلقي نظرة سريعة على العصر الذي عاش فيه الشيخ نجد أن الدولة الإسلامية قد دب فيها الانحلال والضعف وحكمها المماليك وهم غرباء عن لغتها ضعفاء في فهم دينها ، مما أتاح للنزعات غير الإسلامية أن تصول وتجول وتجد لها منفذاً للتوغل في عقول هذه الأمة ، فكثرت الفرق الإسلامية وانتشرت الطرق الصوفية تجد لها سنداً في ظل الحكام .

وإذا كان حكام الدولة بعيدين عن فهم الدين أمكن أن يميلوا مع الأهواء

والنزعات التي لا تتفق وجوهر العقيدة حيث لا يكون لهم موقف ثابت أو رأي أصيل ، بل كثيراً ما كان يغلب عليهم الجهل ويميلون إلى تصديق الخرافات .

موقف المثقفين

وإذا كان الناس على دين ملوكهم فقد غلبت في تلك الفترة الأفكار الدخيلة والأخلاق والعادات غير الإسلامية وتأثرت آراء علماء الكلام بنظريات الفلاسفة واستعجمت العقول فتقاصرت هممها عن الاجتهاد ومالت إلى التقليد ، وتناحرت الفرق بعضها ببعض ونحت منحًى خطيراً في تكفير بعضها لبعض ، عوضاً عن سلوك الدليل والبرهان ، واعتماد القرآن والسنة .

موقف العامة

وإذا كان هذا حال خاصتهم ومتعلميهم فإن عامتهم قد فشت فيهم البدع والخرافات حتى فسدت العقائد وكان للنزعات الصوفية باع كبير في جذب العوام إليها وإبعادها عن جوهر الدين واستغلال عقولهم الساذجة في التلبيس عليهم واصطناع الكرامات والتعلق بالولايات وتعظيم قبورهم والاستغاثة بها في تفريج كرباتهم .

حالة المسلمين السياسية

حتى بات الناس كقطيع الغنم الذي ينقاد دون تعقل وتفكير ، حتى انطبق عليهم الحديث الشريف فتداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، وأطبق عليهم الأعداء من كل مكان ، فالصليبيون غزوهم مراراً من البحر واستولوا على كثير من مدن الساحل محدثين الخراب والقتل والنهب ، والتتار أقاموا في قلب البلاد الإسلامية يشنون الغارات على دمشق وغيرها محاولين الاستيلاء عليها ، وبعض المتصوفين انتشروا في الساحل عيوناً للصليبيين كما انتشروا في الداخل عيوناً للتتار وغيرهم ممن لهم طمع في الدولة الإسلامية بعد أن ضعفت وهانت وأصبحت غثاء كغثاء السيل ، كل ذلك بسبب إعراضها عن تعاليم دينها وهدي قرآنها .

حالة المسلمين الاجتماعية

كان مجتمعاً نشأ فيه المسلمون بالوراثة فتلقوا من آبائهم ومن الشيوخ عندهم من التقاليد والعادات والخرافات دون أن يعملوا فكراً أو يحركوا عقلاً. وسيطر على المجتمع حب المظاهر وكثرة الاتباع ومتع الحياة من نساء وأموال ومتاع؛ كما تدنت فيه الحركة العلمية فاقتصرت على حفظ المتون من العلوم وحفظ القرآن والحديث للبركة يتخذون من آيات الله تمائم وأحرازاً، قد أغلقوا على أنفسهم باب النظر والاجتهاد ومن حاول أن يخرج عن هذا الالتزام إلى ساحة الاجتهاد كما فعل شيخنا فهو الخارج عن دائرة الإسلام.

لقد كان هذا المجتمع تغشاه ظلمات كثيرة متكاشفة: ظلمات دخيلة من الفلسفة الهندية والفارسية واليونانية وظلمات التقليد الأعمى وظلمات من بعض المتصوفين وزاد الأمر سوءاً استبداد الحكام وتماديهم في الظلم والفساد وهم في ذلك لا يخشون الناس لذلتهم ولا يخشون الله لأنهم بعيدون عنه؛ وقد قبضت لهم بطانة سوء من المحسوبين على العلماء والعباد زوراً وبهتاناً.

موقف الشيخ الامام

أمام ضعف الدولة الإسلامية وضعف المسلمين على نحو ما أشرنا والانقسام في الرأي وتعدد المذاهب وتلون الفرق وتخبط الأمة في الأوهام والخرافات، وقف الشيخ ابن تيمية وقفة الرجل المجاهد يحاول أن يرجع الحق إلى نصابه ويعيد الأمة إلى صوابها ويرجعها إلى جوهر دينها ويبعدها عن خلافاتها وشحنائها وينتزعها من أوهامها وضلالاتها، وأنه لا سبيل إلى ذلك كله إلا بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسول الله المصدرين اللذين استقى منهما المسلمون الأولون وعاش في ظلهما الصحابة الأخيار والتابعون الأبرار.

فقد أتيح للشيخ أن يفقه كتاب الله وسنة رسوله الأمين، فنشأ بصيراً بآيات الله، عرف الحق وأقبل على هداية السماء فازداد نوراً على نور وهداية إلى هداية أراد أن يكون نهجه الحق على ضوء الكتاب والسنة دون أن يتأثر بقول فلان أو رأي فلان،

أقبل على ربه بقلب سليم وإيمان ثابت فلم يتأثر بالأهواء ولا بالنزعات المختلفة ولم تلن قناته أمام الفرق المتعددة، وأبى عليه إيمانه بربه وفهمه لكتابه وسنة رسوله إلا أن يصدع بالحق ويسلك سبيل المؤمنين، ويقول للمحسن أحسنت وللمسيء أسأت، لا تأخذه في الله لومة لائم، شعاره «لو اجتمعت الأمة على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك».

فمضى لسبيله يفند الفرق ويضعف رأيها ويجابهها بالحجة والدليل من كتاب الله وسنة رسول الله، يحاول تقويم المعوج منها وإعادته إلى الصراط المستقيم على منهج النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وصحابته المصطفين وأن:

كل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

عرف بثاقب نظره أن ما وصلت إليه الأمة آنذاك من ضعف وهوان وتفرق وخذلان إنما هو بسبب بعدها عن منهج الدين الصحيح واتباعها البدع واعتمادها على التقليد الأعمى وانحرافها عن الصراط المستقيم وان السبيل الوحيد لنجاتها من كل ما تتخبط به هو برجوعها إلى الله والتمسك بحبله المتين والاعتماد على كتابه المبين واتباع سبيل المؤمنين.

فشمر عن ساعد الجد وشحذ ماضي العزيمة ونهض يكافح مناوئيه على كثرتهم ويجاهد معارضيه على وفرتهم ويقارعهم بالحجة والدليل، مستمداً أسلحته من الكتاب والسنة، معتمداً على ما آتاه الله من حسن البيان وفصاحة اللسان إلى جانب حافظة مسعفة وبصيرة وهّاجة وإيمان وقّاد، ماضياً في معركته لا يداهن أو يهادن، ناذراً نفسه أن يجهر بالحق مهما كلفه ذلك من ثمن، ودعا كل المخالفين إلى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله واتباع المنهج الذي سار عليه المسلمون الأولون، وقد احتج لمذهب السلف ببراهين لم يسبق إليها وجهر بأشياء ما كان أحد غيره يجرؤ عليها.

جولته مع الخصوم وسعيهم لدى السلطة لحبسه

وكان لا بد أن تنشأ جولات بين الحق وبين الباطل، بين شيخنا - بما آتاه الله من

حجة وبرهان - وبين حزب الشيطان ومعهم رجال الدولة ومن والاهم من العلماء المحسوبين على الدين فتمسك الحاقدون عليه ببعض الأقوال وحرفوا عليه بعض الأفكار وسعوا به إلى السلطة ليودعوه السجن دون أن يكون عليه مأخذ سوى التزوير عليه فلم يخش سلطانهم ولم يحزن لما أصابه من حبسهم وأذاهم ، بل كان يعتبر ذلك إظهاراً للحق وعاملاً في ايصال الخير للمسلمين ، وكان يزداد قوة على تهجمهم وجرأة على باطلهم وهيبة في نفوسهم وهم يزدادون خوفاً منه تجاه وقوفه مع الله ، لقد كان بإمكانهم قتله ولكن قذف الله في قلوبهم الرعب ، وإذا لم ينالوا منه فقد تسلطوا على تلاميذه يخوفونهم فلا يخافون وحاولوا أن ينالوا من مؤلفاته وفتاويه يمزقون أصولها تارة ويخفونها تارة ، لكن أعمالهم ذهبت كلها أدراج الرياح وسلمت كتبه وفتاويه يستفيد منها المسلمون حتى اليوم .

مقتطفات هامة من حياته وردت في كتاب البداية والنهاية

وسنورد بتصرف مقتطفات مما جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير المعاصر للشيخ وهي تعرض بعض الجوانب الهامة من حياته موزعة على السنين حسب طريقته في التأليف .

ففي سنة ٧٠٥ حصل خلاف بين الشيخ وبين المنتسبين إلى الطريقة الأحمدية وطلبوا من نائب السلطان أن يكف عنهم ، وقد أجابهم الشيخ بأنه لا بد لكل أحد أن يدخل تحت الكتاب والسنة ومن خرج وجب الانكار عليه ، وأخيراً تم الاتفاق على أن من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه وبذلك انتصر الشيخ عليهم .

على أن الحال لم يدم طويلاً فأخذ الحاقدون يحيكون للشيخ في الخفاء وعقدت مجالس ثلاثة عند نائب السلطان حضر فيها القضاة والعلماء وقد ظهر عليهم الشيخ بالحجة .

واستمرت المكائد إلى أن جاء كتاب من السلطان يطلب فيه أن يحمل الشيخ إلى مصر ، وقد خرج مع الشيخ خلق كثير من أصحابه وبكوا عليه خوفاً من أعدائه ، أما هو فكان مغتبطاً ، معتبراً أن في توجهه لمصر مصلحة كبيرة .

وفي مصر عقد له مجلس بالقلعة اجتمع فيه القضاة وأكابر الدولة، وعندما وجهت إليه الأسئلة ليحاكم سأل من الحاكم فقيل القاضي المالكي، فقال له الشيخ كيف تحكم وأنت خصمي؟!! فغضب القاضي واستحصل على مرسوم بحبسه وكان ذلك في رمضان سنة ٧٠٥ هـ.

واستمر في سجنه حتى ربيع سنة ٧٠٧ عندما حضر الأمير حسام الدين وأقسم على الشيخ ليخرجن إليه، وكان الشيخ معتصماً في السجن لا يريد أن يبرحه، وأخذه إلى دار سلار حيث عقدت اجتماعات ضمت بعض العلماء وجرت بحوث كثيرة وقد تخلف الكثير من العلماء تهيباً من الشيخ وما عنده من حجج مفحمة، وأقام الشيخ عند سلار ينتفع الناس بعلمه وفضله.

وفي شوال من نفس السنة استنكر الصوفية على الشيخ فاحيلوا على القاضي الشافعي فعقد له مجلس لم يثبت عليه شيء ولكنه قال لا يستغاث إلا بالله ولا يستغاث بالنبي. واعتبر القاضي أن هذا غير لائق.

ثم إن الدولة خيرت الشيخ بين أن يسير إلى دمشق أو الاسكندرية أو الحبس فاختار الأخير، والسبب في سجنه يعود إلى تدخل بعض الحاقدين عليه من مثل المنجي شيخ الجاشنكير حاكم مصر الذي كان يستجيب لشيخه المنجي هذا.

وكان الشيخ في سجنه يقصده الناس ويستفتونه وتأتيه الفتاوي في المشاكل المعقدة التي لا يستطيع حلها الفقهاء من الأمراء والأعيان فيكتب عليها بما يحير العقول من الكتاب والسنة.

ثم خرج الشيخ من السجن في آخر سنة ٧٠٧ وعكف الناس عليه زيارة وتعلقاً واستفتاءً.

وفي سنة ٧٠٩ سيره الحاكم إلى الاسكندرية ونزل في برج فسيح من دار السلطان الجاشنكير، الذي سبق ذكره، على هيئة المنفى وقد خاف عليه اتباعه من غائلة الجاشنكير وشيخه المنجي ولكن الله حماه منهم. وقد استطاع أن يجمع المسلمين هناك ويهدي فريقاً كبيراً من الضالين. وأقام هناك ثمانية أشهر مكرماً يتردد إليه الأعيان يستفيدون من علمه وفضله.

في هذا الوقت استطاع الملك الناصر أن ينتزع الملك من الجاشنكير هذا فطلب أن يقدم عليه الشيخ معززاً مكرماً وقد تلقاه في مجلس حافل وصف بأن السلطان لما رآه نهض قائماً ومشى إلى طرف الايوان واعتنقا ثم اختليا ساعة يتحدثان ثم عادا ويد الشيخ في يد السلطان.

وتبين فيما بعد أن السلطان إستفتى الشيخ في قتل بعض القضاة الذين نالوا منه، ولما كان السلطان ناقماً عليهم لأنهم كانوا أفتوا بعزله من الملك، فقد أدرك الشيخ غرض السلطان وأنكر أن ينال أحداً بسوء، ولم يرد أن ينتقم لنفسه، وأخذ يعظم العلماء والقضاة، وعندما قال له لقد أرادوا قتلك قال من آذاني فهو في حل ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وما زال يحاوره حتى حلم السلطان عنهم، وهذه الحادثة تدل على تسامحه وقلبه الأبيض حتى أن خصمه قاضي المالكية قال ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقدر عليه وقدر علينا فصفح عنا.

ثم إن الشيخ سكن في مصر قرب مشهد الحسين وأخذ الخاصة والعامة يترددون إليه. والفقهاء والقضاة منهم من يعتذر إليه ويتنصّل مما وقع منه وهو يقول قد سامحت كل من آذاني.

وفي سنة ٧١٢ عاد الشيخ إلى دمشق بصحبة السلطان بعد أن غاب عنها سبع سنين، فخرجت دمشق بأسرها رجالاً ونساءً وأطفالاً لاستقباله وفرحوا به واستبشروا بقدومه واستمر هناك في نشر العلم وتصنيف الكتب وإفتاء الناس والاجتهاد في أحكام الشريعة، حيث كان يفتي بما أدى إليه اجتهاده، فأحياناً يوافق المذاهب الأربعة وأحياناً يخالفهم مستدلاً على ذلك من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف.

وكان يمكن أن يمضي بقية حياته في رغد وأمن لولا أن عكرتها حادثة نسبت إليه زوراً ووجدها الحاقدون عليه فرصة للنيل منه وبسببها دخل الحبس من جديد.

سبب دخوله السجن

تلك الحادثة التي أقامت الدنيا حوله ولم تقعدها ما نسب إليه زوراً من منع زيارة

قبور الأنبياء والصالحين ، لأن المأثور عنه أن مثل هذه الزيارة الخالية عن شد الرحل يستحبها وكتبه ومناسكه تشهد بذلك .

وهكذا صدر الأمر باعتقاله من جديد وحبس في قلعة دمشق في شعبان سنة ٧٢٦ فلم يتأثر وقال أنا كنت منتظراً لذلك ،وأظهر الفرح والسرور معتبراً أن حبسه سيكون فيه مصلحة كبيرة وخير كثير .

فأخليت له قاعة وسمح لأخيه أن يقيم معه في خدمته إلى أن توفاه الله فيها في ذي القعدة سنة ٧٢٨ .

وصف جنازته

وقد حضر خلق كثير إلى القلعة سمح لهم برؤيته ، وتزاحمت الناس بالقلعة وبالطريق إلى الجامع الأموي الذي امتلأ ووضعت الجنازة في الجامع وأحاط بها الجند يحفظونها من الزحام وصلي عليه في الجامع الأموي وكان يوماً مشهوداً ضاقت الرحاب والأزقة والأسواق وخرج الناس من الجامع من أبوابه كلها ،كل باب أشد زحمة من الآخر ،ثم حمل على رؤوس الأصابع واشتد الزحام وعلت الأصوات بالترحم عليه والثناء والدعاء له ، وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائمهم وثيابهم ، وخرج الناس من أبواب البلد جميعها ، وزاد في الزحام كثرة من أتى من أهل الغوطة وأهل القرى وغيرهم ، وأغلق الناس حوانيتهم ولم يتخلف إلا من هو عاجز ، حتى إن من حضر من النساء قدر بخمسة عشر ألفاً غير من كُنَّ على الأسطحة ، وقدر عدد الرجال بمئتي ألف .

وهكذا انتهت حياة الشيخ الإمام حافلة بالأحداث والجهاد والكفاح ، لم يخرج فيها عن الخط الذي رسمه لنفسه في نصرة دين الله وإظهار شريعته ، سائراً بجناحين كتاب الله وسنة رسوله .

رحمه الله وجزاه عن هذه الأمة خير الجزاء وأولاه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه .

التعريف بالكتاب

يمتاز هذا الكتاب - الفرقان بين الحق والباطل - بأنه آخر ما كتبه المؤلف الشيخ ابن تيمية رحمه الله، حيث ألفه وهو سجين القلعة في دمشق التي توفي فيها، لذلك فقد سكب فيه خلاصة مؤلفاته السابقة وبحوثه التي شغلت حياته؛ ومن هنا تأتي أهميته ككتاب أودع فيه زبدة خواطره وأفكاره، ولخص كل ما أسهب فيه القول وأطنب فيه الكلام في تصانيفه المتعددة.

الباعث على تأليف الكتاب

وفكرة الكتاب تعود إلى أن المؤلف هاله أن يجد المسلمين ينقسمون إلى فرق متعددة وأحزاب متضاربة «كل حزب بما لديهم فرحون» كل فرقة تعارض الفرقة الأخرى وتختلف معها في الرأي وتعارضها في الفكر، وأن أساس الخلاف - كما يقول الشيخ - ناجم عن البعد عن كتاب الله دستور هذه الأمة، ولو أنهم اعتمدوا كتاب الله في مناهجهم وآرائهم لما وجد الخلاف إلى صفوفهم سبيلا.

ولكن التعصب للرأي والانحياز للفرقة التي ينتمي إليها الشخص والانزلاق في متاهاتها دون تحكيم كتاب الله، هو الذي غذى التفرقة ووسع هوة الخلاف. بل إن الانقياد الأعمى للرأي والتعصب له جعل غشاوة على العيون حال بينها وبين رؤية الحقيقة، وأصم الآذان فلا تصغي إلى صوت الحق، وأعمى القلوب فأفقدها البصيرة «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور».

ماذا فعل المؤلف

أمام هذه التيارات المتباينة والمواقف المتضاربة والفرق المتناحرة وقف الإمام

وقفة المناضل الشريف وثبت ثبات الأسد الهصور يعرض آراء الفرق ويفندها ويبسط انحرافاتها فقرة فقرة وينقضها خطوة خطوة، ويبطل استدلالاتها وبراهينها الواحد تلو الآخر، ويهدمها اللبنة تلو اللبنة، معتمداً في رده عليها، على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ما رزقه الله من بصيرة نقاوة وحجج دامغة وبراهين قاطعة، يسعفه في ذلك حافظة مدهشة يدعوها فتلبيه ويسألها فتمده بما يحتاج إليه من آيات كتاب الله وسنة رسول الله، لإقناع المنحرفين وإبطال أقاويلهم وتصحيح مسارهم.

أسلوب الكتاب

والكتاب موجز بليغ في عرض الأفكار والرد عليها وهو على اختصاره فقد حاول المؤلف أن يزخم فيه آراء الفرق الإسلامية بشكل بليغ وبطريقة لا تخلو من الغموض ويرد عليها ويفندها بمثل ذلك، وكأنه ألف هذا الكتاب وخاطب به فريقاً عندهم اطلاع واسع على آراء الفرق وإلمام غزير بمذاهبهم وأفكارهم، ولذلك جاءت عبارته يكتنفها الغموض ويغشاها الإبهام.

وهذا الأمر يجعل القارىء العادي في هذه الأيام يشعر بأنه يحل طلاسم أو يفك رموزاً وألغازاً، وبالتالي يجعله لا يكاد يفقه ما يقول، وأنه بحاجة ماسة إلى مزيد من البيان والتوضيح حتى يستطيع أن يعايش المؤلف في أفكاره ويمشي معه في خطواته.

لماذا كانت التعليقات على الكتاب

ولما كان هذا الكتاب جديراً أن يطلع عليه الناس لأنه آخر ما كتبه المؤلف جامعاً فيه زبدة ما كتبه من قبل، ولما كنت حريصاً أن أوفر على القارىء جهده في فهم ما إليه يقصد والوصول إلى كشف ما يريد، فقد وجهت اهتمامي إلى توضيح عبارة المؤلف بالتعليق عليها في مواضعها من الكتاب وذلك بإعادة الضمائر الملتبسة إلى أصحابها ليتضح المعنى، أو بذكر الفريق الذي يريد بعد أن كان غامضاً، أو بتوضيح الجملة الخفية التي لزخها من المؤلف جعلت القارىء يتيه في تحليلها ولا يكاد يبين أو بالتصريح بالغرض الذي يرمي إليه بعد أن يكون قد ذكر رمزاً عنه يجعل القارىء

متطلعاً إلى معرفة تفاصيله ، أو تحديد غرضه من كلمة معينة تحتمل أكثر من اتجاه .

التعليقات سبيل إلى فهم الكتاب

هذه وغيرها من التعليقات التي يعثر عليها القارىء في كل صفحة من صفحات الكتاب ، يجد معها القارىء السبيل ميسراً أمامه لفهم غرض المؤلف فيستسيغه دون جهد وينكشف له دون مشقة ويتوضح أمامه بلا عناء ، وكأن هذه التعليقات أضواء تُلقى على الغوامض فتجلوها وعلى المعتم من الأفكار فتنيرها وعلى المعقد من المعاني فتحل عقدها وعلى الملتبس من الكلام فتحدد مسارها ، وسوف يلمس القارىء الجهد المبذول في ذلك والعناء الذي قمنا به في هذا السبيل لنقدم للقارىء نتاج المؤلف سائغاً حلو المذاق ، فيمضي في تصفحه برغبة وشوق ويقبل عليه بشغف وذوق تستأسره معانيه وتأخذ بلبه مراميه ولا يكاد يتركه حتى يستوفيه .

لمحة عن مواضيع الكتاب

والآن سأستعرض معك أيها القارىء العزيز مواضيع هذا الكتاب لتأخذ لمحة موجزة عن أبوابه وفصوله وغاياته وأهدافه ، لتكوّن فكرة عامة وهيكلية مجملة عن مسيرة الكتاب ، ولتكون على علم مسبق بمواضيعه يكون عوناً لك في متابعته .

يمهد المؤلف لكتابه بأن كتاب الله وسنة رسوله هما النبع الذي يرتوي منه الناس ، وأن من كان متبعاً لهما كان سائراً على الحق والطريق المستقيم وكلما ابتعد الناس عن هذين الأصلين التبس عليهم الحق بالباطل وأدى بهم ذلك إلى الضلال المبين .

السلف أولى بالاتباع

ثم يعود فيؤكد أن السابقين الأولين من الصحابة هم أجدر أن يتبعهم المسلمون من بعدهم لأن الآية نزلت بحقهم « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وقوله تعالى « والسابقون الأولون » ومن هنا كانت آراؤهم وأقوالهم أولى بالاتباع من آراء وأقوال من بعدهم داعماً قوله بالحديث الشريف « خير القرون القرن الذي بعثت فيه ثم الذين يلونهم » .

ومعلوم أن السلف لا يوجد منهم من عارض كلام الله برأي أو عقل أو قياس أو ذوق. وأنهم يسيرون وفق قول الله ورسوله مطبقين الآية الكريمة ﴿لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾. أي لا تتسرعوا في اتخاذ موقف قبل أن تعرفوا بيان الله من بيان رسوله. بينما المتأخرون لم يراعوا هذه القاعدة فكثر فيهم مخالفة الكتاب والسنة.

وبعد أن مهد المؤلف بهذه المقدمة المسلمة، يعود فيبين عليها الأحكام ويرتب عليها النتائج، منتقلاً إلى ذكر الفرق الإسلامية التي نشأت من لدن سيدنا علي رضي الله عنه حتى زمانه عارضاً آراءها ووجهة نظرها ليعود فيهدم أفكارها ويثبت فساد ما ذهبت إليه، معتمداً على الحجة والمنطق ومستنداً إلى كتاب الله وسنة رسول الله.

أصل الانحراف عند الفرق

وقد تناول الفرق الإسلامية فرقة فرقة ذاكراً ما لها وما عليها، مبتدئاً بالخوارج ثم مروراً بالشيعة والقدرية والمرجئة والجهمية والمعتزلة والأشاعرة وأصحاب المذاهب الأربعة، منبهاً إلى أن أصل الانحراف عند الفرق ناشىء عن سوء فهمهم لنصوص القرآن الكريم.

الخوارج

فالخوارج مثلاً خطأهم أنهم كفروا أهل الذنوب لأن المؤمن في رأيهم هو التقي ومن لم يكن تقياً فهو كافر مخلد في النار، زاعمين أن القرآن يؤيد رأيهم، ومع أنهم يعظمون القرآن ويطلبون اتباعه إلا أنهم ناقضوا أنفسهم حين خالفوا القرآن بمخالفتهم السنة التي أمر القرآن باتباعها في قوله تعالى ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ فخالفوا تعاليم الرسول التي يظنون أنها تخالف القرآن، وجوزوا أن يكون النبي ظالماً فلم ينقادوا لحكمه ولا لحكم الأئمة بعده، بل قالوا إن عثمان وعلياً قد حكموا بغير ما أنزل الله. وقد ظهر أمرهم عندما خرجوا على علي كرم الله وجهه في معركة صفين بعد أن رضي بالتحكيم.

القدرية

وقد ينشأ الانحراف من عجز العقول عن فهم الإيمان بقدر الله (كالقدرية) الذين ربطوا إرادة الله بأمره وأنه لا يعلم قبل الأمر من يطيعه ومن يعصيه، لأنه لو علم أن فلاناً سيعصي لم يحسن أن يخلقه، وظنوا أن القدر يناقض الشرع وصاروا فريقين: فريقاً يغلب الشرع ويعظم الأمر والنهي والوعد والوعيد وظنوا أن هذا لا يمكن أن يجمع بينه وبين القدر فكذبوا بالقدر. وفريقاً يغلب القدر فينفي الشرع في الباطن ويقول لا فرق بين ما أمر الله به وما نهى عنه وجعلوا من أصلهم عدم إمكان إثبات قدرة الله وحكمته؛ وقد أنكر الصحابة مذهبهم وتبرأوا منه.

بين المرجئة والجهمية

وقد ينشأ الانحراف من اختلاف في الرأي؛ فالمرجئة مثلاً تقول الأعمال ليست من الإيمان مستندين إلى أن الإيمان في القلب مستشهدين بقول النبي صلى الله عليه وسلم «الإسلام علانية والإيمان في القلب».

والجهمية لهم رأي غريب، فهم الذين يذهبون إلى نفي الصفات عن الله ويقولون إن الإيمان مجرد تصديق القلب وإن لم يتلفظ بالشهادتين، مستشهدين بإيمان الأخرس. وقالوا إن قدرة الله ثابتة بلا حكمة ولا يجوز القول بأنه يفعل لحكمة حتى لا يؤدي ذلك إلى القول بأنه محتاج والله منزه عن الحاجة.

المعتزلة

ثم يتعرض المؤلف للمعتزلة ذاكراً نبذة عنهم وأصولهم الخمسة. كقولهم بأن القرآن مخلوق وإنكارهم رؤية الله في الآخرة ونظرية العدل التي تقول إن من العدل أن يكون ما لا يشاء الله وانه سبحانه لم يخلق أفعال العباد وحتمية إنفاذ وعيد الله حتى لا يلزم الكذب على الله وإنكارهم للخوارق من غير الأنبياء. وإنهم في كل ما ذهبوا إليه يرمون إلى تنزيه الله وتقديسه وتعزيز مقام النبوة وإن أخطأوا في بعض آرائهم فهم إذ ينفون الصفات عن الله مثل الوجه واليد إنما يقصدون تنزيه الله عن الشبيه، وعندما ينفون رؤية الله في الآخرة يقصدون تنزيه الله عن المكان، ولكن هذا يخالف صريح

القرآن ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ وإن رؤية الله في الآخرة تكون بشكل لا نستطيع تحديده.

الأشاعرة

ويستطرد إلى الأشاعرة أتباع أبي الحسن الأشعري وكان من المعتزلة ثم خرج عنهم وناقضهم في جميع أصولهم التي كان خبيراً بها، ويقف عند خلافه معهم في إثبات الصفات لله فهم ينفونها وهو يثبتها وإن كان لا يثبت الصفات الاختيارية مثل كون الله يتكلم بمشيئته، لأن ظاهر القرآن والأحاديث وأقوال السلف تخالف الرأيين وإنه سبحانه يتكلم بمشيئته في وقت معين، ثم يناقش مدى الاضطراب حول هذه النقطة وهل المراد من كلام الله القديم أنه غير مخلوق وأنه سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء وكيف شاء، أو هو قديم أي متقدم على زمان المبعث؛ وإن كان في القرآن آيات تدل على كلام الله في وقت بعينه مثل قوله تعالى ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ ﴿ثم قال له كن فيكون﴾.

وبالجملة فإن المؤلف يؤيد رأي أبي الحسن الأشعري ونقل عنه قوله: « فإن قال قائل: قد أنكرتم قول الجهمية والقدرية والخوارج والروافض والمعتزلة والمرجئة فعرفونا قولكم الذي به تقولون وديانتكم التي بها تدينون قيل له: قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا وسنة نبينا وما جاء عن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ».

ويمر بقضية تحصيل العلوم فيقسمها إلى قسمين دنيوية كالحساب والطب والزراعة وهذه طريقها التجربة والنظر؛ وإلهية وهذه طريقها إخبار الرسول المشتمل على النظر والبرهان عن طريق العقل والاستدلال.

موقف الرازي

ويتوقف عند رأي الرازي الذي يذهب إلى أن الدليل السمعي مشروط أن لا يعارضه العقل، وأنه لا يفيد اليقين، ويناقش الخلاف بينه وبين الأشعري في صفات الله الواردة في القرآن مثل الوجه واليد حيث أثبتها الأشعري وتوقف فيها الرازي؛

ومع هذا يثبت للرازي التزامه بمنهج القرآن مسجلاً كلامه في ذلك « تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الإثبات « الرحمن على العرش استوى » واقرأ في النفي « ليس كمثله شيء » . ويستخلص المؤلف أن الاعتماد في العلوم الإلَهية والدينية على إخبار الرسول .

علماء الكلام

ولا ينسى المؤلف أن يعرض لموقف علماء الكلام والطرق التي سلكوها والألفاظ التي أحدثوها من مثل اللفظ المركب والجسم والجوهر والعرض والجهة والخبر وغير هذا مما لا يوجد في الكتاب والسنة ؛ وأنهم يحتجون بالمتشابه من القرآن الذي نهى الله عنه ويفسرون الآيات وفق رأيهم وما وجدوه مخالفاً لهم يحرفونه ويتأولونه ولذلك يذم أساليبهم لأنها باطلة عقلاً وشرعاً وليست موصلة إلى المعرفة وأن العارفين منهم ينتهي بهم المطاف إلى الشك والحيرة . وينتهي إلى القول بأن الرسول والصحابة لم يكونوا يسلكون هذا السبيل .

حدوث العالم وكلام الله

ويفيض القول حول حدوث العالم وقدم الله سبحانه وفساد طريقة ابن سينا في الاستدلال بالممكن على الواجب وهل تقوم به الحوادث وتزول .

يذكر هذا ليشرح قضية كلام الله لموسى مع أن كلام الله قديم ، مفسراً أن كلام الله لموسى كان بصوت ثم عدم ذلك الصوت ، ويذهب إلى فساد القول بأن الصوت قديم وهو ما ذهب إليه فريق من الحنابلة والشافعية والمالكية ، وبالنسبة إلى المعتزلة والكلامية والساعية فريق يقول إنه مخلوق وفريق يقول إنه قائم بالذات وفريق يقول بحرف وصوت . ونحن نقول بما قاله المسلمون من أن القرآن كلام الله وغير هذا من الأقوال لا نعتد به ، وقد دخل خلفاء بني العباس طرفاً في هذه القضية التي شغلت العالم الإسلامي ردحاً من الزمن ، فالمأمون دعا إلى القول بخلق القرآن مؤيداً رأي المعتزلة وتبعه الواثق إلى أن جاء المتوكل فأعاد الحق إلى نصابه .

أصل الخطأ

ثم يكشف أن أصل الخطأ نشأ من قول الجهمية بأن ما لم يخل من الحوادث فهو حادث وبهذا القول جعلوا للفلاسفة والملحدين سبيلاً للتهجم على الإسلام مع أن هذا الأصل مخالف للعقل وللشرع ، ويجول جولة مع الفلاسفة وبعض الفرق المعطلين لصفات الله حول قيام الحوادث وزوالها والحركة والسكون ، مبيناً خطأ من ذهب إلى تسوية المخلوق بالخالق ، وإذا كان هذا ضلال فأشد منه المعطلة الذين جعلوا الله مثل المعدوم وكذلك يبين خطأ من ذهب إلى تنزيه الله مكتفياً بنفي الجسم عنه ، وأن المعطلة النفاة لا يعتمدون على أخبار الرسول وإنما يعتمدون على ما يظنونه أدلة عقلية ، ولو أنهم اعتمدوا على ما جاء به الرسول لما ضلوا السبيل .

الصوفية

ولا ينسى المؤلف أن يتعرض للصوفية والمتصوفين ويجول معهم جولات في الصحة والخطأ ، فيثبت بادىء ذي بدء أن لهم إلهامات صحيحة وفراسة صادقة مستنداً إلى الآية الكريمة ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾ وإلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » غير أنه يعود فيطعن بهم لأن لهم شطحات لا يميزون فيها بين الحق والباطل ، وقد كان عليهم أن يعتمدوا على ما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله لا أن يتبعوا أهواءهم ، فهم أصحاب وجد وهيام ، فإن لم يكن هيامهم مستنداً إلى ما أنزل الله كان منجرفاً عن الطريق المستقيم متبعاً للهوى ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾ .

ويستشهد على رأيه هذا بحديث النبي صلى الله عليه وسلم « قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر » مستخلصاً أن أهل المكاشفة والإلهام ليسوا أفضل من عمر ، وإذا كان عمر معتصماً بكتاب الله وسنة رسوله ، وأي خاطر يرد على ذهنه يعرضه على الكتاب والسنة فإذا وجده مخالفاً أعرض عنه وضرب به عرض الحائط كما حصل له مع المرأة التي عارضته في الحد من مهور النساء ذاكرة له الآية ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ فقال « أصابت امرأة وأخطأ عمر » .

وإن أصل الخطأ عندهم يكمن في عدم تمييزهم بين الخواطر الرحمانية والخواطر الشيطانية وإن من توصل إلى فعل الخوارق يبايعونه بالولاية ناسين أن الخوارق قد تجري على يد بعض الشياطين، وإن من أقوالهم الأولياء أفضل من الأنبياء لأن الولي يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه جبريل الذي يأتي الرسول وإنهم يخرجون أقوالهم بغالب الكشف. ويستفيض في ذكر بعض أفكارهم وأنهم أثبتوا أربعة أشياء: قوم محجوبون وقوم ليسوا بمحجوبين وأمر انكشف لهؤلاء وحجب عن أولئك وهذا مغاير لقولهم ليس هناك اثنان ولا وجودان، ويناقشهم في موضوع وحدة الوجود وفناء الشخص بأنه قد يغيب عن شهود نفسه فيظن أن ما لم يشهده قد عدم في نفسه وليس الأمر كذلك لأن الذي عدم إنما هو صفة ذلك الشخص لا الموجودات، وعدم العلم ليس علماً بالمعدوم، وعدم الشهود ليس شهوداً للعدم، ومن هنا جاءت فكرة الحلول والاتحاد ذلك أن الواحد قد يذكر الله حتى يستغرق في الذكر ويغلب على قلبه فلا يبقى له شهود إلا الله ويفنى شهوده لما سواه فيتوهم أن الأشياء قد فنيت وحتى نفسه فنيت كذلك، ثم يرتقي مرحلة جديدة فيتوهم أن الله حل فيه وأنه هو الله كما قال بعضهم «ما في الجبة إلا الله».

مناقشة بعض المتصوفين

وقد ناقش المؤلف بعضهم في قوله تعالى على لسان إبراهيم ﴿إنني براء مما تعبدون﴾ موجهاً إليه السؤال: مم تبرأ الخليل؟ أتبرأ من الله تعالى؟ لزعمهم أن العابد لغير الله ما عبد إلا الله. والخليل قد تبرأ من كل ما كانوا يعبدون إلا من رب العالمين. وفي هذا إفحام لمن ينحو هذا النحو ويقول بالحلول وباتحاد الخالق مع المخلوق.

ويتابع المؤلف في رده بأن الله سبحانه يعلمنا أن نقتدي بإبراهيم ونأخذ فيه أسوة حسنة قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ (الممتحنة/ آية ٤).

ويستطرد في مناقشة بعض المتصوفين في قولهم الأعيان ثابتة في العدم ووجود الحق فاض عليها منتهين إلى القول بأنا نحن جعلناه بألوهيتنا إلهاً، أي أن المخلوقات

جعلت الرب إلّهاً. ويرد عليهم بأن في هذا الكلام انتقاصاً من مقام الربوبية وأن الله خالق كل شيء وأنه سبحانه يعلم ما يكون قبل أن يكون، وقد يذكره ويجريه فيكون شيئاً في العلم والذكر مصداقاً للآية: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ وهو سبحانه الذي خلق الإنسان وعلمه بالفهم وأنه إذا آمن بالرب يكون قد اتخذ الله رباً ولم يبغ رباً سواه «قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء» وغير الله لا يصلح أن يتخذ إلّهاً يعبد لأنه لا يخلق ولا يرزق ولا يسمع الدعاء وإذا سمع لا يستجيب.

الصوفية يأخذون عن الفلاسفة

ويعزو أسباب الانحراف عند المتصوفين إلى أخذهم عن الفلاسفة بعض نظرياتهم، وهؤلاء أبعد الناس عن الاعتقاد بما جاء به الرسول أو الاستدلال به لأنه يخبر عن أمور غيبية لا يدركونها بعقولهم ويذهبون إلى أن الأنبياء تكذب. ولكن للمصلحة فامتنع أن تكون اخبارهم طريقاً للعلم.

عودة إلى الجهمية نفاة الصفات

ثم يعود فيركز على الجهمية النفاة القائلين بأنه ليس هناك عدل ولا ظلم ولا حسن ولا قبيح ولا معروف ولا منكر بل يجوز أن يأمر الله بكل شيء وينهى عن كل شيء، ويكشف حقيقتهم بأنهم إما منافقون يبطنون الشرك، أو مشركون، ويظنون بالله ظن السوء وأنه لا ينصر محمداً وأتباعه، ويتمسكون بالآية ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ ولما استولى التتار على بغداد ارتد الكثير منهم عن الإسلام متذرعين بأنهم مع المشيئة الإلّهية، وصاروا يتخيلون أو شياطينهم يخيلون لهم أسطراً من نور فيها كتابة أن الرسول أمر بقتال المسلمين لكونهم قد عصوا ربهم.

وكان هناك آراء ثلاثة حول الخوارق هذه فريق يكذب بوجودها وفريق عرفوا أصحابها فرجعوا إلى القدر وقالوا هناك طريق إلى الله غير طريق الأنبياء وفريق جعلوا الأولياء ضمن دائرة الرسول، وإن هذه الآراء كانت منتشرة في دمشق لما فتحت عكا.

رد المؤلف عليهم

ويرد المؤلف عليهم بأن أصحاب الخوارق من الشياطين وأن سبب الضلال كان في عدم التفرقة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ويضرب مثلاً فيحكي عن شيخ يدعى ابن السكران أيام هولاكو المغولي أنه وجد شيخاً من مشايخ الطرق آخذاً بفرس هولاكو وهو يدخل بغداد فقال له منكراً : هل تفعل هذا بأمر؟!! فأجابه نعم.

ويناقش المؤلف هذه الحكاية متهماً ابن السكران بأنه لا يفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وكان الأجدر به أن يحاوره بأمر من تؤمر؟ فإن قال بأمر الله قيل له: بأمر الله الذي بعث به رسوله وانزل به القرآن أم بأمر وقع في قلبك؟ فإن قال بالأول ظهر كذبه لأن الله لا يأمر بتسليط الكفار على المسلمين. وإن قال بالثاني يقال له: من أين لك أنه رحماني؟ ولم لا يكون هذا الأمر من الشيطان؟ فإن رجع إلى المشيئة وأن كل شيء بمشيئة الله يقال له هذا بالأمر القدري الذي يدخل فيه الجميع لكن ما نحن بصدده لم يكن بأمر الرسول فيكون من الشيطان وبالتالي مستوجباً للعذاب.

ويتابع الرد بأن احتجاجهم بالآية ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ « يفعل ما يشاء » في غير محله إذ المقصود بالآية إثبات قدرة الله لا نفي حكمته وعدله، أي أن الله يفعل ما يشاء ولا يمكن لأحد أن يعارضه، وهو سبحانه قادر على فعل ما يشاء. وبالنسبة لغير القادر قد يفعل ما لا يريد بسبب الإكراه، أما الله سبحانه فلا مكره له.

اعتماد الفرق على غير كتاب الله

وينهي المؤلف كتابه بتعليق عابر على أصحاب الفرق الذين يعارض بعضهم بعضاً « كل حزب بما لديهم فرحون » وإنهم يجعلون أصولهم العقلية مقدمة على ما تلقوه من الشريعة، وإن هذه الأصول المشتملة على العلم بما يجب للرب وما يمتنع عليه وما يجوز من أشرف العلوم وإنهم فاقوا بها الصحابة وإن النبي لم يعلمها الصحابة لانشغالهم بالجهاد.

ويرد عليهم المؤلف بأنا عندما ننظر إلى احتجاجهم نجد كل فريق يسخر آيات الله لرأيه وهواه معارضاً بها آراء الفريق الآخر، والفريق الآخر هذا يحتج بآيات تعارض آراء الفريق الأول، مع أنه ليس في تلك الآيات ولا في هذه ما يدل على صحة قول فريق منهما، بل بعضها يهدم بعضاً وكلا القولين باطل.

وعندما خرج النبي ﷺ على أصحابه وهم يتجادلون في القدر هذا يقول ألم يقل الله كذا وهذا يقول ألم يقل الله كذا تغير وجهه ﷺ وقال: «أبهذا أمرتم أم إلى هذا دعيتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض».

ويعلق على موقفهم بأنهم كلهم ليس معهم من الحق إلا ما وافقوا فيه الرسول وتمسكوا به من شرعه.

وبوجه الإجمال فإن المؤلف يعزو اختلاف الفرق فيما يذهبون إليه إلى اعتمادهم على غير القرآن والسنة من أصول ابتدعوها وآراء اعتنقوها في الإيمان وفي التوحيد وفي القدر وفي صفات الله وفي كلام الله، وإذا وجدوا في القرآن ما يؤيد رأيهم استشهدوا به وما وجدوه مغايراً تأولوه على نحو يدعم موقفهم ويدفع معارضيهم. ولو أنهم احتكموا إلى كتاب الله وسنة رسوله ولم يعولوا على أفكارهم ولم يتمسكوا بآراء مذاهبهم لما كان ثمة خلاف بينهم بل يكون كتاب جامعاً لشتاتهم موحداً بينهم.

والآن أيها القارىء الفاضل أدعك وهذا الكتاب النفيس تقرأه على بصيرة وتمر على أبوابه وفصوله لتعيش مع المؤلف في آرائه وأفكاره وتعليقاته ومناقشاته، خالية من التعقيد خالصة من شوائب الإبهام والغموض لتطلع على آراء فرق إسلامية شغلت العالم الإسلامي بل وغير الإسلامي قروناً عدة من لدن سيدنا علي رضي الله عنه حتى زمن المؤلف وبعده، احتدم فيها الجدل الديني وتبارى فيها الفكر الإسلامي جاعلين من نصوص القرآن الكريم مادة لتأييد هذا الفريق أو ذاك، يطلعك المؤلف على كل ذلك ويناقشهم، يوافقهم حيناً ويعارضهم في أكثر المرات، وأنت تمر على ذلك كله بنفس راضية يحدوها الشوق والرغبة لمعرفة آراء فرق من المسلمين لعبت دوراً بارزاً في التاريخ كان له صداه في البحث والتنقيب، وكانت له أبعاده في مجال العقل والفهم، كل ذلك بفضل الإسلام الذي أفسح في المجال للعقل أن ينطلق من عقاله وللعلم

أن يطلب إلى أقصى مداه، موازناً بين العقل والدين ينشد كل واحد منهما الآخر دون حرج أو تبرم ويشد أحدهما الآخر على هدى وبصيرة.

والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن يستفيد منه المسلمون فيزدادوا معرفة بأصول دينهم وجوهر عقيدتهم، والحمد لله في البدء وفي الختام والصلاة والسلام على خير الأنام.

الشيخ حسين يوسف غزال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيآت أعمالنا ، من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

قال الإمام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله ، وهو مما صنفه بقلعة دمشق أخيراً :

فصل
في الفرقان بين الحق والباطل

إن الله بين ذلك بكتابه ونبيه ، فمن كان أعظم اتباعاً لكتابه الذي أنزله ، ونبيه الذي أرسله ، كان أعظم فرقاناً . ومن كان أبعد عن اتباع الكتاب والرسول ، كان أبعد عن الفرقان ، واشتبه عليه الحق بالباطل ، كالذين اشتبه عليهم عبادة الرحمن بعبادة الشيطان ، والنبي الصادق بالمتنبي الكاذب ، وآيات النبيين بشبهات الكذابين ، حتى اشتبه عليهم الخالق بالمخلوق .

فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً بالهدى ودين الحق ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ففرق به بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغي ، والصدق والكذب ، والعلم والجهل ، والمعروف والمنكر ، وطريق(*) أولياء الله السعداء وأعداء الله الأشقياء ، وبيَّن ما عليه الناس من الاختلاف ، وكذلك النبيّون قبله . قال الله تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى ٱللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ

(*) معطوفة على الحق ، أي وفرق بين طريق أولياء الله .. الخ

مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِ، وَٱللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1].

وقال تعالى ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ★ وما أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ ﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَى عبدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾[3].

وقال تعالى ﴿ الٓمٓ ★ ٱللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ★ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلإِنْجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾[4].

أقوال العلماء في تفسير معنى الفرقان

قال جماهير المفسرين : هو القرآن .

روى ابن حاتم بإسناده عن الربيع بن أنس قال : هو الفرقان ، فرق بين الحق والباطل . قال : وروي عن عطاء ومجاهد ومقسم وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك .

وروى بإسناده عن شيبان عن قتادة في قوله ﴿ وَأَنْزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾[5] قال : هو القرآن الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم ، ففرق به بين

---

(١) البقرة ٢١٣ .
(٢) النحل ٦٣ ، ٦٤ .
(٣) الفرقان ١ .
(٤) آل عمران ١ .
(٥) آل عمران ٣ .

الحق والباطل ، وبين فيه دينه ، وشرع فيه شرائعه ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، وحدَّ حدوده ، وأمر بطاعته ، ونهى عن معصيته .

وعن عباد بن منصور : سألت الحسن عن قوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ قال هو كتاب بحق .

والفرقان مصدر فرق فرقاناً مثل الرجحان والكفران والخسران ، وكذلك القرآن هو في الأصل مصدر قرأ قرآناً . ومنه قوله ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ★ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ★ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾[1] .

ويسمى الكلام المقروء نفسه قرآناً ، وهو كثير كما في قوله تعالى ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَٱسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[2] .

كما أن الكلام هو اسم مصدر كلم تكليا ، وتكلم تكلماً ، ويراد به الكلام نفسه ، وذلك لأن الإنسان إذا تكلم كان كلامه بفعل منه وحركة هي مسمى المصدر ، وحصل عن الحركة صوت يقطع حروفاً هو نفس التكلم . فالكلام والقول ونحو ذلك يتناول هذا وهذا ، ولهذا كان الكلام تارة يجعل نوعاً من العمل إذا أريد به المصدر ، وتارة يجعل قسياً له إذا أريد ما يتكلم به ، وهو يتناول هذا وهذا . وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

رأي المؤلف في معنى الفرقان

والمقصود هنا أن لفظ الفرقان إذا أريد به المصدر كان المراد أنه أنزل الفصل والفرق بين الحق والباطل ، وهذا منزل في الكتاب ، فإن في الكتاب

---

(١) القيامة ١٧ - ١٩ .

(٢) النحل ٩٨ .

الفصل، وإنزال الفرق هو إنزال الفارق. وإن أريد بالفرقان ما يفرق فهو الفارق أيضاً، فهما في المعنى سواء.

وإن أريد بالفرقان نفس المصدر فيكون إنزاله كإنزال الإيمان وإنزال العدل، فإنه جعل في القلوب التفريق بين الحق والباطل بالقرآن كما جعل فيها الإيمان والعدل، وهو سبحانه وتعالى أنزل الكتاب والميزان، والميزان قد فسر بالعدل، وفسر بأنه ما يوزن به ليعرف العدل، وهو كالفرقان، يفسر بالفرق، ويفسر بما يحصل به الفرق، وهما متلازمان.

بعض الأسماء التي أطلقت على القرآن

فإذا أريد الفرق نفسه فهو نتيجة الكتاب وثمرته ومقتضاه، وإذا أريد الفارق فالكتاب نفسه هو الفارق، ويكون له اسمان، كل اسم يدل على صفة ليست هي الصفة الأخرى. سمي كتاباً باعتبار أنه مجموع مكتوب تحفظ حروفه ويقرأ ويكتب، وسمي فرقاناً باعتبار أنه يفرق بين الحق والباطل كما تقدم. كما سمي هدى باعتبار أنه يهدي إلى الحق، وشفاء باعتبار أنه يشفي القلوب من مرض الشبهات والشهوات ونحو ذلك من أسمائه. وكذلك أسماء الرسول كالمقتفى والماحي والحاشر. وكذلك أسماء الله الحسنى كالرحمن والرحيم والملك والحكيم ونحو ذلك.

فصل

ورود كلمة [الفرقان] في مواضع متفرقة من القرآن لا يخرجها عن أصل معناها

والعطف يكون لتغاير الأسماء والصفات وإن كان المسمى واحداً، كقوله ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾(١) وقوله ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾(٢). ونحو ذلك؟

وهنا ذكر أنه نزل الكتاب فإنه نزله متفرقاً، وأنه أنزل التوراة والإنجيل، وذكر أنه أنزل الفرقان، وقد أنزل سبحانه وتعالى الإيمان في القلوب، وأنزل الميزان والإيمان، والميزان مما يحصل به الفرقان أيضاً كما يحصل بالقرآن وإذا أنزل القرآن حصل به الإيمان والفرقان.

ونظير هذا قوله ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٣) قيل الفرقان هو التوراة، وقيل هو الحكم بنصره على فرعون كما في قوله ﴿ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾(٤).

---

(١) الأعلى ١ - ٣.
(٢) الرعد ٣٣.
(٣) الأنبياء ٤٨.
(٤) الأنفال ٤١.

وكذلك قوله ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ ٱللهِ نُورٌ وكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾[1] قيل : النور هو محمد عليه الصلاة والسلام ، وقيل : هو الإسلام .

وقوله ﴿ يا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ﴾[2] قيل : البرهان هو محمد ، وقيل : هو الحجة والدليل ، وقيل : القرآن والحجة والدليل يتناول الآيات التي بعث بها محمد ﷺ ، لكنه هناك جاء بلفظ آتينا وجاءكم ، وهنا قال وأنزل الفرقان ، جاء بلفظ الإنزال .

العلم والنظر سبيلا الفرقان

فلهذا شاع بينهم أن القرآن والفرقان يحصل بالعلم والبيان كما حصل بالقرآن ، ويحصل بالنظر والتمييز بين أهل الحق والباطل ، بأن ينجي هؤلاء وينصرهم ويعذب هؤلاء ، فيكون قد فرق بين الطائفتين كما يفرق المفرق بين أولياء الله وأعدائه بالإحسان إلى هؤلاء وعقوبة هؤلاء . وهذا كقوله في القرآن في قوله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3] قال الوالبي عن ابن عباس : يوم الفرقان يوم بدر ، فرق الله فيه بين الحق والباطل .

تماثل الفرقان والمخرج

قال ابن أبي حاتم : وروي عن مجاهد ومقسم وعبد الله بن عبد الله والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك ؛ وبذلك فسر أكثرهم ﴿ إِنْ

---

(١) المائدة ١٨ .

(٢) النساء ١٧٤ .

(٣) الأنفال ٤١ .

تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾[1] كما في قوله ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴾[2] (أي كل ما ضاق على الناس).

قال الوالبي عن ابن عباس في قوله ﴿ إِنْ تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾[1] أي مخرجاً. قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان كذلك، غير أن مجاهداً قال: مخرجاً في الدنيا والآخرة.

وروي عن الضحاك عن ابن عباس قال: نصراً. قال: وفي آخر قول ابن عباس والسدي: نجاة. وعن عروة بن الزبير (يجعل لكم فرقاناً) أي فصلاً بين الحق والباطل يظهر الله به حقكم ويطفىء به باطل من خالفكم «كل هذه التفسيرات لكلمة «فرقاناً» ففسرت بالمخرج وبالنصر وبالنجاة وبالفصل بين الحق والباطل».

وذكر البغوي عن مقاتل بن حيان قال: مخرجاً في الدنيا من الشبهات، لكن قد يكون هذا تفسيراً لمراد مقاتل بن حيان كما ذكر أبو الفرج بن الجوزي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وابن قتيبة أنهم قالوا: هو المخرج. ثم قال: والمعنى يجعل لكم مخرجاً في الدنيا من الضلال، وليس مرادهم، وإنما مرادهم المخرج المذكور في قوله: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَهُ مَخرَجاً ﴾[2]، والفرقان المذكور في قوله: ﴿ وَما أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾[3]، وقد ذكر عن ابن زيد أنه قال: هدى في قلوبهم يعرفون به الحق من الباطل[3].

---

(١) الأنفال ٢٩.

(٢) الطلاق ٢.

(٣) الأنفال ٤١.

ونوعا الفرقان ، فرقان الهدى والبيان ، وهو النصر والنجاة ، هما نوعا الظهور في قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَى وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ ﴾[1] يظهره بالبيان والحجة والبرهان ، ويظهره باليد والعز والسنان .

نوعا السلطان

وكذلك السلطان في قوله ﴿ وَٱجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصيراً ﴾[2] فهذا النوع وهو الحجة والعلم كما في قوله ﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بما كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾[3] وقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ في آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أتاهُمْ إنْ في صُدُورِهِمْ إلا كِبْرٌ ﴾[4] وقوله ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾[5] وقد فسر السلطان بسلطان القدرة واليد ، وفسر بالحجة والبيان . فمن الفرقان ما نعته الله به في قوله ﴿ وَرَحْمَتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَٱلَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ★ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَالَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[6] ففرق بين المعروف والمنكر ، أمر بهذا ونهى عن هذا ، وبين الطيب والخبيث ، أحل هذا وحرم هذا .

---

(١) الفتح ٢٨ .
(٢) الإسراء ٨٠ .
(٣) الروم ٣٥ .
(٤) غافر ٥٦ .
(٥) النجم ٢٣ .
(٦) الأعراف ١٥٥ ، ١٥٦ .

الفرق بين المهتدين والضالين

ومن الفرقان أنه فرق بين أهل الحق المهتدين والمؤمنين المصلحين أهل الحسنات، وبين أهل الباطل الكفار والضالين المفسدين أهل السيئات.

قال تعالى ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ، سَاءَ مَا يَحْكُمُون ﴾[1].

وقال تعالى ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّار ﴾[2].

وقال تعالى ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ★ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[3].

وقال تعالى ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[4].

وقال تعالى ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ ٱللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ ﴾[5].

وقال تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَى وَٱلْبَصِيرُ ★ وَلَا ٱلظُّلُمَاتُ وَلَا ٱلنُّورُ ★ وَلَا الظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ★ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَاءُ وَلَا ٱلْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ

---

(١) الجاثية ٢١.

(٢) ص ٢٨

(٣) القلم ٣٦، ٣٧.

(٤) هود ٢٤.

(٥) الزمر ٩.

يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي ٱلْقُبُورِ ★ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ★ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾[1].

وقال تعالى ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي ٱلنَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾[2].

وقال تعالى ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ ﴾[3].

فهو سبحانه بيَّن الفرق بين أشخاص أهل الطاعة لله والرسول ، والمعصية لله والرسول ، كما بيَّن الفرق بين ما أَمر به وبين ما نهى عنه.

بين الخالق والمخلوق

وأعظم من ذلك أنه بين الفرق بين الخالق والمخلوق ، وأن المخلوق (المقصود به الإنسان) لا يجوز أن يسوي بين الخالق والمخلوق في شيء فيجعل المخلوق نداً للخالق.

قال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ ﴾[4].

وقال تعالى ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾[5] ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَد ﴾[6]

---

(١) فاطر ١٩ - ٢٤ .
(٢) الأنعام ١٢٢ .
(٣) السجدة ١٨ .
(٤) البقرة ١٦٥ .
(٥) مريم ٦٥ .
(٦) الإخلاص ٤ .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾.[1]

وضرب الأمثال في القرآن على من لم يفرق، بل عدل بربه وسوى بينه وبين خلقه، كما قالوا وهم في النار يصطرخون فيها ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ★ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

وقال تعالى ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ★ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ★ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ★ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ★ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[3].

فهو سبحانه الخالق العليم الحق الحي الذي لا يموت، ومن سواه لا يخلق شيئاً كما قال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ★ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[4].

المثل بالذباب

وهذا مثل ضربه الله فإن الذباب من أصغر الموجودات، وكل من يدعى من دون الله لا يخلقون ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه. فإذا تبين أنهم لا يخلقون ذباباً ولا يقدرون على انتزاع ما يسلبهم، فهم عن خلق غيره وعن مغالبته أعجز وأعجز.

---

(١) الشورى ١١.
(٢) الشعراء ٩٧ - ٩٨.
(٣) النحل ١٧ - ٢١.
(٤) الحج ٧٣ - ٧٤.

والمثل هو الأصل ، والنظير المشبه به ، كما قال ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾[1] أي لما جعلوه نظيراً قاسوا عليه آلهتهم وقالوا إذا كان قد عبد وهو لا يعذب فكذلك آلهتنا فضربوه مثلًا لآلهتهم وجعلوا يصدون أي يضحكون ويعجبون منه احتجاجاً به على الرسول[2]. والفرق بينه وبين آلهتهم ظاهر كما بينه في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾[3].

يقصد بالمثل أحياناً ما يقاس عليه للعبرة

وقال في فرعون ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴾[4] أي مثلًا يعتبر به ويقاس عليه غيره . فمن عمل بمثل عمله جوزي بجزائه ليتعظ الناس به فلا يعمل بمثل عمله .

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [5] وهو ما ذكره من أحوال الأمم الماضية التي

---

(١) الزخرف ٥٧ .

(٢) ذلك أنه عندما نزلت الآية ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جنهم . . .﴾ الأنبياء ٩٨ . فرح الكفار بهذه الآية واعتبروها حجة لهم على محمد واحتجوا بأن قوله ﴿وما تعبدون من دون الله﴾ يشمل آلهتهم كما يشمل عيسى بن مريم الذي اتخذته النصارى إلّهاً .

وإذا كان عيسى لا يعذب في النار فإن آلهتهم كذلك لا تعذب قياساً عليه .

ولكن الله سبحانه رد كلامهم وقياسهم آلهتهم على عيسى نبيّ الله بأنه لا مماثلة في هذا المجال والفرق ظاهر واضح بين آلهتهم وبين عيسى بن مريم قال تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ أي أن الذين سبقتهم منا الحسنى فكانوا محسنين مؤمنين ومنهم عيسى بن مريم هؤلاء عنها أي عن النار مبعدون .

(٣) الأنبياء ١٠١ .

(٤) الزخرف ٥٦ .

(٥) النور ٣٤ .

يعتبر بها ويقاس عليها أحوال الأمم المستقبلة كما قال ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي ٱلْأَلْبابِ﴾[1] فمن كان من أهل الإيمان قيس بهم وعلم أن الله يسعده في الدنيا والآخرة ، ومن كان من أهل الكفر قيس بهم وعلم أن الله يشقيه في الدنيا والآخرة ، كما قال في حق هؤلاء ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُوْلٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾[2] وقد قال ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[3] وقال في حق المؤمنين ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَما ٱسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[4] وقال ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلٰه إِلّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ★ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وكَذٰلِكَ نُنْجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[5] .

وقال في قصة أيوب ﴿ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرٰى لِلْعابِدِينَ﴾[6] ﴿ رَحْمَةً مِنَّا وذِكْرى لِأُولِي ٱلْأَلْبَاب﴾[7] وقال ﴿ أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى الله فَبِهُداهُمُ ٱقْتَدِه﴾[8] وقال ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَاءُ وَٱلضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) يوسف ١١١ .

(٢) القمر ٤٣ .

(٣) آل عمران ١٣٧ .

(٤) النور ٥٥ .

(٥) الأنبياء ٨٧ - ٨٨ .

(٦) الأنبياء ٨٤ .

(٧) ص ٤٣ .

(٨) الأنعام ٩٠ .

مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيب ﴾[1] وقال ﴿ وكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾[2].

تفسير المثل

فلفظ المثل يراد بـه النظير الذي يقاس عليه ويعتبر به ويراد به مجموع القياس. قال سبحانه ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[3] أي لا أحد يحييها وهي رميم. فمثل (أي: ذلك الكافر الذي ضرب هذا بالمثل) الخالق بالمخلوق في هذا النفي فجعل هذا مثل هذا لا يقدر على إحيائها سواء نظمه قياس تمثيل أو قياس شمول كما قد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع، وبين أن معنى القياسين قياس بالشمول وقياس بالتمثيل وأن المثل المضروب المذكور في القرآن(*).

فإذا قلت النبيذ مسكر وكل مسكر حرام وأقمت الدليل على المقدمة الكبرى بقوله ﷺ «كل مسكر حرام»، فهو كقوله ﷺ قياساً على الخمر لأن الخمر إنما حرمت لأجل الإسكار وهو موجود في النبيذ. فقوله ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾[4] جعل ما هو من أصغر المخلوقات مثلًا ونظيراً يعتبر به، فإذا كان أدون خلق الله لا يقدرون على خلقه ولا منازعته، فلا يقدرون على خلق ما سواه، فيعلم بهذا عظمة الخالق وأن كل ما يعبدون من دون الله في السماء والأرض لا يقدرون على خلق أصغر مخلوقاته.

---

(١) البقرة ٢١٤.

(٢) هود ١٢٠.

(٣) يس ٧٨.

(*) أي: من هذا القبيل، وهذا على رأي ذلك الكافر الذي ضرب هذا المثل.

(٤) الحج ٧٣.

المخلوق لا يقاس بالخالق

وقد قيل إنهم جعلوا آلهتهم مثلًا لله فاستمعوا لذكرها ، وهذا لأنهم لم يفقهوا المثل الذي ضربه الله ، جعلوا المشركين هم الذين ضربوا هذا المثل ، والمثل هذا في القرآن قد ضربه الله ليبين أنه لا يقاس المخلوق بالخالق ويجعل له نداً ومثلًا كقوله ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَٱلْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ★ فَذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَماذا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إلا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ★ كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُون ★ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ★ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلى ٱلْحَقِّ قُلْ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ★ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ ﴾[1] .

ولما قرر الوحدانية قرر النبوة كذلك فقال ﴿ وَمَا كَانَ هٰذَا ٱلْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللهِ وَلٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ ٱلْعالَمِينَ ★ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ★ بَلْ كَذَّبُوا بما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾[2] وهؤلاء مثلوا المخلوق بالخالق وهذا من تكذيبهم إياه .

ولم يكن المشركون يسوون بين آلهتهم وبين الله في كل شيء ، بل كانوا يؤمنون بأن الله هو الخالق المالك لهم وهم مخلوقون مملوكون له ، ولكن كانوا

---

(١) يونس ٣١ - ٣٦ .

(٢) يونس ٣٧ - ٣٩ .

يسوون بينه وبينها في المحبة والتعظيم ، والدعاء والعبادة والنذر لها ، ونحو ذلك ما يخص به الرب ، فمن عدل بالله غيره في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى فهو مشرك بخلاف من لا يعدل به ولكن يذنب مع اعترافه بأن الله ربه وحده وخضوعه له خوفاً من عقوبة الذنب ، فهذا يفرق بينه وبين من لا يعترف بتحريم ذلك .

فصل

الله سبحانه يجمع بين الأمور المتماثلة

وهو سبحانه وتعالى كما يفرق بين الأمور المختلفة فإنه يجمع ويسوي بين الأمور المتماثلة، فيحكم في الشيء خلقاً وأمراً بحكم مثله، لا يفرق بين متماثلين ولا يسوي بين شيئين غير متماثلين، بل إن كانا مختلفين متضادين لم يسو بينهما.

ولفظ الاختلاف في القرآن يراد به التضاد والتعارض، لا يراد به مجرد عدم التماثل كما هو اصطلاح كثير من النظار، ومنه قوله ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيه آخْتِلافاً كَثِيراً ﴾[1] وقوله ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ★ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾[2] وقوله ﴿ وَلَكِنِ آخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ﴾[3].

مقتضى السنة أن يكون تماثل بين السابق واللاحق في الجزاء

وقد بين سبحانه وتعالى أن السنة لا تتبدل ولا تتحول في غير موضع والسنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره

---

(١) النساء ٨٢.

(٢) الذاريات ٨ - ٩.

(٣) البقرة ٢٥٣.

الأول، ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار وقال ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ ﴾(١).

والاعتبار أن يقرن الشيء بمثله، فيعلم أن حكمه مثل حكمه، كما قال ابن عباس: هلا اعتبرتم الأصابع بالأسنان.

فإذا قال (فَٱعْتَبِرُوا يا أُولِي ٱلْأَبْصَارِ ﴾(٢) وقال ﴿ لَقَدْ كانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي ٱلْأَلْبَاب ﴾(١) أفاد أنَ من عمل مثل أعمالهم جوزي مثل جزائهم، ليحذّر أن يعمل مثل أعمال الكفار، وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين أتباع الأنبياء.

قال تعالى: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا في ٱلْأَرْضِ فَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾(٣).

وقال تعالى ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخرجُوكَ مِنْها وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلًا ﴾(٤).

وقال تعالى ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فيها إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَ ما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّةَ ٱللهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا ﴾(٥) وهذه الآية أنزلها الله قبل الأحزاب

---

(١) يوسف ١١١.

(٢) الحشر ٢.

(٣) آل عمران ١٣٧.

(٤) الإسراء ٧٦ – ٧٧.

(٥) الأحزاب ٦٠ – ٦٢.

وظهور الإسلام وذل المنافقين، فلم يستطيعوا أن يُظهروا بعد هذا ما كانوا يظهرونه قبل ذلك؛ قبل بدر وبعدها، وقبل أحد وبعدها؛ فأخفوا النفاق وكتموه، فلهذا لم يقتلهم النبي صلى الله عليه وسلم.

وبهذا يجيب من لم يقتل الزنادقة ويقول إذا أخفوا زندقتهم لم يمكن قتلهم، ولكن إذا أظهروها قتلوا بهذه الآية الكريمة ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ★ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾[1].

قال قتادة: ذكر لنا أن المنافقين كانوا يظهرون ما في أنفسهم من النفاق فأوعدهم الله بهذه الآية، فلما أوعدهم بهذه الآية أسرُّوا ذلك وكتموه ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾[2] يقول هكذا سنة الله فيهم إذا أظهروا النفاق. قال مقاتل وابن حبان قوله ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾[2] يعني كما قتل أهل بدر وأسروا، فذلك قوله ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾[2].

أنواع النفاق الثلاثة

قال السدي: كان النفاق على ثلاثة أوجه: نفاق مثل نفاق عبد الله بن أبي وعبد الله بن نفيل ومالك بن داعس، فكان هؤلاء وجوهاً من وجوه الأنصار، وكانوا يستحبون أن يأتوا الزنا يصونون بذلك أنفسهم ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال الزناة إن وجدوه عملوا به وإن لم يجدوه لم يتبعوه. ونفاق يكابرون النساء مكابرة وهم هؤلاء الذين يجلسون على الطريق ثم قال

---

(١) الأحزاب ٦١ - ٦٢.

(٢) الأحزاب ٦٢.

﴿مَلْعُونِينَ﴾ثم فصلت الآية ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ يعملون هذا العمل مكابرة النساء.

قال السدي: هذا حكم في القرآن ليس يعمل به، لو أن رجلاً أو أكثر من ذلك اقتصوا أثر امرأة فغلبوها على نفسها ففجروا بها كان الحكم فيهم غير الجلد والرجم أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم.

قال السدي: قوله ﴿سُنَّةَ﴾ كذلك كان يفعل بمن مضى من الأمم قال: فمن كابر امرأة على نفسها فقتل فليس على قاتله دية لأنه مكابر.

قلت: هذا على وجهين، أحدهما أن يقتل دفعاً لصوله عنها، مثل أن يقهرها فهذا دخل في قوله «من قتل دون حرمته فهو شهيد» وهذه لها أن تدفعه بالقتل، لكن إذا طاوعت ففيه نزاع وتفصيل، وفيه قضيتان عن عمر وعلي معروفتان[1]. وأما إذا فجر بها مستكرهاً ولم تجد من يعينها عليه فهؤلاء نوعان، أحدهما أن يكون له شوكة كالمحاربين لأخذ المال، وهؤلاء أي محاربون للفاحشة (لأجل الفاحشة) فيقتلون (الصواب فيقتلون). قال السدي: قد قاله غيره. وذكر أبو اللوبى أن هذه جرت عنده ورأى أن هؤلاء أحق بأن يكونوا محاربين. والثاني أن لا يكونوا ذوي شوكة بل يفعلون ذلك غيلة واحتيالا حتى إذا صارت عندهم المرأة أكرهوها، فهذا المحارب غيلة، كما قال السدي يقتل أيضاً وإن كانوا جماعة في المصر فهم

---

(١) ذلك أن عمر رضي الله عنه أثناء خطابه على المنبر تعرض لحادثة ما إذ رأى الإمام رجلاً يفعل الفاحشة وكان يريد أن يكمل بأن الإمام يستطيع أن ينفذ حد الله فيهما. فسارع علي رضي الله عنه إلى القول يا عمر عليه أن يحضر الشهداء معه ليشهدوا على الفاحشة وإذا لم يحضر الشهداء المطلوبين فيحدّ الشاهد حد القذف ثمانين جلدة. قال تعالى ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾ النور/٤.

كالمحاربين في المصر، وهذه المسائل لها مواضع أخر.

والمقصود أن الله أخبر أن سنته لن تبدل ولن تتحول، وسنته عادته التي يسوي فيها بين الشيء وبين نظيره الماضي، وهذا يقتضي أنه سبحانه يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة.

أمثلة على أن الذي يعمل مثل من سبقه يجازى مثله (*)

ولهذا قال ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾[1] وقال ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾[2] أي أشباههم ونظراءهم وقال ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾[3] قرن النظير بنظيره.

وقال تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[4] وقال ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾[5] وقال ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[6].

(*) أي: من هذا القبيل، وهذا على رأي ذلك الكافر الذي ضرب هذا المثل.

(١) القمر ٤٣.

(٢) الصافات ٢٢.

(٣) التكوير ٧.

(٤) البقرة ٢١٤.

(٥) الممتحنة ٤.

(٦) التوبة ١٠١.

فجعل التابعين لهم بإحسان مشاركين لهم فيما ذكر من الرضوان والجنة وقد قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾[1] وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[2] .

الفرق بين السابقين واللاحقين

وقال تعالى ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[3].

فمن اتبع السابقين الأولين كان منهم وهم خير الناس بعد الأنبياء ، فإن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس ، وأولئك خير أمة محمد كما ثبت في الصحاح من غير وجه أن النبي ﷺ قال « خير القرون القرن الذي بعثت فيه ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

ولهذا كان معرفة أقوالهم في العلم والدين وأعمالهم خيراً وأنفع من معرفة أقوال المتأخرين وأعمالهم في جميع علوم الدين وأعماله ، كالتفسير وأصول الدين وفروعه ، والزهد والعبادة والأخلاق والجهاد وغير ذلك ، فإنهم أفضل ممن بعدهم ، كما دل عليه الكتاب والسنة فالاقتداء بهم خير من الاقتداء بمن بعدهم ، ومعرفة إجماعهم ونزاعهم في العلم والدين خير وأنفع من معرفة ما يذكر من إجماع غيرهم ونزاعهم .

وذلك أن إجماعهم لا يكون إلا معصوماً ، وإذا تنازعوا فالحق لا يخرج

---

(١) الأنفال ٧٥ .

(٢) الحشر ١٠ .

(٣) الجمعة ٣ .

عنهم ، فيمكن طلب الحق في بعض أقاويلهم ، ولا يحكم بخطأ قول من أقوالهم حتى يعرف دلالة الكتاب والسنة على خلافه . قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[1] .

أخطاء المتأخرين في آرائهم

وأما المتأخرون الذين لم يتحروا متابعتهم وسلوك سبيلهم ولا لهم خبرة بأقوالهم وأفعالهم ، بل هم في كثير مما يتكلمون به في العلم ويعملون به ، لا يعرفون طريق الصحابة والتابعين في ذلك من أهل الكلام والرأي والزهد والتصوف ، فهؤلاء تجد عمدتهم في كثير من الأمور المهمة في الدين إنما هو عما يظنونه من الإجماع وهم لا يعرفون في ذلك أقوال السلف البتة ، أو عرفوا بعضها ولم يعرفوا سائرها ، فتارة يحلون الإجماع ولا يعلمون إلا قولهم وقول من ينازعهم من الطوائف المتأخرين طائفة أو طائفتين أو ثلاث ، وتارة عرفوا أقوال بعض السلف ، والأول كثير في مسائل أصول الدين وفروعه كما تجد كتب أهل الكلام مشحونة بذلك ، يحلون إجماعاً ونزاعاً ولا يعرفون ما قال السلف في ذلك البتة ، بل قد يكون قول السلف خارجاً عن أقوالهم كما تجد ذلك في مسائل أقوال الله وأفعاله وصفاته ، مثل مسألة القرآن والرؤية والقدر وغير ذلك ، وهم إذا ذكروا إجماع المسلمين لم يكن لهم علم بهذا الإجماع ، فإنه لو أمكن العلم بإجماع المسلمين لم يكن هؤلاء من أهل العلم به لعدم علمهم بأقوال السلف ، فكيف إذا كان المسلمون يتعذر القطع بإجماعهم في مسائل النزاع ، بخلاف السلف فإنه يمكن العلم بإجماعهم كثيراً . وإذا

---

(١) النساء ٥٩ .

ذكروا نزاع المتأخرين لم يكن بمجرد ذلك أن يجعل هذه من مسائل الاجتهاد التي يكون كل قول من تلك الأقوال سائغاً لم يخالف إجماعاً ، لأن كثيراً من أصول المتأخرين محدث مبتدع في الإسلام مسبوق بإجماع السلف على خلافه .

والنزاع الحادث بعد إجماع السلف خطأ قطعاً كخلاف الخوارج والرافضة والقدرية والمرجئة ممن قد اشتهرت لهم أقوال خالفوا فيها النصوص المستفيضة المعلومة وإجماع الصحابة ، بخلاف ما يعرف من نزاع السلف فإنه لا يمكن أن يقال إنه خلاف الإجماع ، وإنما يُردّ بالنص .

الفرق بين إجماع السابقين وإجماع التابعين

وإذا قيل قد أجمع التابعون على أحد قوليهم فارتفع النزاع ، فمثل هذا مبني على مقدمتين إحداهما العلم بأنه لم يبق في الأمة من يقول بقول الآخر وهذا متعذر ،والثاني أن مثل هذا هل يرفع النزاع في قول مشهور . فنزاع السلف يمكن القول به إذا كان معه حجة ولم يرد نص على خلافه ونزاع المتأخرين لا يمكن أي : القول به لأن كثيراً منه قد تقدم الإجماع على خلافه كما دلت النصوص على خلافه . ومخالفة إجماع السلف خطأ قطعاً . وأيضاً فلم يبق مسألة في الدين إلا وقد تكلم فيها السلف فلا بد أن يكون لهم قول يخالف ذلك القول أو يوافقه . وقد بسطنا في غير هذا الموضع أن الصواب في أقوالهم أكثر وأحسن ، وأن خطأهم أخف من خطأ المتأخرين ، وأن المتأخرين أكثر خطأ وأفحش وهذا في جميع علوم الدين ، ولهذا أمثلة كثيرة يضيق هذا الموضع عن استقصائها والله سبحانه أعلم .

فصل

القرآن المفسر عن طريق النبي ﷺ لا يقبل في تفسيره رأياً آخر

ومما ينبغي أن يعلم أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة ، فإنه قد عرف تفسيره وما أريد بذلك (أي من تفسير معناه) من جهة النبي ﷺ ، لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ، ولهذا قال الفقهاء : الأسماء ثلاثة أنواع : نوع يعرف حده (أي تعريفه) بالشرع كالصلاة والزكاة ، ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر ، ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف في قوله ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (★) [1].

تعريف بكتاب الله

وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة ، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا برأيه ولا ذوقه ولا معقوله ولا قياسه ولا وجده ، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول

---

(١) النساء ١٩ .

(★) لعله قصد الآية ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾ .

جاء بالهدى ودين الحق ، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم ، فيه نبأ من قبلهم وخبر ما بعدهم وحكم ما بينهم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسن ، فلا يستطيع أن يزيغه إلى هواه ولا يحرف به لسانه ، ولا يخلق على كثرة الترداد ، فإذا ردد مرة بعد مرة لم يخلق(*) ولم يمل كغيره من الكلام ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا تشبع منه العلماء ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم .

السلف لم يعارضوا القرآن

فكان القرآن هو الإمام الذي يقتدى به ، ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأي وقياس ، ولا بذوق ووجد ومكاشفة ، ولا قال قط قد تعارض في هذا العقل والنقل ، فضلاً عن أن يقول فيجب تقديم العقل على النقل ، يعني القرآن والحديث وأقوال الصحابة والتابعين إما أن يفوض وإما أن يؤول (أي في الآيات المتشابهات مثل ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ إما أن يقبلها كما هي ويفوض معناها إلى الله وإما أن يؤول فيقول اليد هنا بمعنى القدرة).

ولا فيهم من يقول إن له ذوقاً أو وجداً أو مخاطبة أو مكاشفة تخالف القرآن والحديث ، فضلاً عن أن يدعي أحدهم أنه يأخذ من حيث يأخذ الملك الذي يأتي الرسول ، وأنه يأخذ من ذلك المعدن علم التوحيد ، والأنبياء كلهم يأخذون عن مشكاته ، أو يقول الولي أفضل من النبي ونحو ذلك من

(*) يخلق : معناها في الأصل يبلى وهنا بمعنى يضعف أو يظهر له عيب .

مقالات أهل الإلحاد ، فإن هذه الأقوال لم تكن حدثت بعد في المسلمين .

وإنما يُعرف مثل هذه إما من ملاحدة اليهود والنصارى ، فإن فيهم من يجوّز أن غير النبي أفضل من النبي كما قد يقوله في الحواريين ، فإنهم عندهم رسل ، وهم يقولون (أي عنهم إنهم) أفضل من داود وسليمان بل ومن إبراهيم وموسى وإن سموهم أنبياء إلى أمثال هذه الأمور .

ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرى تفسرها ، أو تنسخها ، أو بسنة الرسول ﷺ تفسرها ، فإن سنة رسول الله ﷺ تبين القرآن وتدل عليه وتعبر عنه ، وكانوا يسمون ما عارض الآية ناسخاً لها . فالنسخ عندهم اسم عام لكل ما يرفع دلالة الآية على معنى باطل ؛ وإن ذلك المعنى لم يرد بها ، وإن كان لا يدل عليه ظاهر الآية بل قد [1] وقد فهمه منها قوم فيسمون ما رفع ذلك الإبهام والإفهام نسخاً [2] هذه التسمية لا تؤخذ عن كل واحد منهم وأصل ذلك [3] الشيطان ثم يحكم الله آياته فما ألقاه الشيطان في الأذهان من ظن دلالة الآية على معنى لم يدل عليه سمى هؤلاء ما يرفع ذلك الظن نسخاً كما سموا قوله : ﴿فَاتَّقُوا اللهَ ما اسْتَطَعْتُمْ﴾[4] ناسخاً لقوله : ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[5] وقوله ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها﴾[6] ناسخاً لقوله ﴿وَإِنْ تُبْدُوا ما في أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ﴾[7] وأمثال ذلك مما ليس هذا موضع بسطه .

(١ ، ٢ ، ٣) بياض في الأصل .

(٤) التغابن ١٦ .

(٥) آل عمران ١٠٢ .

(٦) البقرة ٢٨٦ .

(٧) البقرة ٢٨٤ .

إذ المقصود أنهم كانوا متفقين على أن القرآن لا يعارضه إلا قرآن ، لا رأي ومعقول وقياس ، ولا ذوق ووجد وإلهام ومكاشفة .

أصل انحراف الخوارج سوء فهمهم القرآن

وكانت البدع الأولى مثل بدعة الخوارج إنما هي من سوء فهمهم للقرآن ، لم يقصدوا معارضته ، لكن فهموا منه ما لم يدل عليه فظنوا أنه يوجب تكفير أرباب الذنوب ، إذ كان المؤمن هو البر التقي ، قالوا فمن لم يكن براً تقياً فهو كافر وهو مخلد في النار . ثم قالوا وعثمان وعلي ومن والاهما ليسوا بمؤمنين لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله ، فكانت بدعتهم لها مقدمتان ، الواحدة أن من خالف القرآن بعمل أو برأي أخطأ فيه فهو كافر ، والثانية أن عثمان وعلياً ومن والاهما كانوا كذلك .

ولهذا يجب الاحتراز من تكفير المسلمين بالذنوب والخطايا ، فإنه أول بدعة ظهرت في الإسلام ، فكفر أهلها المسلمين واستحلوا دماءهم وأموالهم . وقد ثبت عن النبي ﷺ الأحاديث الصحيحة في ذمهم والأمر بقتالهم . قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه : صح فيهم الحديث من عشرة أوجه ، ولهذا قد أخرجها مسلم في صحيحه ، وأفرد البخاري قطعة منها .

وهم مع هذا الذم إنما قصدوا اتباع القرآن فكيف بمن يكون بدعته معارضة القرآن والإعراض عنه وهو مع ذلك يكفر المسلمين كالجهمية . ثم الشيعة لما حدثوا (أي وجدوا) لم يكن الذي ابتدع التشيع قصده الدين بل كان غرضه فاسداً ، وقد قيل إنه كان منافقاً زنديقاً . فأصل بدعتهم مبنية على الكذب على رسول الله ﷺ وتكذيب الأحاديث الصحيحة ، ولهذا لا يوجد في فرق الأمة من الكذب أكثر مما يوجد فيهم ، بخلاف الخوارج فإنه لا يعرف فيهم من يكذب .

والشيعة لا يكاد يوثق برواية أحد منهم من شيوخهم لكثرة الكذب فيهم ، ولهذا أعرض عنهم أهل الصحيح ، فلا يروي البخاري ومسلم أحاديث علي إلا عن أهل بيته كأولاده مثل الحسن والحسين ، ومثل محمد بن الحنفية وكاتبه عبيد الله بن أبي رافع ، أو أصحاب ابن مسعود وغيرهم مثل عبيدة السلماني والحرث التيمي وقيس بن عباد وأمثالهم ، إذ هؤلاء صادقون فيما يروونه عن علي ، فلهذا أخرج أصحاب الصحيح حديثهم .

وهاتان الطائفتان الخوارج والشيعة حدثوا (أي وجدوا) بعد مقتل عثمان ، وكان المسلمون في خلافة أبي بكر وعمر وصدراً من خلافة عثمان في السنة الأولى من ولايته متفقين لا تنازع بينهم ، ثم حدث في أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعاً من التفرق ، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم فقتلوا عثمان ، فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان .

خروج الخوارج على علي رضي الله عنه

ولما اقتتل المسلمون بصفين واتفقوا على تحكيم حكمين ، خرجت الخوارج على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفارقوه ، وفارقوا جماعة المسلمين إلى مكان يقال له حروراء ، فكف عنهم أمير المؤمنين وقال : لكم علينا أن لا نمنعكم حقكم من الفيء ، ولا نمنعكم المساجد ، إلى أن استحلوا دماء المسلمين وأموالهم ، فقتلوا عبد الله بن حباب ، وأغاروا على سرح المسلمين ، فعلم علي أنهم الطائفة التي ذكرهم رسول الله ﷺ حيث قال « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، آيتهم فيهم رجل مخدج اليد عليها بضعة شعرات » وفي رواية « يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان » فخطب الناس وأخبرهم بما سمع من رسول

الله ﷺ وقال : هم هؤلاء القوم ، قد سفكوا الدم الحرام ، وأغاروا على سرح الناس ؛ فقاتلهم ، ووجد العلامة بعد أن كاد لا يوجد ، فسجد لله شكراً .

وحدث (أي نشأ) في أيامه الشيعة لكن كانوا مختفين بقولهم ،لا يظهرونه لعلي وشيعته ، بل كانوا ثلاث طوائف :

طائفة تقول إنه إلّه ، وهؤلاء لما ظهر عليهم أحرقهم بالنار وخدَّ لهم أخاديد (أي حفر لهم خنادق لإحراقهم فيها) عند باب مسجد بنى كندة . وقيل إنه أنشد :

لـمـا رأيـت الأمر أمراً منكراً أججـت نـاري ودعوت قنـبرا

وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال : أتى علي بزنادقة فحرقهم بالنار ، ولو كنت أنا لم أحرقهم لنهي النبي ﷺ أن يعذب بعذاب الله ، ولضربت أعناقهم لقوله : « من بدل دينه فاقتلوه » .

وهذا الذي قاله ابن عباس هو مذهب أكثر الفقهاء . وقد روى أنه أجلهم ثلاثاً .

والثانية : السابة (أي الذين يسبّون بعض الصحابة) وكان قد بلغه عن أبي السوداء أنه كان يسب أبا بكر وعمر ، فطلبه ، قيل إنه طلبه ليقتله فهرب منه .

والثالثة : المفضلة الذين يفضلونه على أبي بكر وعمر ، فتواتر عنه أنه قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر . وروى ذلك البخاري في صحيحه عن محمد بن الحنفية أنه سأل أباه : من خير الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فقال : أبو بكر ، قال : ثم من؟ قال : عمر .

وكانت الشيعة الأولى لا يتنازعون في تفضيل أبي بكر وعمر ، وإنما كان

النزاع في علي وعثمان ، ولهذا قال شريك بن عبد الله : إن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر . فقيل له : تقول هذا وأنت من الشيعة؟ فقال : كل الشيعة كانوا على هذا . وهو (أي : رسول الله ﷺ) الذي قال هذا على أعواد منبره أفتكذبه فيما قال!

ولهذا قال سفيان الثوري : من فضل علياً على أبي بكر وعمر فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار ، وما أرى يصعد له إلى الله عز وجل عمل ، وهو كذلك رواه أبو داود في سننه . وكأنه يعرض بالحسن بن صالح بن حي ، فإن الزيدية الصالحة وهم أصلح طوائف الزيدية ينسبون إليه .

ولكن الشيعة لم يكن لهم في ذلك الزمان جماعة المسلمين ولا إمام ولا دار ولا سيف يقاتلون به المسلمين ، وإنما كان هذا للخوارج تميزوا بالإمام والجماعة والدار ، وسموا دارهم دار الهجرة ، وجعلوا دار المسلمين دار كفر وحرب .

وكلا الطائفتين تطعن بل تكفر ولاة المسلمين . وجمهور الخوارج يكفّرون عثمان وعلياً ومن تولاهما . والرافضة يلعنون أبا بكر وعمر وعثمان ومن تولاهم . ولكن الفساد الظاهر كان في الخوارج من سفك الدماء وأخذ الأموال والخروج بالسيف ، فلهذا جاءت الأحاديث الصحيحة بقتالهم ، والأحاديث في ذمهم والأمر بقتالهم كثيرة جداً ، وهي متواترة عند أهل الحديث مثل أحاديث الرؤية ، وعذاب القبر وفتنته ، وأحاديث الشفاعة والحوض .

وقد رويت أحاديث في ذم القدرية والمرجئة ، روى بعضها أهل السنن كأبي داود وابن ماجه ، وبعض الناس يثبتها ويقويها ، ومن العلماء من طعن

فيها وضعفها . ولكن الذي ثبت في ذم القدرية ونحوهم هو عن الصحابة كابن عمر وابن عباس .

أصل الرافضة

وأما لفظ الرافضة ، فهذا اللفظ أول ما ظهر في الإسلام لما خرج زيد ابن علي بن الحسين في أوائل المائة الثانية في خلافة هشام بن عبد الملك ، واتبعه الشيعة ، فسئل عن أبي بكر وعمر فتولاهما وترحم عليهما ، فرفضه قوم فقال : رفضتموني رفضتموني فَسُمُّوا الرافضة . فالرافضة تتولى أخاه أبا جعفر محمد بن علي زيدية ، والزيدية يتولونه (أي يتولون زيد بن علي) وينسبون إليه ، ومن حينئذ انتمت الشيعة إلى زيدية والرافضة إمامية (أي وإلى الرافضة وهم الإمامية) .

أصل القدرية

ثم في آخر عصر الصحابة حدثت القدرية ، وأصل بدعتهم كانت من عجز عقولهم عن الإيمان بقدر الله والإيمان بأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وظنوا أن ذلك ممتنع ، وكانوا قد آمنوا بدين الله وأمره ونهيه ووعده ووعيده ، وظنوا أنه إذا كان كذلك لم يكن قد علم قبل الأمر من يطيع ومن يعصي ، لأنهم ظنوا أن من علم ما سيكون لم يحسن منه أن يأمر ، وهو يعلم أن المأمور يعصيه ولا يطيعه ، وظنوا أيضاً أنه إذا علم أنهم يفسدون لم يحسن أن يخلق من يعلم أنه يفسد . فلما بلغ قولهم بإنكار القدر السابق الصحابة أنكروا إنكاراً عظيماً وتبرأوا منهم ؛ حتى قال عبد الله بن عمر : أخبر أولئك

أني بريء منهم وأنهم مني براء، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر. وذكر عن أبيه حديث جبريل. وهذا أول حديث في صحيح مسلم، وقد أخرجه البخاري ومسلم من طريق أبي هريرة أيضاً مختصراً(*).

ثم كثر الخوض في القدر، وكان أكثر الخوض فيه بالبصرة والشام وبعضه في المدينة، فصار مقتصدوهم وجمهورهم يقرون بالقدر السابق وبالكتاب المتقدم، وصار نزاع الناس في الإرادة وخلق أفعال العباد، فصاروا في ذلك حزبين: النفاة (أي الذين ينفون الصفات عن الله تعالى) يقولون: لا إرادة إلا بمعنى المشيئة، وهو لم يرد إلا ما أمر به ولم يخلق شيئاً من أفعال العباد.

وقابلهم الخائضون في القدر من الجبرة (هم فرقة الجبرية التي تقول بأن الإنسان مسير لا مخير) مثل الجهم بن صفوان وأمثاله، فقالوا ليست الإرادة

(*) المقصود بحديث جبريل الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه ونصه:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. قال فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال فأخبرني عن الساعة قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان، ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم.

إلا بمعنى المشيئة ، والأمر والنهي لا يستلزم إرادة ، وقالوا : العبد لا فعل له البتة ولا قدرة ، بل الله هو الفاعل القادر فقط ، وكان جهم مع ذلك ينفي الأسماء والصفات ، يذكر عنه أنه قال : لا يسمى الله شيئاً ولا غير ذلك من الأسماء التي تسمى بها العباد إلا القادر فقط ، لأن العبد ليس بقادر .

وكانت الخوارج قد تكلموا في تكفير أهل الذنوب (أي أهل الكبائر من الذنوب) من أهل القبلة وقالوا إنهم كفار مخلدون في النار ، فخاض الناس في ذلك ، وخاض في ذلك القدرية بعد موت الحسن البصري ، فقال عمرو بن عبيد وأصحابه : لا هم مسلمون ولا كفار ، بل لهم منزلة بين المنزلتين وهم مخلدون في النار ، فوافقوا الخوارج على أنهم مخلدون وعلى أنه ليس معهم من الإسلام والإيمان شيء ، ولكن لم يسموهم كفاراً ، واعتزلوا حلقة أصحاب الحسن البصري ، مثل قتادة وأيوب السختياني وأمثالهما .

فسموا معتزلة من ذلك الوقت بعد موت الحسن . وقيل إن قتادة كان يقول : أولئك المعتزلة .

فصل
اختلاف أهل الفرق في مدلولات بعض الأسماء في الدين

وتنازع الناس في الأسماء والأحكام ، أي في أسماء الدين ، مثل مسلم ، ومؤمن ، وكافر ، وفاسق ، وفي أحكام هؤلاء في الدنيا والآخرة .

فالمعتزلة وافقوا الخوارج على حكمهم (أي على الحكم على أهل الذنوب في الآخرة فقط) في الآخرة دون الدنيا ، فلم يستحلوا من دمائهم وأموالهم ما استحلته الخوارج . وفي الأسماء أحدثوا المنزلة بين المنزلتين ؛ وهذه خاصة المعتزلة التي انفردوا فيها وسائر أقوالهم قد شاركهم فيها غيرهم .

وحدثت (أي : نشأت) المرجئة ، وكان أكثرهم من أهل الكوفة ، ولم يكن أصحاب عبد الله من المرجئة ولا إبراهيم النخعي وأمثاله ، فصاروا نقيض الخوارج والمعتزلة .

هل الأعمال داخلة في الإيمان؟

قالوا إن الأعمال ليست من الإيمان ، (أي أن الأعمال خارجة عن الإيمان وليست داخلة فيه بدليل أن الآية عطفت الأعمال على الإيمان «آمنوا وعملوا الصالحات » والعطف يقتضي المغايرة) . وكانت هذه البدعة أخف البدع ، فإن كثيراً من النزاع فيها نزاع الاسم واللفظ دون الحكم ؛ إذ

كان الفقهاء الذين يضاف (أي ينسب) إليهم هذا القول مثل حماد بن أبي سليمان وأبي حنيفة وغيرهما مع سائر أهل السنة متفقين على أن الله يعذب من يعذبه من أهل الكبائر بالنار ثم يخرجهم بالشفاعة كما جاءت الأحاديث الصحيحة بذلك ، وعلى (أي : ومتفقين على) أنه لا بد في الإيمان أن يتكلم بلسانه : (أي أن ينطق بالشهادتين ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) . وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة وتاركها مستحق للذم والعقاب ، فكان (أي فكان الخلاف) في الأعمال هل هي من الإيمان وفي الاستثناء (أي : وكان الخلاف في الاستثناء وهو أن يقول : آمنت إن شاء الله) ونحو ذلك ، وعامته نزاع لفظي ، فإن الإيمان إذا أطلق دخلت فيه الأعمال لقول النبي ﷺ « الإيمان بضع وستون شعبة أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » .

وإذا عطف عليه العمل كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾(١) فقد ذكر مقيداً بالعطف ، فهنا قد يقال : الأعمال دخلت فيه وعطفت عطف الخاص على العام .

وقد يقال : لم تدخل فيه ولكن مع العطف - كما في اسم الفقير والمسكين إذا أفرد أحدهما تناول الآخر ، وإذا عطف أحدهما على الآخر فهما صنفان ، كما في آية الصدقات كقوله ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾(٢) ، وكما في آية الكفارة كقوله ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾(٣) وفي قوله : ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾(٤)

---

(١) البقرة ٢٧٧ .
(٢) التوبة ٦٠ .
(٣) المائدة ٨٩ .
(٤) البقرة ٢٧ .

فالفقير والمسكين شيء واحد، وهذا التفصيل في الإيمان هو كذلك في لفظ البر والتقوى والمعروف، وفي الإثم والعدوان والمنكر تختلف دلالتها في الإفراد والاقتران لمن تدبر القرآن.

الإيمان مصدره القلب

وقد بسط هذا بسطاً كبيراً في الكلام على الإيمان وشرح حديث جبريل الذي فيه بيان أن الإيمان أصله في القلب، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «الإسلام علانية والإيمان في القلب».

الأعمال تدخل في الإيمان

وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب» فإذا كان الإيمان في القلب فقد صلح القلب، فيجب أن يصلح سائر الجسد، فلذلك هو ثمرة ما في القلب. فلهذا قال بعضهم: الأعمال ثمرة الإيمان وصحته. ولما كانت لازمة لصلاح القلب دخلت في الاسم (أي في الإيمان) كما نطق بذلك الكتاب والسنة في غير موضع.

وفي الجملة الذين رُموا بالإرجاء (أي نسبوا إلى فرقة المرجئة) من الأكابر مثل طلق بن حبيب وإبراهيم التيمي ونحوهما كان إرجاؤهم من هذا النوع.

الكلام في الاستثناء

وكانوا (أي المرجئة) أيضاً لا يستثنون في الإيمان(*) وكانوا يقولون: الإيمان هو الإيمان الموجود فينا، ونحن نقطع بأنا مصدقون ويرون الاستثناء شكا، وكان عبد الله بن مسعود وأصحابه يستثنون، وقد روي في حديث أنه رجع عن ذلك لما قال له بعض أصحاب معاذ ما قال، لكن أحمد أنكر هذا وضعف هذا الحديث، وصار الناس في الاستثناء على ثلاثة أقوال: قول إنه يجب الاستثناء ومن لم يستثن كان مبتدعاً، وقول إن الاستثناء محظور فإنه يقتضي الشك في الإيمان، والقول الثالث أوسطها وأعدلها أنه يجوز الاستثناء باعتبار وتركه باعتبار، فإذا كان مقصوده (أي قصده من الاستثناء) أني لا أعلم أني قائم في كل ما أوجب الله علي وأنه يقبل أعمالي، ليس مقصوده الشك فيما في قلبه، فهذا استثناؤه حسن، وقصده أن لا يزكي نفسه، وأن لا يقطع بأنه عمل عملاً كما أمر فقبل منه.

والذنوب كثيرة، والنفاق مخوف على عامة الناس.

قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد (هو أحد صاحبي أبي حنيفة وهما محمد وأبو يوسف) كلهم يخاف النفاق على نفسه، لا يقول واحد منهم إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل.

والبخاري في أول صحيحه بوب أبواباً في الإيمان والرد على المرجئة، وقد ذكر بعض من صنف في هذا الباب من أصحاب أبي حنيفة. قال: وأبو

(*) أي لا يقبلون أن يقول الشخص: آمنت إن شاء الله، وأصل الاستثناء مأخوذ من الآية الكريمة ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً: إلا أن يشاء الله﴾. وهذا الاستثناء هو الذي يطلقون عليه التعليق بالمشيئة.

حنيفة وأبو يوسف ومحمد كرهوا أن يقول الرجل : إيماني كإيمان جبريل وميكائيل . قال محمد : لأنهم أفضل يقيناً ، أو إيماني كإيمان جبريل ، أو إيماني كإيمان أبي بكر أو كإيمان هذا ، ولكن يقول (أي : ولكن عليه أن يقول) آمنت بما آمن به جبريل وأبو بكر .

كلام الحنفية عن الاستثناء

وأبو حنيفة وأصحابه لا يجوزون الاستثناء في الإيمان بكون الأعمال منه ويذمون المرجئة ، والمرجئة عندهم الذين لا يوجبون الفرائض ولا اجتناب المحارم ، بل يكتفون بالإيمان ، وقد علل (أي : أبو حنيفة) تحريم الاستثناء فيه بأنه لا يصح تعليقه على الشرط ، لأن المعلق على الشرط لا يوجد عند وجوده ، كما قالوا في قوله أنت طالق إن شاء الله ؛ فإذا علق الإيمان بالشرط كسائر المعلقات بالشرط لا يحصل إلا عند حصول الشرط . قالوا وشرط المشيئة الذي يترجاه القائل لا يتحقق حصوله إلى يوم القيامة ، فإذا علق العزم بالفعل على التصديق والإقرار فقد ظهرت المشيئة (أي : أن مشيئة الله تظهر وتعرف عندما يقترن العمل بالتصديق) وصح العقد فلا معنى للاستثناء (أي عندما تظهر المشيئة يزول الاستثناء) ، ولأن الاستثناء عقيب الكلام يرفع الكلام (أي : عندما يقول آمنت نفهم اعتناقه الإيمان . فإذا قال إن شاء الله ألغي ذلك الإيمان لأنا لا نعرف مشيئة الله) . فلا يبقى الإقرار بالإيمان والعقد مؤمناً ، وربما يتوهم هذا القائل القارن بالاستثناء على الإيمان بقاء التصديق وذلك (أي الاستثناء) يزيله .

توضيح التعليق بمشيئة الله

(قلت) فتعليلهم في المسألة إنما يتوجه فيمن يعلق إنشاء الإيمان على

المشيئة كالذي يريد الدخول في الإسلام فيقال له آمن فيقول أنا أؤمن إن شاء الله ، أو آمنت إن شاء الله ، أو أسلمت إن شاء الله ، أو أشهد إن شاء الله أن لا إله إلا الله وأشهد إن شاء الله أن محمداً رسول الله .

والذين استثنوا من السلف والخلف لم يقصدوا في الإنشاء (الإنشاء : أي بدء حصوله أي لم يقصدوا الاستثناء في حصول الإيمان وإنما قصدوه في نتائجه) وإنما كان استثناؤهم في إخباره عما قد حصل له من الإيمان فاستثنوا ، إما أن الإيمان المطلق يقتضي دخول الجنة وهم لا يعلمون الخاتمة كأنه إذا قيل للرجل أنت مؤمن قيل له أنت عند الله مؤمن من أهل الجنة ، فيقول أنا كذلك إن شاء الله ، أو لأنهم لا يعرفون أنهم أتوا بكمال الإيمان الواجب ، ولهذا كان من جواب بعضهم إذا قيل له أنت مؤمن : آمنت بالله وملائكته وكتبه ؛ فيجزم بهذا ولا يعلقه . أو يقول إن كنت تريد الإيمان الذي يعصم دمي ومالي فأنا مؤمن ، وإن كنت تريد قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيْماناً وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ★ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنفِقُونَ ★ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾[1] وقوله ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا ، وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[2] فأنا مؤمن إن شاء الله ، وأما الإنشاء فلم يستثن فيه أحد ولا شرع الاستثناء فيه ، بل كل من آمن وأسلم آمن وأسلم جزماً ، بلا تعليق .

فنبين أن النزاع في المسألة قد يكون لفظياً ، فإن الذي حرمه هؤلاء غير الذي استحسنه وأمر به أولئك ، ومن جزم جزم بما في قلبه من الحال ، وهذا

---

(١) الأنفال ٢ و٣ .

(٢) الحجرات ١٥ .

حق لا ينافي تعليق الكمال والعاقبة ، ولكن هؤلاء (أي المرجئة) عندهم الأعمال ليست من الإيمان ، فصار الإيمان هو الإسلام ، عند أولئك .

والمشهور عند أهل الحديث أنه لا يستثنى في الإسلام ، وهو المشهور عن أحمد رضي الله عنه ، وقد روي عنه فيه الاستثناء كما قد بسط هذا في شرح حديث جبريل ، وغيره من نصوص الإيمان التي في الكتاب والسنة .

تعليق الطلاق على المشيئة

ولو قال لامرأته أنت طالق إن شاء الله ففيه نزاع مشهور . وقد رجحنا التفصيل وهو أن الكلام يراد به شيئان ، يراد به إيقاع الطلاق تارة ، ويراد به منع إيقاعه تارة ، فإن كان مراده أنت طالق بهذا اللفظ فقوله إن شاء الله مثل قوله بمشيئة الله ، وقد شاء الله الطلاق حين أتى بالتطليق فيقع . وإن كان قد علق لئلا يقع أو علقه على مشيئة توجد بعد هذا لم يقع به الطلاق حتى يطلق بعد هذا ، فإنه حينئذ شاء الله أن يطلق . وقوله من قال المشيئة تنجزه ليس كما قال ، بل نحن نعلم قطعاً أن الطلاق لا يقع إلا إذا طلقت المرأة؛بأن يطلقها الزوج أو من يقوم مقامه من ولي أو وكيل ، فإذا لم يوجد تطليق لم يقع طلاق قط ، فإذا قال أنت طالق إن شاء الله وقصد حقيقة التعليق لم يقع إلا بتطليق بعد ذلك ، وكذلك إذا قصد تعليقه لئلا يقع الآن ، وأما إن قصد إيقاعه الآن وعلقه بالمشيئة توكيداً وتحقيقاً فهذا يقع به الطلاق .

عودة إلى تعليق الإيمان بالمشيئة

وما أعرف أحداً أنشأ الإيمان فعلقه على المشيئة ، فإذا علقه فإن كان مقصوده أنا مؤمن إن شاء الله أنا أومـن بعد ذلك فهذا لم يصر مؤمناً مثل

الذي يقال له هل تصير من أهل دين الإسلام فقال أصير إن شاء الله ، فهذا لم يسلم بل هو باق على الكفر ؛ وإن كان قصده: إني قد آمنت وإيماني بمشيئة الله ، صار مؤمناً ، لكن إطلاق اللفظ يحتمل هذا وهذا ، فلا يجوز إطلاق مثل هذا اللفظ في الإنشاء ، وأيضاً فإن الأصل أنه إنما يُعلق بالمشيئة ما كان مستقبلًا ، فأما الماضي والحاضر فلا يعلق بالمشيئة ، والذين استثنوا لم يستثنوا في الإنشاء كما تقدم ، كيف وقد أمروا أن يقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلىٰ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط .

وقال تعالى ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِٱللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾[1] فأخبر أنهم آمنوا فوقع الإيمان منهم قطعاً بلا استثناء .

اختلاف المشيئة باختلاف القصد

وعلى كل أحد أن يقول آمنا بالله وما أنزل إلينا كما أمر الله بلا استثناء ، وهذا متفق عليه بين المسلمين ، ما استثنى أحد من السلف قط في مثل هذا ، وإنما الكلام إذا أخبر عن نفسه بأنه مؤمن كما يخبر عن نفسه بأنه برٌّ تقي ، فقول القائل له أنت مؤمن هو عندهم كقوله هل أنت بر تقي ، فإذا قال أنا بر تقي لله زكى نفسه فيقول إن شاء الله وأرجو أن أكون كذلك ، وذلك أن الإيمان التام يتعقبه قبول الله له ، (أي يتوقف على قبول الله له) وجزاؤه عليه ، وكتابة الملك له ، فالاستثناء يعود إلى ذلك لا إلى ما علمه هو من نفسه وحصل واستقر ، فإن هذا لا يصح تعليقه بالمشيئة بل يقال هذا حاصل بمشيئة الله وفضله وإحسانه . وقوله فيه إن شاء الله بمعنى إذ شاء

---

(١) البقرة ٢٨٥ .

الله ، وذلك تحقيق لا تعليق . والرجل قد يقول والله ليكونن كذا إن شاء الله وهو جازم بأنه يكون ، فالمعلق هو الفعل كقوله ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ شَآءَ اللهُ ﴾(١) والله عالم بأنهم سيدخلونه . وقد يقول الآدمي : لأفعلن كذا إن شاء الله ، وهو لا يجزم بأنه يقع لكن يرجوه فيقول يكون إن شاء الله . ثم عزمه عليه قد يكون جازماً ولكن لا يجزم بوقوع المعزوم عليه ، وقد يكون العزم متردداً معلقاً بالمشيئة أيضاً ، ولكن متى كان المعزوم عليه معلقاً لزم تعليق بقاء العزم فإنه بتقدير أن تعليق العزم ابتداء أو دواماً في مثل ذلك ، ولهذا لم يحنث المطلق المعلق . وحرف (إن لا يكون) لا يبقي العزم فلا بد إذا دخل على الماضي صار مستقبلاً تقول إن جاء زيد (أي في المستقبل) كان كذلك ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ ٱهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ البَلاغُ ﴾ (٢) وإذا أريد الماضي دخل حرف كان (يقصد دخل حرف إن على كان) كقوله ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾(٣) فيفرق بين قوله أنا مؤمن إن شاء الله وبين قوله إن كان الله شاء إيماني .

وكذلك إذا كان مقصوده إني لا أعلم بماذا يختم لي ، كما قيل لأبي مسعود إن فلاناً يشهد أنه مؤمن قال فليشهد أنه من أهل الجنة . فهذا مراده إذا شهد أنه مؤمن عند الله يموت على الإيمان . وكذلك إن كان مقصوده: إن إيماني حاصل بمشيئة الله .

ومن لم يستثن (أي لم يقل : أنا مؤمن إن شاء الله) قال أنا لا أشك في إيمان قلبي ، فلا جناح عليه إذا لم يزك نفسه ويقطع بأنه عامل كما أمر وقد

---

(١) الفتح ٢٨ .
(٢) البقرة ١٣٧ .
(٣) آل عمران ٣١ .

تقبل الله عمله ، وإن لم يقل إن إيمانه كإيمان جبريل وأبي بكر وعمر ونحو ذلك من أقوال المرجئة كما كان مسعر بن كدام يقول أنا لا أشك في إيماني . قال أحمد ولم يكن من المرجئة فإن المرجئة الذين يقولون الأعمال ليست من الايمان وهو كان يقول هي من الايمان لكن أنا لا أشك في إيماني .

وكان الثوري يقول لسفيان بن عيينة ألا تنهاه عن هذا فإنهما من قبيلة واحدة . وقد بُسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن النزاع في هذا كان بين أهل العلم والدين من جنس المنازعة في كثير من الأحكام وكلهم من أهل الايمان والقرآن .

رأي الجهمية

وأما جهم فكان يقول : إن الايمان مجرد تصديق القلب وإن لم يتكلم به (أي وإن لم ينطق بالشهادتين) . وهذا القول لا يعرف عن أحد من علماء الأمة وأئمتها ، بل أحمد ووكيع وغيرهما كفروا من قال بهذا القول ، ولكن هو الذي نصره الأشعري وأكثر أصحابه ، ولكن قالوا مع ذلك إن كل من حكم الشرع بكفره حكمنا بكفره واستدللنا بتكفير الشارع له على خلو قلبه من المعرفة . وقد بسط الكلام على أقوالهم وأقوال غيرهم في الايمان (أي في كتاب المؤلف المسمى بالايمان) .

والأصل الذي منه نشأ النزاع اعتقاد من اعتقد أن من كان مؤمناً لم يكن معه شيء من الكفر والنفاق ، وظن بعضهم أن هذا إجماع كما ذكر الأشعري أن هذا إجماع ، فهذا كان أصل الإرجاء ، كما كان أصل القدر عجزهم عن الايمان بالشرع والقدر جميعاً .

اختلاف بعض الفرق في مدلول الإيمان

فلما كان هذا أصلهم صاروا حزبين ، قالت الخوارج والمعتزلة قد علمنا يقيناً أن الأعمال من الإيمان فمن تركها فقد ترك بعض الإيمان ، وإذا زال بعضه زال جميعه . لأن الإيمان لا يتبعض ولا يكون في العبد إيمان ونفاق ، فيكون أصحاب الذنوب مخلدين في النار إذ كان ليس معهم من الإيمان شيء .

وقالت المرجئة ، مقتصدتهم وغلاتهم كالجهمية : قد علمنا أن أهل الذنوب من أهل القبلة لا يخلدون في النار بل يخرجون منها كما تواترت بذلك الأحاديث ، وعلمنا بالكتاب والسنة وإجماع الأئمة أنهم ليسوا كفاراً مرتدين ، فإن الكتاب قد أمر بقطع السارق لا بقتله ، وجاءت السنة بجلد الشارب لا بقتله ، فلو كان هؤلاء كفاراً مرتدين لوجب قتلهم ، وبهذا ظهر للمعتزلة ضعف قول الخوارج فخالفوهم في أحكامهم في الدنيا .

والخوارج لا يتمسكون من السنة إلا بما فسر مجملها دون ما خالف ظاهر القرآن عندهم ، فلا يرجمون الزاني ، ولا يرون للسرقة نصاباً ، وحينئذ فقد يقولون ليس في القرآن قتل المرتد ، فقد يكون المرتد عندهم نوعين .

وأقوال الخوارج إنما عرفناها من نقل الناس عنهم ، لم نقف لهم على كتاب مصنف كما وقفنا على كتب المعتزلة والرافضة والزيدية والكرامية والأشعرية والسابلية وأهل المذاهب الأربعة والظاهرية ومذاهب أهل الحديث والفلاسفة والصوفية ونحو هؤلاء . وقد بسط الكلام على تفصيل القوم في أقوال هؤلاء في غير هذا الموضع .

ترتيب الفرق ترتيباً تصاعدياً

إن الناس في ترتيب أهل الأهواء على أقسام: منهم من يرتبهم على زمان حدوثهم، فيبدأ بالخوارج، ومنهم من يرتبهم بحسب خفة أمرهم وغلظه، فيبدأ بالمرجئة ويختم بالجهمية، كما فعله كثير من أصحاب أحمد رضي الله عنه كعبد الله ابنه ونحوه، وكالخلال، وأبي عبد الله بن بطة وأمثالهما، وكأبي الفرج المقدسي، وكلا الطائفتين تختم بالجهمية لأنهم أغلظ البدع وكالبخاري في صحيحه فإنه بدأ بكتاب الإيمان والرد على المرجئة، وختمه بكتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية.

ولما صنف الكتاب في الكلام صاروا يقدمون التوحيد والصفات، فيكون الكلام أولاً مع الجهمية، وكذلك رتب أبو القاسم الطبري كتابه في أصول السنة، والبيهقي أفرد لكل صنف مصنفاً، فله مصنف في الصفات، ومصنف في القدر، ومصنف في شعب الإيمان، ومصنف في دلائل النبوة، ومصنف في البعث والنشور. وبسط هذه الأمور له موضع آخر.

هل الإيمان يتجزأ؟

والمقصود هنا أن منشأ النزاع في الأسماء والأحكام في الإيمان والإسلام أنهم (أي الخوارج والمعتزلة) لما ظنوا أنه (أي الإيمان) لا يتبعض قال أولئك: فإذا فعل ذنباً زال بعضه فيزول كله فيخلد في النار، فقالت الجهمية والمرجئة: قد علمنا أنه ليس يخلد في النار وأنه ليس كافراً مرتداً بل هو من المسلمين، وإذا كان من المسلمين وجب أن يكون مؤمناً تام الإيمان معه بعض الإيمان، لأن الإيمان عندهم لا يتبعض، فاحتاجوا أن يجعلوا الإيمان شيئاً واحداً يشترك فيه جميع أهل القبلة، فقال فقهاء

المرجئة : هو التصديق بالقلب والقول باللسان ، فقالت الجهمية : بعد تصديق اللسان (يقصد : بعد تصديق القلب فإن النطق باللسان قد لا يجب إلخ . .) قد لا يجب إذا كان الرجل أخرس أو كان مكرهاً فالذي لا بد منه تصديق القلب . وقالت المرجئة : الرجل إذا أسلم كان مؤمناً قبل أن يجب عليه شيء من الأفعال ، وأنكر كل هذه الطوائف أنه (أي الإيمان) ينقص .

الإيمان يزيد وينقص

والصحابة قد ثبت عنهم أن الإيمان يزيد وينقص « وهو قول أئمة السنة » وكان ابن المبارك يقول هو يتفاضل ويتزايد ويمسك (أي لا يتكلم) عن لفظ ينقص وعن مالك في كونه لا ينقص روايتان . والقرآن قد نطق بالزيادة في غير موضع « كما في قوله تعالى : ﴿وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إيماناً﴾[1] ، ودلت النصوص على نقصه كقوله ﷺ « لا يزني الزاني حين يزني وهو مُؤْمِنٌ » ونحو ذلك ، لكن لم يعرف هذا اللفظ إلا في قوله (أي في قول النبي صلى الله عليه وسلم) في النساء « ناقصات عقل ودين » وجعل من نقصان دينها أنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلي . وبهذا استدل غير واحد على أنه ينقص .

تفاضل الإيمان من وجهين :

وذلك أن أصل أهل السنة أن الإيمان يتفاضل من وجهين ، من جهة أمر الرب ، ومن جهة فعل العبد . أما الأول فإنه ليس الإيمان الذي أمر به شخص من المؤمنين هو الإيمان الذي أمر به كل شخص ، فإن المسلمين في

---

(١) الأنفال ٢ .

أول الأمر كانوا مأمورين بمقدار من الإيمان، ثم بعد ذلك أمروا بغير ذلك، وأمروا بترك ما كانوا مأمورين به كالقبلة، فكان من الإيمان في أول الأمر الإيمان بوجوب استقبال بيت المقدس، ثم صار من الإيمان تحريم استقباله ووجوب استقبال الكعبة، فقد تنوع الإيمان في الشريعة الواحدة. أيضاً فمن وجب عليه الحج والزكاة (أي من وجب عليه الحج والزكاة كالمستطيع ومن عنده النصاب من المال وجب عليه أن يعرف التفاصيل عنهما بخلاف غير المستطيع ومن لا يملك النصاب فيخرج عن دائرتهما) أو الجهاد يجب عليه من الإيمان أن يعلم ما أمر به ويؤمن بأن الله أوجب عليه مالا يجب على غيره إلا مجملا، وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل.

وكذلك الرجل أول ما يسلم إنما يجب عليه الإقرار المجمل، ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها فلم يتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان.

وهذا من أصول غلط المرجئة، فإنهم ظنوا أنه (أي الإيمان) شيء واحد وأنه يستوي فيه جميع المكلفين، فقالوا إيمان الملائكة والأنبياء وأفسق الناس سواء، كما أنه إذا تلفظ الفاسق بالشهادتين أو قرأ فاتحة الكتاب كان لفظه كلفظ غيره من الناس.

تفاوت الإيمان

فيقال لهم: قد تبين أن الإيمان الذي أوجبه الله على عباده يتنوع ويتفاضل ويتباينون فيه تبايناً عظيماً، فيجب على الملائكة من الإيمان ما لا يجب على البشر، ويجب على الأنبياء من الإيمان ما لا يجب على غيرهم، ويجب على العلماء ما لا يجب على غيرهم، ويجب على الأمراء ما لا يجب على

غيرهم ، وليس المراد أنه يجب عليهم من العمل فقط بل ومن التصديق والإقرار .

الدليل على تفاوت الإيمان

فإن الناس وإن كان يجب عليهم الإقرار المجمل بكل ما جاء به الرسول فأكثرهم لا يعرفون تفصيل كل ما أخبر به ، وما لم يعلموه كيف يؤمرون بالإقرار به مفصلاً ، وما لم يؤمر به العبد من الأعمال لا يجب عليه معرفته ومعرفة الآمر به . فمن أمر بحج وجب عليه معرفة ما أمر به من أعمال الحج والإيمان بها ، فيجب عليه من الإيمان والعمل ما لا يجب على غيره . وكذلك من أمر بالزكاة يجب عليه معرفة ما أمر الله به من الزكاة ومن الإيمان بذلك والعمل به ما لا يجب على غيره ، فيجب عليه من العلم والإيمان والعمل ما لا يجب على غيره إذا جعل العلم والعمل ليسا من الإيمان ، وإن جعل جميع ذلك داخلاً في مسمى الإيمان كان أبلغ ، فبكل حال قد وجب عليه من الإيمان ما لا يجب على غيره .

ولهذا كان من الناس من قد يؤمن بالرسول مجملاً ، فإذا جاءت أمور أخرى لم يؤمن بها فيصير منافقاً مثل طائفة نافقت لما حولت القبلة إلى الكعبة وطائفة نافقت لما انهزم المسلمون يوم أحد ، ونحو ذلك .

ولهذا وصف الله المنافقين في القرآن بأنهم آمنوا ثم كفروا كما ذكر ذلك في سورة المنافقين ، وذكر مثل ذلك في سورة البقرة فقال ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لَا يُبْصِرُونَ ★ صَمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾[1] وقال طائفة من

(١) البقرة ١٨ ، ١٩ .

السلف : عرفوا ثم أنكروا ، وأبصروا ثم عموا .

فمن هؤلاء من كان يؤمن أولاً إيماناً مجملاً ثم يأتي أموراً يؤمن بها فينافق في الباطن وما يمكنه إظهار الردة ، بل يتكلم بالنفاق مع خاصته وهذا كما ذكر الله عنهم في الجهاد فقال ﴿ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيها القِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ★ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ﴾ (١) .

وبالجملة فلا يمكن المنازعة أن الإيمان الذي أوجبه الله يتباين فيه أحوال الناس ويتفاضلون في إيمانهم ودينهم بحسب ذلك ، ولهذا قال النبي ﷺ في النساء ناقصات عقل ودين ، وقال في نقصان دينهن إنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلي ، وهذا مما أمر الله به ، فليس هذا النقص ذنباً لها تعاقب عليه ، لكن هو نقص حيث لم تؤمر بالعبادة في هذا الحال ، والرجل كامل حيث أمر بالعبادة في كل حال ، فدل ذلك على أن من أمر بطاعة يفعلها كان أفضل ممن لم يؤمر بها وإن لم يكن عاصياً ، فهذا أفضل ديناً وإيماناً . وهذا المفضول ليس بمعاقب ومذموم ، فهذه زيادة كزيادة الإيمان بالتطوعات ، لكن هذه زيادة بواجب في حق شخص وليس بواجب في حق شخص غيره ، فهذه الزيادة لو تركها بهذا لا يستحق العقاب بتركها ، وذاك لا يستحق العقاب بتركها ، ولكن إيمان ذلك أكمل . قال النبي ﷺ « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » .

فهذا يبين تفاضل الإيمان في نفس الأمر به وفي نفس الأخبار التي يجب التصديق بها .

---

(١) محمد ٢٠ ، ٢١ .

الوجه الثاني

والنوع الثاني وهو تفاضل الناس في الإتيان به مع استوائهم في الواجب ، وهذا هو الذي يظن أنه محل النزاع ، وكلاهما محل النزاع . وهذا أيضاً يتفاضلون فيه ، فليس إيمان السارق والزاني والشارب كإيمان غيرهم ، ولا إيمان من أدى الواجبات كإيمان من أخل ببعضها ، كما أنه ليس دين هذا وبره وتقواه مثل دين هذا وبره وتقواه ، بل هذا أفضل ديناً وبراً وتقوى ، فهو كذلك أفضل إيماناً كما قال النبي ﷺ « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » .

وقد يجتمع في العبد إيمان ونفاق . كما في الصحيحين عن النبي ﷺ قال « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا اؤتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

وأصل هؤلاء أن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل ، بل هو شيء واحد يستوي فيه جميع العباد فيما أوجبه الرب من الإيمان ، وفيما يفعله العبد من الأعمال ، فغلطوا في هذا وهذا ثم تفرقوا كما تقدم .

وصارت المرجئة على ثلاثة أقوال ، فعلماؤهم وأئمتهم أحسنهم قولاً ، وهو أن قالوا الإيمان تصديق القلب وقول اللسان .

وقالت الجهمية : هو تصديق القلب فقط ، فمن تكلم به (أي من أقر بلسانه إلى جانب تصديق قلبه) فهو مؤمن كامل الإيمان ، لكن إذا كان مقراً بقلبه كان من أهل الجنة ، وإن كان مكذباً بقلبه كان منافقاً مؤمناً من أهل النار .

وهذا القول هو الذي اختصت به الكرامية وابتدعته ولم يسبقها أحد إلى هذا القول، وهو آخر ما أحدث من الأقوال في الإيمان. وبعض الناس يحكي عنهم أن من تكلم به بلسانه دون قلبه فهو من أهل الجنة، وهو غلط عليهم، بل يقولون إنه مؤمن كامل الإيمان وإنه من أهل النار، فيلزمهم أن يكون المؤمن الكامل الإيمان معذباً في النار، بل يكون مخلداً فيها.

وقد تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه يخرج منها (أي من النار). من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان وإن قالوا لا يخلد (أي لا يخلد في النار) وهو منافق لزمهم أن يكون المنافقون يخرجون من النار، والمنافقون قد قال الله فيهم ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾[1].

وقد نهى الله نبيه عن الصلاة عليهم والاستغفار لهم وقال له ﴿ اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾[2] وقال ﴿وَلَا تُصَلِّ على أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ على قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا وَهُمْ فَاسِقُون ﴾[3] وقد أخبر أنهم كفروا بالله ورسوله.

فإن قالوا هؤلاء فقد كانوا يتكلمون (أي بالكفر) بألسنتهم سراً فكفروا بذلك وإنما يكون مؤمناً إذا تكلم (أي آمن) بلسانه ولم يتكلم (أي: لم يقل بعد الإيمان شيئاً ينقصه من الكفر) بما ينقضه فإن ذلك ردة عن الإيمان.

قيل لهم: ولو أضمروا النفاق ولم يتكلموا به كانوا منافقين. قال تعالى:

---

(١) النساء ١٤٥

(٢) التوبة ٨٠.

(٣) التوبة ٨٤.

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِم سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بما في قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوا إنَّ اللهَ مُخْرِجٌ ما تحْذَرُونَ ﴾(١) وأيضاً قد أخبر الله عنهم أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، وأنهم كاذبون ، فقال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا باللهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾(٢) وقال تعالى ﴿ إِذا جاءَكَ ٱلْمُنافِقُونَ قَالوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ واللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ واللهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾(٣).

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « الإسلام علانية والإيمان في القلب » .

وقد قال الله تعالى ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيْمانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾(٤).

وفي الصحيحين عن سعد أن النبي ﷺ أعطى رجالاً ولم يعط رجلاً ، فقلت : يا رسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً وتركت فلاناً وهو مؤمن ، فقال : أو مسلم مرتين أو ثلاثاً .

وبسط الكلام في هذا له مواضع أخر ، وقد صنفت في ذلك مجلداً غير ما صنفت فيه غير ذلك .

وكلام الناس في هذا الاسم (أي الإيمان) ومسماه كثير ، لأنه (أي الإيمان) قطب الدين الذي يدور عليه . وليس في القول اسم علق به السعادة والشقاء

(١) التوبة ٦٤ .
(٢) البقرة ٩ .
(٣) المنافقون ١ .
(٤) الحجرات ١٤ .

(أي وليس في كـل المواضيع والقضايا أمر علق به السعادة والشقاء أعظم من الإيمـان) والمدح والذم، والثواب والعقاب، أعظم من اسم الإيمان والكفر ، ولهذا سُمي هذا الأصل مسائل الأسماء والأحكام ، وقد رأيت لابن الهيضم فيه مصنفاً في أنه قول اللسان فقط . ورأيت لابن الباقلاني فيه مصنفاً أنه تصديق القلب فقط ، وكلاهما في عصر واحد ، وكلاهما يرد على المعتزلة والرافضة .

فصل

اعتماد أهل الفرق على أصول ابتدعوها ولو جاء القرآن بخلافها

والمقصود هنا أن السلف كان اعتصامهم بالقرآن والإيمان، فلما حدث في الأمة ما حدث من التفرق والاختلاف، صار أهل التفرق والاختلاف شيعاً، صار هؤلاء (أي أهل التفرق والاختلاف). عمدتهم في الباطن ليست على القرآن والإيمان، ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم، عليها يعتمدون في التوحيد والصفات والقدر والإيمان بالرسول وغير ذلك، ثم ما ظنوا أنه يوافقها من القرآن احتجوا به، وما خالفها تأولوه، فلهذا تجدهم إذا احتجوا بالقرآن والحديث لم يعتنوا بتحرير دلالتهما ولم يستقصوا ما في القرآن من ذلك المعنى، إذ كان اعتمادهم في نفس الأمر إلى غير ذلك (أي غير القرآن)، والآيات التي تخالفهم يشرعون في تأويلها شروع من قصد ردها كيفما أمكن، ليس مقصوده أن يفهم مراد الرسول، بل أن يدفع منازعه عن الاحتجاج بها.

ولهذا قال كثير منهم كأبي الحسين البصري ومن تبعه كالرازي والآمدي وابن الحاجب: إن الأمة إذا اختلفت في تأويل الآية على قولين جاز لمن بعدهم إحداث قول ثالث، بخلاف ما إذا اختلفوا في الأحكام على قولين. فجوزوا أن تكون الأمة مجتمعة على الضلال في تفسير القرآن والحديث،

وأن يكون الله أنزل الآية وأراد بها معنى لم يفهمه الصحابة والتابعون، ولكن قالوا إن الله أراد معنى آخر. وهم لو تصوروا هذه المقالة لم يقولوا هذا (أي لم يقولوا بها)، فإن أصلهم أن الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولا يقولون قولين كلاهما خطأ والصواب قول ثالث لم يقولوه، لكن قد اعتادوا أن يتأولوا ما خالفهم، والتأويل عندهم مقصوده بيان احتمال في لفظ الآية يجوز أن يراد ذلك المعنى بذلك اللفظ، ولم يستشعروا أن المتأول هو مبين لمراد الآية، مخبر عن الله تعالى أنه أراد هذا المعنى إذا حملها على معنى، وكذلك إذا قال يجوز أن يراد بها هذا المعنى، والأمة قبله لم يقولوا أريد بها إلا هذا أو هذا، فقد جوزوا أن يكون ما أراده الله لم يخبر به الأمة، وأُخبرتْ أن مراده غير ما أراده (أي أن مراد الله في الآية غير ما تدل عليه)، لكن الذي قاله هؤلاء يتمشى إذا كان التأويل أنه يجوز أن يراد هذا المعنى من غير حكم بأنه مراد، وتكون الأمة قبلهم كلها كانت جاهلة بمراد الله ضالة عن معرفته، وانقرض عصر الصحابة والتابعين وهم لم يعلموا الآية. ولكن طائفة قالت يجوز أن يريد هذا المعنى وطائفة قالت يجوز أن يريد هذا المعنى (أي معنى غير المعنى الأول)، وليس فيهم من علم المراد فجاء الثالث وقال ههنا معنى يجوز أن يكون هو المراد. فإذا كانت الأمة من الجهل بمعاني القرآن والضلال عن مراد الرب بهذه الحال توجه ما قالوه (أي إذا كان الأمر على ما ذكر يكون قولهم وجيهاً: وهذا غير وارد) وبسط هذا له موضع آخر.

اعتماد كثير من المتأخرين على غير كتاب الله

والمقصود أن كثيراً من المتأخرين لم يصيروا يعتمدون في دينهم لا على القرآن ولا على الإيمان الذي جاء به الرسول بخلاف السلف، فلهذا كان

السلف أكمل علماً وإيماناً، وخطأهم أخف، وصوابهم أكثر، كما قدمناه.

دليل السلف على اعتماد القرآن والحديث

وكان الأصل الذي أسسوه هو ما أمرهم الله به في قوله ﴿ يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ واتّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] فإن هذا أمر للمؤمنين بما وصف به الملائكة، كما قال تعالى ﴿وَقَالُوا اتّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ ★ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ★ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ★ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إنّي إِلٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الظّالِمِين ﴾[2] فوصفهم سبحانه بأنهم لا يسبقونه بالقول، وأنهم بأمره يعملون، فلا يخبرون عن شيء من صفاته ولا غير صفاته إلا بعد أن يخبر سبحانه بما يخبر به، فيكون خبرهم وقولهم تبعاً لخبره وقوله، كما قال (لا يسبقونه بالقول) وأعمالهم تابعة لأمره، فلا يعملون إلا ما أمرهم هو أن يعملوا به، فهم مطيعون لأمره سبحانه.

الفرق بين فعل الأمر وعدم المعصية

وقد وصف سبحانه بذلك ملائكة النار فقال ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُها النّاسُ وَالْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ الله ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُون ﴾[3] وقد ظن بعضهم أن هذا توكيد (ههنا جملتان: (لا يعصون الله ما أمرهم) و (يفعلون ما يؤمرون) ويكون المقصود

---

(١) الحجرات ١.
(٢) الأنبياء ٢٧ - ٣٠.
(٣) التحريم ٦.

أن البعض اعتبر أن الجملة الثانية هي توكيد للجملة الأولى) . وقال بعضهم بل لا يعصونه في الماضي ويفعلون ما أمروا به في المستقبل . وأحسن من هذا وهذا أن العاصي هو الممتنع من طاعة الأمر مع قدرته على الامتثال ، فلو لم يفعل ما أمر به لعجزه لم يكن عاصياً ، فإذا قال لا يعصون الله ما أمرهم (أي أن جملة (لا يعصون الله ما أمرهم) لا تدل حتماً على فعل الأمر إذ قد يترك الشخص الأمر ولا يكون عاصياً وذلك بأن يكون عاجزاً) . لم يكن في هذا بيان أنهم يفعلون ما يؤمرون ، فإن العاجز ليس بعاص ولا فاعل لما أمر به ، فقال (ويفعلون ما يؤمرون) ليبين أنهم قادرون على فعل ما أمروا به ، فهم لا يتركونه لا عجزاً ولا معصية .

والمأمور إنما يترك ما أمر به لأحد هذين : إما أن لا يكون قادراً ، وإما أن يكون عاصياً لا يريد الطاعة ، فإذا كان مطيعاً يريد طاعة الأمر وهو قادر وجب وجود فعل ما أمر به ، فكذلك الملائكة المذكورون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وقد وصف الملائكة بأنهم ﴿ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ★ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ★ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ولا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ، وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾[1] .

فالملائكة مصدقون بخبر ربهم ، مطيعون لأمره ، ولا يخبرون حتى يخبر ولا يعملون حتى يأمر ، كما قال تعالى ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ .

---

(١) الأنبياء ٢٧ - ٣٠ .

دلالة الآية على ما ذهب إليه السلف

وقد أمر الله المؤمنين أن يكونوا مع الله ورسوله كذلك، فإن البشر لم يسمعوا كلام الله منه (أي من الله) بل بينهم وبينه رسول من البشر، فعليهم أن لا يقولوا حتى يقول الرسول ما بلغهم عن الله، ولا يعملون إلا بما أمرهم به كما قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّموا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

قال مجاهد: لا تفتاتوا عليه بشيء حتى يقضيه الله على لسانه. تقدموا، معناه تتقدموا وهو فعل لازم. وقد قرئ يقدموا؛يقال قدم وتقدم كما يقال بين وتبين. وقد يستعمل قدم متعدياً أي قدم غيره لكن هنا هو فعل لازم، فلا تقدموا معناه لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله (أي لا تتسرعوا في اعتماد موقف قبل أن تعرفوا بيان الله منه أو بيان رسوله بل ليكن موقفكم تبعاً لبيان الله ورسوله).

فعلى كل مؤمن أن لا يتكلم في شيء من الدين إلا تبعاً لما جاء به الرسول، ولا يتقدم بين يديه، بل ينظر ما قال، فيكون قوله تبعاً لقوله، وعلمه تبعاً لأمره. فهكذا كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين. فلهذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله، ولا يؤسس ديناً غير ما جاء به الرسول، وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه، نظر فيما قاله الله والرسول، فمنه يتعلم، وبه يتكلم، وفيه ينظر ويتفكر، وبه يستدل. فهذا أصل أهل السنة.

(١) الحجرات ١.

اعتماد أهل البدع

وأهل البدع لا يجعلون اعتمادهم في الباطن ونفس الأمر على ما تلقوه عن الرسول ، بل على ما رووه أو ذاقوه ، ثم إن وجدوا السنة توافقه (أي : إن وجدوا السنة توافق رأيهم ، اعتمدوها دليلاً لهم) . وإلا لم يبالوا بذلك ، فإذا وجدوها تخالفه أعرضوا عنها تفويضاً أو حرفوها تأويلاً .

فهذا هو الفرقان بين أهل الإيمان والسنة ، وأهل النفاق والبدعة ، وإن كان هؤلاء لهم من الإيمان نصيب وافر من اتباع السنة ، لكن فيهم من النفاق والبدعة بحسب ما تقدموا فيه بين يدي الله ورسوله ، وخالفوا الله ورسوله . ثم إن لم يعلموا أن ذلك يخالف الرسول ولو علموا لما قالوه ، لم يكونوا منافقين بل ناقصي الإيمان مبتدعين . وخطأهم مغفور لهم لا يعاقبون عليه وإن نقصوا به .

فصل

الذهاب إلى مخالفة الرسول

دليل على الجهل واتباع الهوى

وكل من خالف ما جاء به الرسول لم يكن عنده علم بذلك (*) ولا عدل ، بل لا يكون عنده إلا جهل وظلم وظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، وذلك لأن ما أخبر به الرسول فهو حق باطناً وظاهراً ، فلا يمكن أن يتصور أن يكون الحق في نقيضه ، وحينئذ فمن اعتقد نقيضه كان اعتقاده باطلاً ، والاعتقاد الباطل لا يكون علماً ، وما أمر به الرسول فهو عدل لا ظلم فيه ، فمن نهى (أي : عن أمر الرسول) فهو نهي عن العدل ، ومن أمر بضده فقد أمر بالظلم ، فإن ضد العدل الظلم ، فلا يكون ما يخالفه إلا جهلاً وظلماً وظناً وما تهوى الأنفس ، وهو لا يخرج عن قسمين أحسنهما أن يكون كان شرعاً لبعض الأنبياء ثم نسخ ، وأدناهما أن يكون ما شرع قط بل يكون من المبدّل ، فكل ما خالف حكم الله ورسوله فإما شرع منسوخ وإما شرع مُبدّل ما شرعه الله ، بل شرعه شارع بغير إذن من الله كما قال ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾[1] لكن هذا وهذا قد يقعان في خفي الأمور ودقيقها باجتهاد من أصحابها ، استفرغوا فيه وسعتهم

(*) زائدة

(١) الشورى ٢١ .

(طاقتهم) في طلب الحق، ويكون لهم من الصواب والاتباع ما يغفر ذلك، كما وقع مثل ذلك من بعض الصحابة في مسائل الطلاق والفرائض ونحو ذلك، ولم يكن منهم مثل (أي مثل هذا الخلاف) في جلي الأمور وجليلها، لأن بيان هذا من الرسول كان ظاهراً بينهم فلا يخالفه إلا من يخالف الرسول، وهم معتصمون بحبل الله، يحكّمون الرسول فيما شجر بينهم، لا يتقدمون بين يدي الله ورسوله، فضلاً عن تعمد مخالفة الله ورسوله.

فلما طال الزمان خفي على كثير من الناس ما كان ظاهراً لهم، ودق على كثير من الناس ما كان جلياً لهم، فكثر من المتأخرين مخالفة الكتاب والسنة ما لم يكن مثل هذا في السلف.

وإن كانوا مع هذا مجتهدين معذورين، يغفر الله لهم خطاياهم، ويثيبهم على اجتهادهم.

المفاضلة بين الصحابة والمتأخرين

وقد يكون لهم من الحسنات ما يكون للعامل منهم أجر خمسين رجلاً يعملها في ذلك الزمان، لأنهم كانوا يجدون من يعينهم على ذلك، وهؤلاء المتأخرون لم يجدوا من يعينهم على ذلك، لكن تضعيف الأجر لهم في أمور لم يُضعَّف (أي لم يضعَّف فيها للصحابة) لا يلزم أن يكونوا أفضل من الصحابة، ولا يكون فاضلهم كفاضل الصحابة.

فإن الذي سبق إليه الصحابة من الإيمان والجهاد ومعاداة أهل الأرض في موالاة الرسول وتصديقه وطاعته فيما يخبر به ويوجبه قبل أن تنتشر دعوته، وتظهر كلمته، وتكثر أعوانه وأنصاره، وتنتشر دلائل نبوته، بل مع قلة المؤمنين وكثرة الكافرين والمنافقين، وإنفاق المؤمنين أموالهم في سبيل

الله ابتغاء وجهه في مثل تلك الحال، أمر ما بقي يحصل مثله لأحد كما في الصحيحين عنه ﷺ «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

وقد استفاضت النصوص الصحيحة عنه أنه قال «خير القرون قرني الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».

فجملة القرنِ الأول أفضل من القرن الثاني، والثاني أفضل من الثالث، والثالث أفضل من الرابع، لكن قد يكون في الرابع من هو أفضل من بعض الثالث، وكذلك في الثالث مع الثاني، وهل يكون فيمن بعد الصحابة من هو أفضل من بعض الصحابة المفضولين لا الفاضلين؟ هذا فيه نزاع وفيه قولان حكاهما القاضي عياض وغيره. ومن الناس من يفرضها (أي يضرب مثلاً على هذا) في مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز، فإن معاوية له مزية الصحبة والجهاد مع النبي ﷺ، وعمر له مزية فضيلته من العدل والزهد والخوف من الله تعالى. وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا أن من خالف الرسول فلا يعدو أن يتبع الظن وما تهوى الأنفس كما قال تعالى في المشركين الذين يعبدون اللات والعزى ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ وَما تَهْوَى ٱلْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ ٱلْهُدى﴾[1].

وقال في الذين يخبرون عن الملائكة أنهم إناث ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنْثى ★ وما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْني مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً ★ فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحياةَ الدُّنْيا ★ ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ

---

(١) النجم ٢٣.

ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَى﴾[1] وهم جعلوهم إناثاً كما قال ﴿وَجَعَلُوا ٱلْمَلَائِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إناثاً﴾[2] وفي القراءة الأخرى ﴿عند الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسئلون﴾ وهؤلاء قال عنهم ﴿إنْ يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ﴾ لأنه خبر محض ليس فيه عمل، وهناك (يقصد الآية التي فيها عبادة اللات والعزى) ﴿ومَا تَهْوَى ٱلْأَنْفُسُ﴾ لأنهم كانوا يعبدونها ويدعونها، فهناك عبادة وعمل بهوى أنفسهم فقال ﴿إنْ يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ وما تَهْوَى ٱلْأَنْفُسُ﴾. والذي جاء به الرسول كما قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إذا هَوَى ★ ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ ومَا غوَى ★ ومَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَى ★ إنْ هُوَ إلَّا وَحْيٌ يُوحَى ★ عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَى﴾[3] وكل من خالف الرسول لا يخرج عن الظن وما تهوى الأنفس. فإن كان ممن يعتقد ما قاله وله فيه حجة يستدل بها كان غايته الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً كاحتجاجهم بقياس فاسد أو نقل كاذب، أو خطاب ألقي إليهم اعتقدوا أنه من الله وكان من إلقاء الشيطان.

وهذه الثلاثة (يقصد التي ذكرها وهي القياس الفاسد والنقل الكاذب والخطاب الملقى إليهم من الشيطان) هي عمدة من يخالف السنة بما يراه حجة ودليلاً، إما أن يحتج بأدلة عقلية ويظنها برهاناً وأدلة قطعية وتكون شبهات فاسدة مركبة من ألفاظ مجملة ومعانٍ متشابهة، لم يميز بين حقها وباطلها، كما يوجد مثل ذلك في جميع ما يحتج به من خالف الكتاب والسنة، إنما يركب حججه من ألفاظ متشابهة، فإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل. وهذه هي الحجج العقلية، وإما أن يتمسك

---

(١) النجم ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١.

(٢) الزخرف ١٩.

(٣) ١، ٢، ٣، ٤، ٥ النجم.

المبطل بحجج سمعية (أي ما سمع عن الرسول ﷺ من أحاديث) فإما أن تكون كذباً على الرسول. أو تكون غير دالة على ما احتج بها أهل البطول، فالمنع إما في الإسناد وإما في المتن، ودلالته على ما ذكر، وهذه الحجة السمعية هي حجج أهل العلم الظاهر.

بيان حال المتصوفين

وأما حجة أهل الذوق والوجد والمكاشفة والمخاطبة، فإن أهل الحق من هؤلاء لهم (إلهامات صحيحة) مطابقة كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال « قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر » وكان عمر يقول « اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنها تُجْلى لهم أمور صادقة ».

وفي الترمذي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ قوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[1] وقال بعض الصحابة: أظنه والله الحق يقذفه الله على قلوبهم وأسماعهم.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها » وفي رواية « فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي » فقد أخبر أنه يسمع بالحق ويبصر به.

وكانوا يقولون: إن السكينة تنطق على لسان عمر رضي الله عنه.

---

(١) الحجر ٧٥.

وقال ﷺ « من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه ، ومن لم يسأله ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكاً يسدده » .

وقال الله تعالى ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾(١) الإيمان مع نور القرآن .

وقال تعالى ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾(٢) وهو المؤمن على بينة من ربه ، ويتبعه شاهد من الله ، وهو القرآن ، شهد الله في القرآن بمثل ما عليه المؤمن من بينة الإيمان .

حصول المعرفة بدون علم ونظر

وهذا القدر مما أقر به حذاق النظار لما تكلموا في وجوب النظر وتحصيله للعلم ، فقيل لهم (أي سُموا بهذا الاسم) أهل الحقيقة والرياضة والعبادة والتأله ، يحصل لهم المعارف والعلوم اليقينية بدون النظر ، كما قال الشيخ الملقب بالكبيري (للرازي) ورفيقه (معطوف على الشيخ الكبيري) ، وقد قالا له : (أي الشيخ الكبيري ورفيقه قالا للرازي) يا شيخ بلغنا أنك تعلم علم اليقين ، فقال نعم ، فقالا كيف تعلم ونحن نتناظر في زمان طويل كلما ذكر شيئاً أفسدته ، وكلما ذكرت شيئاً أفسده ، فقال : هو واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها . فجعلا يعجبان من ذلك ويكرران الكلام . وطلب أحدهما أن يحصل له هذه الواردات ، فعلمه الشيخ وأدبه حتى حصلت له ، وكان من المعتزلة النفاة .

فبين له أن الحق مع أهل الإثبات ، وأن الله سبحانه فوق سمواته ، وعلم ذلك بالضرورة ، رأيت هذه الحكاية بخط القاضي نجم الدين أحمد بن محمد بن

---

(١) النور ٣٥ .

(٢) هود ١٧ .

خلف المقدسي ، وذكر أن الشيخ الكبيري حكاها له وكان قد حدثني بها عنه غير واحد حتى رأيتها بخطه. وكلام المشايخ في مثل هذا كثير.

تقسيم العلم عند المتصوفين

وهذا الوصف الذي ذكره الشيخ ، جواب لهم بحسب ما يعرفون ، فإنهم قد قسموا العلم إلى ضروري ونظري (نظري : أي يحصل بالدرس والتعلم) ، والنظري مستند إلى الضروري ، والضروري هو العلم الذي يلزم نفس المخلوق لزوماً لا يمكنه معه الانفكاك عنه ، هذا (أي : تعريف) حد القاضي أبي بكر الطيب وغيره ، فخاصته أنه يلزم النفس لزوماً لا يمكن مع ذلك دفعه ، فقال لهم : علم اليقين عندنا هو من هذا الجنس ، وهو علم يلزم النفس لزوماً لا يمكنه مع ذلك الانفكاك عنه ، وقال واردات لأنه يحصل مع العلم طمأنينة وسكينة توجب العمل به ، فالواردات تحصل بهذا وهذا (أي : بالضروري وبالنظري) ، وهذا قد أقر به كثير من حذاق النظار متقدميهم كالهراسي والغزالي وغيرهما ، ومتأخريهم كالرازي والآمـــدي ، وقالوا نحن لا ننكر أن يحصل لناس علم ضروري بما يحصل لنا بالنظر هذا لا يدفعه ، لكن إن لم يكن علماً ضرورياً فلا بد له من دليل ، والدليل يكون مستلزماً للمدلول عليه بحيث يلزم من انتفاء الدليل انتفاء المدلول عليه. قالوا : فإن كان لو دفع ذلك الاعتقاد الذي حصل له لزم دفع شيء مما يعلم بالضرورة ، فهذا هو الدليل ، وإن لم يكن كذلك فهذا هوس لا يلتفت إليه. وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود أن هذا الجنس (أي : المتصوفين) واقع ، لكن يقع أيضاً ما يظن أنه منه كبير أو لا يميز كثير منهم الحق من الباطل كما يقع في الأدلة

العقلية والسمعية ، فمن هؤلاء من يسمع خطاباً ، أو يرى من يأمره بقضية ، ويكون ذلك الخطاب من الشيطان ، ويكون ذلك الذي يخاطبه الشيطان وهو يحسب أنه من أولياء الله من رجال الغيب .

فصل

أوهام يقع فيها بعض المتصوفين

ورجال الغيب الجن وهو (أي: المتصوف) يحسب أنه إنسي، وقد يقول له أنا الخضر أو إلياس، بل أنا محمد أو إبراهيم الخليل أو المسيح أو أبو بكر أو عمر، أو أنا الشيخ فلان أو الشيخ فلان ممن يحسن بهم الظن، وقد يطير به في الهواء، أو يأتيه بطعام أو شراب أو نفقة، فيظن هذا كرامة بل آية ومعجزة تدل على أن هذا من رجال الغيب أو من الملائكة، ويكون ذلك شيطاناً ألبس عليه. فهذا ومثله واقع كثيراً، أعرف منه وقائع كثيرة، كما أعرف من الغلط في السمعيات والعقليات، فهؤلاء يتبعون ظناً لا يغني من الحق شيئاً ولو لم يتقدموا بين يدي الله ورسوله بل اعتصموا بالكتاب والسنة لتبين لهم أن هذا من الشيطان.

المتصوفة يتبعون الذوق لا ما أمر الله

وكثير من هؤلاء يتبع ذوقه ووجده وما يجده محبوباً إليه بغير علم ولا هدى ولا بصيرة، فيكون متبعاً لهواه بلا ظن، وخيارهم من يتبع الظن وما تهوى الأنفس، وهؤلاء إذا طلب من أحدهم حجة ذكر تقليده لمن يحبه من آبائه وأسلافه، كقول المشركين ﴿إِنَّا وَجَدْنا آباءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثارِهِمْ مُقْتَدُون﴾[1] وإن عكسوا احتجوا بالقدر وهو أن الله أراد هذا وسلطنا

---

(١) الزخرف ٢٣.

عليه ، فهم يعملون بهواهم وإرادة نفوسهم بحسب قدرتهم كالملوك المسلطين ، وكان الواجب عليهم أن يعملوا بما أمر الله ، فيتبعون أمر الله وما يحبه ويرضاه ، لا يتبعون إرادتهم وما يحبونه هم ويرضونه ، وأن يستعينوا بالله فيقولون إياك نعبد وإياك نستعين ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا يعتمدون على ما أوتوه من القوة والتصرف والحال ، فإن هذا من الجد (أي : الحظ) ، وقد كان النبي ﷺ : يقول عقب الصلاة ، وفي الاعتدال بعد الركوع : « اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » (أي إن الحظ لا ينفع صاحبه من دون الله) .

فالذوق والوجد هو يرجع إلى حب الإنسان ووجده بحلاوته وذوقه وطعمه ؛ وكل صاحب محبة فله في محبوبه ذوق ووجد ، فإن لم يكن ذلك بسلطان من الله (أي : إن لم يكن ذلك الحب والوجد والذوق مستنداً إلى ما أنزله الله كان مطية للهوى ومؤدياً إلى الانحراف عن الجادة الصحيحة) ، وهو ما أنزله على رسوله ﷺ كان صاحبه متبعاً لهواه بغير هدى ، وقد قال الله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُم إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾[2] .

وكذلك من اتبع ما يرد عليه من الخطاب ، أو ما يره من الأنوار والأشخاص الغيبية ، ولا يعتبر ذلك بالكتاب والسنة فإنما يتبع ظناً لا يغني من الحق شيئاً .

---

(١) القصص ٥٠ .

(٢) الأنعام ١١٩ .

ضرب المثل بسيدنا عمر رضي الله عنه

فليس في المحدثين الملهمين أفضل من عمر كما قال ﷺ « إنه قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر منهم » وقد وافق عمر ربه في عدة أشياء ، (منها موقفه من أسرى بدر فقد كان رأيه أن يقتلوا وكان رأي أبي بكر العكس ووافقه الرسول عليه الصلاة والسلام ولكن القرآن نزل مؤيداً رأي عمر . قال تعالى ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ...﴾ ...)[1] ومع هذا فكان عليه أن يعتصم بما جاء به الرسول ، ولا يقبل ما يرد عليه حتى يعرضه على الرسول ، ولا يتقدم بين يدي الله ورسوله ، بل يجعل ما ورد عليه وكان إذا تبين له من ذلك أشياء خلاف ما وقع له فيرجع إلى السنة ، وكان أبو بكر يبين له أشياء خفيت عليه ، فيرجع إلى بيان الصديق وإرشاده وتعليمه ، كما جرى يوم الحديبية ، ويوم مات الرسول ، ويوم ناظره من مانع الزكاة ، وغير ذلك ، وكانت المرأة ترد عليه ما يقوله وتذكر الحجة من القرآن فيرجع إليها ، كما جرى في مهور النساء . (فقد خطب مرة يريد الحد من مهور النساء فوقفت امرأة وتلت عليه الآية ﴿وآتَيْتُمْ إحْدٰاهُنَّ قِنْطاراً﴾[2] فقال أصابت امرأة وأخطأ عمر . ومثل هذا كثير.

المتصوفون ليسوا أفضل من عمر

فكل من كان من أهل الإلهام والخطاب والمكاشفة لم يكن أفضل من عمر ، فعليه أن يسلك سبيله في الاعتصام بالكتاب والسنة تبعاً لما جاء به

---

(١) الأنفال ٦٧ .

(٢) النساء ٢٠ .

الرسول ، لا يجعل ما جاء به الرسول تبعاً لما ورد عليه ، وهؤلاء الذين أخطأوا وضلوا وتركوا ذلك واستغنوا بما ورد عليهم وظنوا أن ذلك يغنيهم عن اتباع العلم المنقول ، وصار أحدهم يقول : أخذوا علمهم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت ، فيقال : له أما ما نقله الثقات عن المعصوم (أي : النبي ﷺ) فهو حق ، ولولا النقل المعصوم لكنت أنت وأمثالك إما من المشركين وإما من اليهود والنصارى ، وأما ما ورد عليك فمن أين لك أنه وحي من الله؟ ومن أين لك أنه ليس من وحي الشيطان؟

الوحي رحماني وشيطاني

والوحي وحيان : وحي من الرحمن ؛ ووحي من الشيطان : قال تعالى : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[1] وقال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾[2] وقال تعالى : ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾[3] .

وقد كان المختار بن أبي عبيد من هذا الضرب ، حتى قيل لابن عمر وابن عباس قيل لأحدهما إنه يقول إنه يوحى إليه ، فقال ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[4] وقيل للآخر إنه يقول إنه ينزل عليه فقال ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾[5] .

---

(١) الأنعام ١٢١ .
(٢) الأنعام ١١٢ .
(٣) الشعراء ٢٢١ .
(٤) الأنعام ١٢١ .
(٥) الشعراء ٢٢١ .

طرق المعرفة ثلاثة

فهؤلاء يحتاجون إلى الفرقان الإيماني القرآني النبوي الشرعي أعظم من حاجة غيرهم ، وهؤلاء لهم حسيات يرونها ويسمعونها ، والحسيات يضطر إليها الإنسان بغير اختياره ، كما قد يرى الإنسان أشياء ويسمع أشياء بغير اختياره ، كما أن النظار لهم قياس ومعقول ، وأهل السمع لهم أخبار منقولات ، وهذه الأنواع الثلاثة هي طرق العلم : الحس ، والخبر ، والنظر ، (الحس : أي العلم الذي يأتي عن طريق الحس كالسمع والبصر والمكاشفة. الخبر : أي العلم الذي يأتي عن طريق ما أخبر به الله ورسوله . النظر : أي العلم الذي يأتي عن طريق استعمال العقل والتجارب العلمية) . وكل إنسان من (أي : يأخذ) هذه الثلاثة في بعض الأمور لكن يكون بعض الأنواع أغلب على بعض الناس في الدين ، وغير الدين كالطب فإنه تجربات وقياسات ، وأهله منهم من يغلب عليه التجربة ، ومنهم من يغلب عليه القياس ، والقياس أصله التجربة ، والتجربة لا بد فيها من قياس ، لكن مثل قياس العاديات لا يعرف فيه العلة والمناسبة . وصاحب القياس من يستخرج العلة المناسبة ويعلق الحكم بها ، والعقل خاصة القياس والاعتبار والقضايا الكلية فلا بد له من الحسيات التي هي الأصل ليعتبر بها ، والحس إن لم يكن مع صاحبه عقل وإلا فقد يغلط .

والناس يقولون غلط الحس ، والغلط تارة من الحس وتارة من صاحبه ، فإن الحس يرى أمراً معيناً فيظن صاحبه فيه شيئاً آخر فيؤتى من ظنه ، فلا بد له من العقل .

كيف يغلط النائم

ولهذا النائم يرى شيئاً وتلك الأمور (أي التي يراها النائم لها وجود

حقيقي عنده) لها وجود وتحقيق، ولكن هي خيالات وأمثلة (أمثلة : جمع مثال وهو شبه الحقيقة وليس حقيقة). فلما عزب (أي : غاب عقل النائم) ظنها الرائي نفس الحقائق، كالذي يرى نفسه في مكان آخر يكلم أمواتاً ويكلمونه، ويفعل أموراً كثيرة وهو في النوم، يجزم بأنه نفسه الذي يقول ويفعل، لأن عقله عزب عنه، وتلك الصورة التي رآها مثال صورته وخيالها، لكن غاب عقله عن نفسه حتى ظن أن ذلك المثال هو نفسه، فلما ثاب إليه عقله علم أن ذلك خيالات ومثالات.

مثل المرآة والخيال

ومن الناس من لا يغيب عقله، بل يعلم في المنام أن ذلك في المنام، وهذا كالذي يرى صورته في المرآة أو صورة غيره، فإذا كان ضعيف العقل ظن أن تلك الصورة هي الشخص حتى إنه يفعل به ما يفعل بالشخص، وهذا يقع للصبيان والبله، كما يخيل لأحدهم في الضوء شخص يتحرك ويصعد وينزل فيظنونه شخصاً حقيقة ولا يعلمون أنه خيال، فالحس أحس صحيحاً لم يغلط لكن معه عقل لم يميز بين هذا العين والمثال، فإن العقل قد عقل قبل هذا أن مثل هذا يكون مثالاً، وقد عقل لوازم الشخص بعينه وأنه لا يكون في الهواء ولا في المرآة، ولا يكون بدنه في غير مكانه وأن الجسم الواحد لا يكون في مكانين.

بعض مشاهدات المتصوفين

وهؤلاء الذين لهم مكاشفات ومخاطبات يرون ويسمعون ما له وجود في الخارج وما لا يكون موجوداً إلا في أنفسهم، كحال النائم، وهذا يعرفه كل أحد، ولكن قد يرون في الخارج أشخاصاً يراها عياناً، وما في خيال

الإنسان لا يراه غيره ، ويخاطبهم أولئك الأشخاص ويحملونهم (أي أن المتصوفين أشخاصاً لا يراهم غيرهم يخاطبونهم ويحملونهم الخ . .) ويذهبون بهم إلى عرفات فيقفون بها وإما إلى غير عرفات ، ويأتونهم بذهب وفضة وطعام ولباس وسلاح وغير ذلك ، يخرجون إلى الناس ويأتونهم أيضاً بمن يطلبونه ، مثل من يكون له إرادة في امرأة أو صبي فيأتونه بذلك إما محمولاً في الهواء وإما بسعي شديد ، ويخبر أنه وجد في نفسه من الباعث القوي ما لم يمكنه المقام معه ، أو يخبر أنه سمع خطاباً ، وقد يقتلون له من يريد قتله من أعدائه أو يمرضونه ، فهذا كله موجود كثيراً .

اختلاف نظرة المتصوفين لما يشاهدون

لكن من الناس من يعلم أن هذا من الشيطان وأنه من السحر ؛ وأن ذلك حصل بما قاله ويعلمه من السحر ، ومنهم من يعلم أن ذلك من الجن ويقول هذا كرامة أكرمنا بتسخير الجن لنا . ومنهم من لا يظن أولئك الأشخاص إلا آدميين أو ملائكة ، فإن كانوا غير معروفين قال هؤلاء رجال الغيب ، وإن يسموا (أي ذكروا لهم أسماءهم) قالوا هذا هو الخضر ، وهذا هو إلياس . وهذا هو أبو بكر وعمر ، وهذا هو الشيخ عبد القادر أو الشيخ عديّ أو الشيخ أحمد الرفاعي أو غير ذلك ، ظن أن الأمر كذلك ، فهنا لم يغلط لكن غلط عقله حيث لم يعرف أن هذه شياطين تمثلت على صور هؤلاء .

وكثير من هؤلاء يظن أن النبي ﷺ نفسه أو غيره من الأنبياء أو الصالحين يأتيه في اليقظة ، ومن يرى (أي : ومنهم من يرى) ذلك عند قبر النبي ﷺ أو الشيخ ، وهو صادق في أنه إياه (أي : نفسه) من قال إنه النبي أو الشيخ أو قيل له ذلك فيه ، لكن غلط حيث ظن صدق أولئك .

كيف ينبغي أن يتصرف العاقل إزاء ما يراه

والذي له عقل وعلم يعلم أن هذا ليس هو النبي ﷺ، تارة لما يراه منهم من مخالفة الشرع، مثل أن يأمروه بما يخالف أمر الله ورسوله، وتارة لعلمه أن النبي ﷺ ما كان يأتي أحداً من أصحابه بعد موته في اليقظة ولا كان يخاطبهم من قبره فكيف يكون هذا لي، (أي: فيقول من حصل له ذلك مخاطباً نفسه: كيف يكون هذا لي) وتارة يعلم أن الميت لم يقم من قبره وأن روحه في الجنة لا تصير في الدنيا هكذا، وهذا يقع كثيراً لكثير من هؤلاء ويسمون تلك الصورة رفيقة فلان، وقد يقولون هو معناه بشكل (أي يقولون عن الميت الذي يرونه إنه على شكله). وقد يقولون روحانيته.

كيف يتمثل الشيطان لهؤلاء

ومن هؤلاء من يقول: إذا مت فلا تدعوا أحداً يغسلني ولا فلاناً يحضرني فإني أنا أغسل نفسي، فإذا مات رأوه قد جاء وغسل ذلك البدن، ويكون ذلك جنياً قد قال لهذا الميت إنك تجيء بعد الموت واعتقد ذلك حقاً فإنه كان في حياته يقول له أموراً، وغرض الشيطان أن يضل أصحابه، وأما بلاد المشركين كالهند، فهذا كثيراً ما يرون الميت بعد موته جاء وفتح حانوته ورد ودائع، وقضى ديوناً، ودخل إلى منزله ثم ذهب وهم لا يشكون أنه الشخص نفسه وإنما هو شيطان تصور في صورته.

ومن هؤلاء من يبكون في جنازة أبيه أو غيره والميت على سريره وهو يراه يمشي مع الناس آخذاً بيد ابنه وأبيه قد جعل شيخاً بعد أبيه، فلا يشك ابنه أن أباه نفسه هو كان الماشي معه الذي رآه هو دون غيره، وإنما كان شيطاناً، (أي وليس الأمر كذلك كما رأى بل كان الذي رآه شيطاناً)

ويكون مثل هذا الشيطان قد سمى نفسه خالداً وغير خالد وقال لهم إنه من رجال الغيب وهم يعتقدون أنه من الإنس الصالحين ويسمونه خالداً الغيبي، وينسبون الشيخ إليه فيقولون محمداً الخالدي، ونحو ذلك.

الجن مكلفون مثل الإنس

فإن الجن مأمورون ومنهيون كالإنس، وقد بعث الله الرسل من الإنس إليهم وإلى الإنس، وأمر الجميع بطاعة الرسل، كما قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قَالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَياةُ الدُّنْيا وَشَهِدُوا على أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ﴾[1] وهذا بعد قوله ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قدِ ٱسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ ٱلْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُمْ مِنَ ٱلْإِنْسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا ٱلَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا، قَال النَّارُ مَثْواكُمْ خَالِدِينَ فيها إلّا ما شَاءَ اللهُ﴾[2].

تفسير الاستكثار والاستمتاع الوارد في الآية

قال غير واحد من السلف: (أي في تفسير: «استكثرتم من الانس») أي كثيرٌ من أغويتم من الإنس وأضللتموهم. قال البغوي: قال بعضهم: استمتاع الإنس بالجن بما كانوا يلقون لهم من الأراجيف والسحر والكهانة، وتزيينهم لهم الأمور التي يهيئونها ويسهل سبيلها عليهم. واستمتاع الجن بالإنس طاعة الإنس لهم فيا يزينون لهم من الضلالة والمعاصي.

---

(١) الأنعام ١٣٠.
(٢) الأنعام ١٢٨.

قال محمد بن كعب: هو طاعة بعضهم لبعض، وموافقة بعضهم بعضاً.

وذكر ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال: ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس (أي: الجن تأمر والإنس تعمل وتنفذ).

وعن محمد بن كعب قال: هو الصحابة في الدنيا.

وقال ابن السائب: استمتاع الإنس بالجن استعاذتهم بهم (أي: التجاؤهم إليهم) واستمتاع الجن بالإنس أن قالوا قد أسرنا الإنس مع الجن حتى عاذوا بنا، فيزدادون شرفاً في أنفسهم، وعظماً في نفوسهم. وهذا كقوله ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ ٱلْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾[1].

قلت: الاستمتاع بالشيء هو أن يتمتع به ينال به ما يطلبه ويريده ويهواه، ويدخل في ذلك استمتاع الرجال بالنساء بعضهم لبعض كما قال ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾[2] ومن ذلك الفواحش كاستمتاع الذكور بالذكور والإناث بالإناث.

ويدخل في هذا الاستمتاع بالاستخدام وأئمة الرياسة، كما يتمتع الملوك والسادة بجنودهم ومماليكهم. ويدخل في ذلك الاستمتاع بالأموال كاللباس، ومنه قوله ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾[3] وكان من السلف من يمتع المرأة بخادم فهي تستمتع بخدمته، ومنهم من يمتع بكسوة أو نفقة. ولهذا قال الفقهاء: أعلى المتعة خادم وأدناها كسوة يجزي فيها الصلاة.

---

(١) الجن ٦.
(٢) النساء ٢٤.
(٣) البقرة ٢٣٦.

وفي الجملة استمتاع الإنس بالجن والجن بالإنس يشبه استمتاع الإنس بالإنس. قال تعالى ﴿ٱلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

وقال تعالى ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[2].

قال مجاهد: هي المودات التي كانت لغير الله.

وقال تعالى ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً﴾[3].

وقال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾[4] فالمشرك يعبد ما يهواه، واتباع الهوى هو استمتاع من صاحبه بما يهواه. وقد وقع في الإنس والجن هذا كله.

طرق استمتاع الإنس والجن بعضهم ببعض

وتارة يخدم هؤلاء لهؤلاء (أي يخدم الجن الإنس) في أغراضهم، وهؤلاء لهؤلاء (أي بالعكس يخدم الإنس الجن) في أغراضهم، فالجن تأتيه (أي: تأتي للإنسان) بما يريد من صورة أو مال أو قتل عدوه، والإنس تطيع الجن، فتارة يسجد له، وتارة يسجد لما يأمره بالسجود له، وتارة يمكنه من نفسه فيفعل به الفاحشة، وكذلك الجنيات منهن من يريد من الإنس الذي يخدمنه ما يريد نساء الإنس من الرجال، وهذا كثير في رجال الجن ونسائهم، فكثير من رجالهم ينال من نساء الإنس ما يناله الإنس، وقد يفعل ذلك بالذكران.

---

(١) الزخرف ٦٧.

(٢) البقرة ١٦٦.

(٣) العنكبوت ٢٥.

(٤) الجاثية ٢٣.

أسباب صرع الجن للإنس

وصرع الجن للإنس هو لأسباب ثلاثة: تارة يكون الجن يحب المصروع فيصرعه ليتمتع به، وهذا الصرع يكون أرفق من غيره وأسهل، وتارة يكون الإنس آذاهم إذا بال عليهم أو صب عليهم ماء حاراً، أو يكون قتل بعضهم، أو غير ذلك من أنواع الأذى، هذا أشد الصرع، وكثيراً ما يقتلون المصروع، وتارة يكون بطريق العبث به كما يعبث سفهاء الإنس بأبناء السبيل.

إخبارهم الأنس بالأمور الغيبية

ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم في الإخبار بالأمور الغائبة، كما يخبر الكهان، فإن في الإنس من له غرض في هذا، لما يحصل به من الرياسة والمال وغير ذلك.

فإن كان القوم (أي الجن) كفاراً كما كانت العرب لم تبال بأن يقال إنه كاهن كما كان العرب كهاناً. وقدم النبي ﷺ المدينة وفيها كهان. وكان المنافقون يطلبون التحاكم إلى الكهان. وكان أبو أبرق الأسلمي أحد الكهان قبل أن يسلم.

وإن كان القوم (أي الجن) مسلمين لم يُظهر أنه كاهن بل يجعل ذلك من باب الكرامات وهو من جنس الكهان، فإنه لا يخدم الإنسي بهذه الأخبار إلا لما يستمتع به من الإنسي بأن يطيعه الإنسي في بعض ما يريده، إما في شرك، وإما في فاحشة، وإما في أكل حرام، وإما في قتل نفس بغير حق. فالشياطين لهم غرض فيما نهى الله عنه من الكفر والفسوق والعصيان، ولهم لذة في الشر والفتن، يحبون ذلك وإن لم يكن فيه منفعة لهم. وهم يقولون

بأمر السارق أن يسرق ويذهب (أي ويذهبون) إلى أهل المال فيقولون فلان سرق متاعكم.

ولهذا يقال القوة الملكية والبهيمية والسبعية والشيطانية، فإن الملكية فيها العلم النافع والعمل الصالح، والبهيمية فيها الشهوات كالأكل والشرب، والسبعية فيها الغضب وهو دفع المؤذي، وأما الشيطانية فشرٌ محض ليس فيها جلب منفعة ولا دفع مضرة.

والفلاسفة ونحوهم ممن لا يعرف الجن والشياطين لا يعرفون هذه، وإنما يعرفون الشهوة والغضب، والشهوة والغضب خلقا لمصلحة ومنفعة، لكن المذموم هو العدوان فيهما، وأما الشيطان فيأمر بالشر الذي لا منفعة فيه ويحب ذلك كما فعل إبليس بآدم لما وسوس له، وكما امتنع من السجود له. فالحسد يأمر به الشيطان، والحاسد لا ينتفع بزوال النعمة عن المحسود، لكن يبغض ذلك، وقد يكون بغضه لفوات غرضه وقد لا يكون.

ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم في إحضار بعض ما يطلبونه من مال وطعام وثياب ونفقة، فقد يأتون ببعض ذلك، وقد يدلونه على كنز وغيره.

واستمتاع الجن بالإنس استعمالهم فيما يريده الشيطان من كفر وفسق ومعصية.

ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم فيما يطلبه الإنس من شرك وقتل وفواحش، فتارة يتمثل الجن في صورة الإنسي، فإذا استغاث به بعض أتباعه أتاه فظن أنه الشيخ نفسه (أي: إذا استغاث التابع بالجني يأتيه على صورة شيخه فيظن التابع أنه الشيخ نفسه) وتارة يكون التابع قد

نادى شيخه وهتف به يا سيدي فلان فينقل الجني ذلك الكلام إلى الشيخ بمثل صوت الإنسي حتى يظن الشيخ أنه صوت الإنسي بعينه ، ثم إن الشيخ يقول نعم ، ويشير إشارة يدفع بها ذلك المكروه ، فيأتي الجني بمثل ذلك الصوت والفعل ، يظن ذلك الشخص أنه شيخه نفسه وهو الذي أجابه وهو الذي فعل ذلك حتى إن تابع الشيخ قد تكون يده في إناء يأكل فيضع الجني يده في صورة يد الشيخ ويأخذ من الطعام ، فيظن ذلك التابع أنه شيخه حاضر معه ؛ والجني يمثل للشيخ نفسه (أي أن الجني يمثل دورين في الوقت نفسه؛ دوراً مع التابع ودوراً مع الشيخ) مثل ذلك الإناء فيضع يده فيه حتى يظن الشيخ أن يده في ذلك الإناء ، فإذا حضر المريد ذكر له الشيخ أن يدي كانت في الإناء فيصدقه ، ويكون بينهما مسافة شهر ، والشيخ موضعه (أي في موضعه) لم يتحرك ويده لم تطل ، ولكن الجني مثل للشيخ ومثل للمريد ، حتى ظن كل منهما أن أحدهما عند الآخر ، وإنما كان عنده ما مثله الجني وخيله .

وإذا سئل الشيخ المخدوم عن أمر غائب إما سرقة وإما شخص مات وطلب منه أن يخبر بحاله أو علة في النساء أو غير ذلك ، فإن الجني قد يمثل ذلك فيريه صورة المسروق ، فيقول الشيخ ذهب لكم كذا وكذا ، ثم إن كان صاحب المال معظماً وأراد أن يدله على سرقته مثل له الشيخ الذي أخذه أو المكان الذي فيه المال فيذهبون إليه فيجدونه كما قال . والأكثر منهم أنهم يظهرون صورة المال ولا يكون عليه (أي ولا يجدون في المكان الذي دلوا عليه) . لأن الذي سرق المال معه أيضاً جني يخدمه ، والجن يخاف بعضهم من بعض كما أن الإنس يخاف بعضهم بعضاً ، فإذا دل الجني عليه جاء إليه أولياء السارق فآذوه ، وأحياناً لا يدل لكون السارق وأعوانه يخدمونه (أي

يخدمون ذلك الجني) ويرشونه ، كما يصيب معرف اللصوص من الإنس تارة يعرف السارق ولا يعرّف به (أي يعرف السارق ولكنه لا يدل عليه) إما لرغبة ينالها منه ، وإما لرهبة وخوف منه ، وإذا كان المال المسروق لكبير يخافه ويرجوه عرَّف سارقه. فهذا وأمثاله من استمتاع بعضهم ببعض.

فصل

الكلام عن الجن في الدنيا ومصيرهم في الآخرة

والجن مكلفون كتكليف الإنس، ومحمد ﷺ مرسل إلى الثقلين الجن والإنس، وكفار الجن يدخلون النار بنصوص وإجماع المسلمين.

وأما مؤمنوهم ففيهم قولان، وأكثر العلماء على أنهم يثابون أيضاً ويدخلون الجنة.

وقد روي أنهم يكونون في ربضها (أي في ربض الجنة) يراهم الإنس من حيث لا يرون الإنس (أي لا يرى الجن) عكس الحال في الدنيا، وهو حديث رواه الطبراني في معجمه الصغير يحتاج النظر في إسناده.

وقد احتج ابن أبي ليلى وأبو يوسف على ذلك بقوله تعالى ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾[1]

وقد ذكر الجن والإنس الأبرار والفجار في (أي في سورتي) الأحقاف والأنعام.

واحتج الأوزاعي وغيره بقوله تعالى ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾[2] وقد قال تعالى في الأعراف ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي

---

(١) الأحقاف ١٩.

(٢) الرحمن ٧٤.

أَمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ★ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾[1] وقد تقدم قبل هذا ذكر أهل الجنة وقوله ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ ٱلْجَنَّةِ ﴾[2] ثم قال ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[3] قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات أهل الجنة تذهب علواً، ودرجات أهل النار تذهب سفلاً.

وقد قال تعالى عن قول الجن ﴿ وأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ﴾[4] وقالوا ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً ★ وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾[5] ففيهم الكفار والفساق والعصاة، وفيهم من فيه عبادة ودين بنوع من قلة العلم كما في الإنس، وكل نوع من الجن يميل إلى نظيره من الإنس، فاليهود مع اليهود، والنصارى مع النصارى، والمسلمون مع المسلمين، والفساق مع الفساق، وأهل الجهل والبدع مع أهل الجهل والبدع.

طرق استخدام الإنس للجن

واستخدام الإنس لهم مثل استخدام الإنس للإنس بشيء (أي بشيء من الأشياء).

منهم من يستخدمهم في المحرمات من الفواحش والظلم والشرك والقول

(١) الأحقاف ١٨، ١٩.
(٢) الأحقاف ١٦.
(٣) الاحقاف ١٩.
(٤) الجن ١١.
(٥) الجن ١٤، ١٥.

على الله بلا علم ، وقد يظنون ذلك من كرامات الصالحين ، وإنما هو من أفعال الشياطين .

ومنهم من يستخدمهم في أمور مباحة ، إما إحضار ماله ، أو دلالة على مكان فيه مال ليس له مالك معصوم ، أو دفع من يؤديه ونحو ذلك ، فهذا كاستعانة الإنس بعضهم ببعض في ذلك .

والنوع الثالث أن يستعملهم في طاعة الله ورسوله كما يستعمل الإنس في مثل ذلك ، فيأمرهم بما أمر الله به ورسوله ، وينهاهم عما نهاهم الله عنه ورسوله ، كما يأمر الإنس وينهاهم ، وهذه حال نبينا ﷺ وحال من اتبعه واقتدى به من أمته وهم من أفضل الخلق ، فإنهم يأمرون الإنس والجن بما أمرهم الله به ورسوله وينهون الإنس والجن عما نهاهم الله عنه ورسوله ، إذ كان نبينا محمد ﷺ مبعوثاً بذلك إلى الثقلين الإنس والجن .

وقد قال الله له ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(١) وقال ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢) .

نداء عمر لسارية

وعمر رضي الله عنه لما نادى يا سارية الجبل قال إن لله جنوداً يبلغون صوتي . وجنود الله هم من الملائكة ومن صالحي الجن . فجنود الله بلغوا صوت عمر إلى سارية وهو أنهم نادوه بمثل صوت عمر ، وإلا نفس صوت عمر لا يصل نفسه في هذه المسافة البعيدة ، وهذا كالرجل يدعو آخر وهو بعيد

---

(١) يوسف ١٠٨ .

(٢) آل عمران ٣١ .

عنه فيقول يا فلان فيعان على ذلك، فيقول الواسطة بينهما يا فلان، وقد يقول لمن هو بعيد عنه يا فلان احبس الماء تعال إلينا وهو لا يسمع صوته، فيناديه الواسطة بمثل ذلك يا فلان احبس الماء أرسل الماء، إما بمثل صوت الأول إن كان لا يقبل إلا صوته، وإلا فلا يضر بأي صوت كان إذا عرف أن صاحبه قد ناداه. وهذه حكاية كان عمر مرة قد أرسل جيشاً فجاء شخص وأخبر أهل المدينة بانتصار الجيش وشاع الخبر، فقال عمر: من أين لكم هذا؟ قالوا شخص صفته كيت وكيت فأخبرنا، فقال عمر: ذاك أبو الهيثم بريد الجن وسيجيء بريد الإنسان بعد ذلك بأيام.

وقد يأمر الملك بعض الناس بأمر ويستكتمه إياه فيخرج فيرى الناس يتحدثون به، فإن الجن تسمعه وتخبر به الناس.

والذين يستخدمون الجن في المباحات يشبه استخدام سليمان، لكن أعطى ملكاً لا ينبغي لأحد بعد، وسخرت له الإنس والجن وهذا لم يحصل لغيره. والنبي ﷺ لما تفلت عليه العفريت ليقطع عليه صلاته قال فأخذته فذعته حتى سال لعابه على يدي وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد ثم ذكرت دعوة أخي سليمان (من أن تسخير الجن خاص بسيدنا سليمان في قوله تعالى ﴿هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾) فأرسلته (أي أطلقته).

فلم يستخدم الجن أصلاً، لكن دعاهم إلى الإيمان بالله وقرأ عليهم القرآن وبلغهم الرسالة وبايعهم كما فعل بالإنس.

الفرق بين نبينا وسليمان عليهما السلام

والذي أوتيه ﷺ أعظم مما أوتيه سليمان، فإنه استعمل الجن والإنس في عبادة الله وحده وسعادتهم في الدنيا والآخرة، لا لغرض يرجع إليه إلا

ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته، واختار أن يكون عبداً رسولاً على أن يكون نبياً ملكاً. فداود وسليان ويوسف أنبياء ملوك، وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد رسل عبيد، فهو أفضل كفضل السابقين المقربين على الأبرار أصحاب اليمين.

الخوارق قسمان رحمانية وشيطانية

وكثير ممن يرى هذه العجائب الخارقة يعتقد أنها من كرامات الأولياء، وكثير من أهل الكلام والعلم لم يعرفوا الفرق بين الأنبياء والصالحين في الآيات الخارقة وما لأولياء الشيطان من ذلك من السحرة والكهان والكفار من المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع والضلال من الداخلين في الإسلام جعلوا الخوارق جنساً واحداً وقالوا كلها يمكن أن تكون معجزة إذا اقترنت بدعوى النبوة والاستدلال بها والتحدي بمثلها.

وإذا ادعى النبوة من ليس بنبي من الكفار والسحرة فلا بد أن يسلبه الله ما كان معه من ذلك، وأن يهيئ له من يعارضه. ولو عارض واحد من هؤلاء النبي لأعجزه الله، فخاصة المعجزات عندهم مجرد كون المرسل إليهم لا يأتون بمثل ما أتى به النبي، كان معتاداً للناس. قالوا إن عجز الناس عن المعارضة خرق عادة فهذه هي المعجزات عندهم، وهم ضاهوا سلفهم من المعتزلة الذين قالوا المعجزات هي خرق العادة، لكن أنكروا كرامات الصالحين، وأنكروا أن يكون السحر والكهانة إلا من جنس الشعوذة والحيل، لم يعلموا أن الشياطين تعين على ذلك، وأولئك أثبتوا الكرامات ثم زعموا أن المسلمين أجمعوا على أن هذه لا تكون إلا لرجل صالح أو نبي قالوا فإذا ظهرت على يد رجل كان صالحاً بهذا الإجماع. وهؤلاء أنفسهم قد

ذكروا أنها نكون للسحرة ما هو مثلها ويناقضون في ذلك كما قد بسط في غير هذا الموضع.

فصار كثير من الناس لا يعلمون ما للسحرة والكهان وما يفعله الشياطين من العجائب، وظنوا أنها لا تكون إلا لرجل صالح، فصار من ظهرت هذه العجائب له يظن أنها كرامة فيقوى قلبه بأن طريقته هي طريقة الأولياء، وكذلك غيرهم يظن فيه ذلك، ثم يقولون الولي إذا تولى لا يُعترض عليه، فمنهم من يراه مخالفاً لما علم بالاضطرار (أي بالضرورة) من دين الرسول، مثل ترك الصلاة المفروضة وأكل الخبائث كالخمر والحشيشة والميتة وغير ذلك وفعل الفواحش والفحش والتفحش في المنطق وظلم الناس وقتل النفس بغير حق والشرك بالله، وهو مع ذلك يظن فيه أنه ولي من أولياء الله قد وهبه هذه الكرامات بلا عمل فضلاً من الله تعالى، ولا يعلمون أن هذه من أعمال الشياطين، وأن هذه من أولياء الشياطين يضل به الناس ويغويهم.

فصل

طرق يسلكها الشياطين في حضورهم على الإنسان

ودخلت الشياطين في أنواع من ذلك، فتارة يأتون الشخص في النوم يقول أحدهم أنا أبو بكر الصديق، وأنا أتوبك (أي أجملك تتوب وترجع إلي). وأصير شيخك، وأنت تتوِّب الناس ويلبسه فيصبح وعلى رأسه ما ألبسه، فلا يشك أن الصدِّيق هو الذي جاءه ولا يعلم أنه الشيطان.

وقد جرى مثل هذا لعدة من المشايخ بالعراق والجزيرة والشام، وتارة يقص شعره في النوم فيصبح فيجد شعره مقصوصاً، وتارة يقول: أنا الشيخ فلان، فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه وقص شعره.

وكثيراً ما يستغيث الرجل بشيخه الحي أو الميت فيأتونه في صورة ذلك الشيخ، وقد يخلصونه مما يكره فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه، أو أن ملكاً تصور بصورته وجاءه، ولا يعلم أن ذلك الذي تمثل إنما هو الشيطان لما أشرك بالله أضلته الشياطين. والملائكة لا تجيب مشركاً.

وتارة يأتون إلى من هو خال في البرية، وقد يكون ملكاً أو أميراً كبيراً ويكون كافراً، وقد انقطع عن أصحابه وعطش وخاف الموت، فيأتيه في صورة إنسي ويسقيه ويدعوه إلى الإسلام ويتوِّبه فيسلم على يديه ويتوِّبه ويطعمه ويدله على الطريق، ويقول من أنت فيقول أنا فلان ويكون في موضع.

كما جرى مثل هذا لي . كنت في مصر في قلعتها (أي مسجوناً) . وجرى مثل هذا إلى كبير (أي رجل كبير له مكانة مثل الأمير) . من الترك من ناحية المشرق ، وقال له ذلك الشخص أنا ابن تيمية (أي جاءه جني بشكل شخص وقال له أنا ابن تيمية) فلم يشك ذلك الأمير أني أنا هو ، وأخبر بذلك ملك ماردين ، وأرسل بذلك ملك ماردين إلى ملك مصر رسولاً وكنت في الحبس ، فاستعظموا ذلك وأنا لم أخرج من الحبس ، ولكن كان هذا (أي ذلك الشخص) جنيًّا يحبنا ، فيصنع بالترك التتر مثل ما كنت أصنع بهم لما جاءوا إلى دمشق ، كنت أدعوهم إلى الإسلام ، فإذا نطق أحدهم بالشهادتين أطعمتهم ما تيسر ، فعمل معهم مثل ما كنت أعمل ، وأراد بذلك إكرامي ليظن ذاك أني أنا الذي فعلت ذلك .

قال لي طائفة من الناس : فلم لا يجوز أن يكون ملكاً (أي من الملائكة لا من الشياطين) .

قلت : لا ، إن الملك لا يكذب ، وهذا قد قال أنا ابن تيمية ، وهو يعلم أنه كاذب في ذلك .

كيف يتمثل الجني بالصالحين والأنبياء

وكثير من الناس رأى من قال إني أنا الخضر ، وإنما كان جنيًّا .

ثم صار من الناس من يكذب بهذه الحكايات إنكاراً لموت الخضر . والذين قد عرفوا صدقها يقطعون بحياة الخضر ، وكلا الطائفتين مخطىء ، فإن الذين رأوا من قال إني أنا الخضر هم كثيرون صادقون (أي الذين رأوا شخصاً قال لهم إنه الخضر كثيرون ولكن هل ينبغي أن نصدق ذلك الشخص؟ . . لا) . والحكايات متواترات ، لكن أخطأوا في ظنهم أنه الخضر

وإنما كان جنياً ، ولهذا يجري مثل هذا لليهود والنصارى ، فكثيراً ما يأتيهم في كنائسهم من يقول إنه الخضر ، وكذلك اليهود يأتيهم في كنائسهم من يقول إنه الخضر.

وفي ذلك من الحكايات الصادقة ما يضيق عنه هذا الموضع ، يبين صدق من رأى شخصاً وظن أنه الخضر وأنه غلط في ظنه أنه الخضر ، وإنما كان جنياً ، وقد يقول أنا المسيح أو موسى أو محمد أو أبو بكر أو عمر أو الشيخ فلان ، فكل هذا قد وقع ، والنبي ﷺ قال « من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي » قال ابن عباس في صورته التي كان عليها في حياته ، وهذه رؤية المنام ، وأما في اليقظة فمن ظن أن أحداً من الموتى يجيء بنفسه للناس عياناً قبل يوم القيامة فمن جهله أتى.

ومن هنا ضلت النصارى حيث اعتقدوا أن المسيح بعد أن صلب (كما يظنون أنه) أتى إلى الحواريين وكلمهم ووصاهم ، وهذا مذكور في أناجيلهم وكلها تشهد بذلك ، وذاك الذي جاء كان شيطاناً قال أنا المسيح ، ولم يكن هو المسيح نفسه. ويجوز أن يشتبه مثل هذا على الحواريين كما اشتبه على كثير من شيوخ المسلمين ، ولكن ما أخبرهم المسيح قبل أن يرفع بتبليغه فهو الحق الذي يجب عليهم تبليغه ، ولم يرفع حتى بلغ رسالات ربه ، فلا حاجة إلى مجيئه بعد أن رفع إلى السماء.

وأصحاب الحلاج لما قتل كان يأتيهم من يقول أنا الحلاج فيرونه في صورته عياناً ، وكذلك شيخ بمصر يقال له الدسوقي بعد أن مات كان يأتي أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة ، وأراني صادق (أي : رجل صادق) من أصحابه الكتاب الذي أرسله ، فرأيته بخط الجن ، وقد رأيت خط الجن غير مرة ، وفيه كلام من كلام الجن.

وذاك المعتَقِد يعتقد أن الشيخ حيّ، وكان يقول انتقل ثم مات. وكذلك شيخ آخر كان بالمشرق وكان له خوارق من الجن (أي أنه يفعل اشياء خارقة فوق طاقة البشر وذلك بمعونة الجن). وقيل كان بعد هذا يأتي خواص أصحابه في صورته فيعتقدون أنه هو.

وهكذا الذين كانوا يعتقدون بقاء عليّ أو بقاء محمد بن الحنفية، قد كان يأتي إلى بعض أصحابهم جنيّ في صورته. وكذا منتَظَر الرافضة قد يراه أحدهم أحياناً ويكون المرئي جنيًّا.

فهذا باب واسع واقع كثيراً. وكلما كان القوم أجهل كان عندهم أكثر، ففي المشركين أكثر مما في النصارى، وهو في النصارى كما هو في الداخلين في الإسلام.

ظهور الجني على هذا النحو قد يكون من ورائه منفعة

وهذه الأمور يسلم (أي: يدخل في الإسلام) بسببها ناس، ويتوب بسببها ناس يكونون أضل من أصحابها، فينتقلون بسببها إلى ما هو خير مما كان عليه. كالشيخ الذي فيه كذب وفجور من الإنس، قد يأتيه قوم كفار فيدعوهم إلى الإسلام فيسلمون، ويصيرون خيراً مما كانوا، وإن كان قَصْد ذلك الرجل فاسداً. وقد قال النبي ﷺ «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم».

وهذا كان كالحجج والأدلة التي يذكرها كثير من أهل الكلام والرأي، فإنه ينقطع بها كثير من أهل الباطل، ويقوى بها قلوب كثير من أهل الحق، وإن كانت في نفسها باطلة فغيرها أبطل منها. والخير والشر درجات، فينتفع بها أقوام ينتقلون مما كانوا عليه إلى ما هو خير منه.

وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار ، فأسلم على يديه خلق كثير وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين ، وهو خير من أن يكونوا كفاراً .

وكذلك بعض الملوك قد يغزو غزواً يظلم فيه المسلمين والكفار ، ويكون آثماً بذلك . ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفاراً فصاروا مسلمين . وذاك (أي الغزو) كان شراً بالنسبة إلى القائم بالواجب ، وأما بالنسبة إلى الكفار فهو خير .

وكذلك كثير من الأحاديث الضعيفة في الترغيب والترهيب والفضائل والأحكام والقصص قد يسمعها أقوام فينتقلون بها إلى خير مما كانوا عليه وإن كانت كذباً . وهذا كالرجل يسلم رغبة في الدنيا ورهبة من السيف ، ثم إذا أسلم وطال مكثه بين المسلمين دخل الإيمان في قلبه ، فنفس ذل الكفر الذي كان عليه وانقهاره ودخوله في حكم المسلمين خير من أن يبقى كافراً ، فانتقل إلى خير مما كان عليه وخف الشر الذي كان فيه ، ثم إذا أراد الله هدايته أدخل الإيمان في قلبه .

فصل

دعوة النبي عليه الصلاة والسلام وظهور الفرق الإسلامية

والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها . والنبي ﷺ دعا الخلق بغاية الإمكان ونقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب الإمكان ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1] وأكثر المتكلمين (أي علماء الكلام وهو العلم الذي أوجده المسلمون يبحث في الجانب الإلهي من حيث ذات الله وصفاته وأفعاله) يردون باطلاً بباطل ، وبدعة ببدعة ، لكن قد يردون باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين ، فيصير الكافر مسلماً مبتدعاً . وأخص من هؤلاء من يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة بدعة أخف منها وهي بدعة أهل السنة وقد ذكرنا فيما تقدم أصناف البدع .

بعض أفكار المعتزلة

ولا ريب أن المعتزلة خير من الرافضة ومن الخوارج ، فإن المعتزلة تُقرّ بخلافة الخلفاء الأربعة ، وكلهم يتولون أبا بكر وعمر عثمان ، وكذلك المعروف عنهم أنهم يتولون علياً ومنهم من يفضله على أبي بكر وعمر ، ولكن حكي

---

(١) الأحقاف ١٩ .

عن بعض متقدميهم أنه قال : فسّق يوم الجمل إحدى الطائفتين (يقصد جماعة سيدنا علي وجماعة الزبير حيث دار القتال بينهما في معركة الجمل) ولا أعلم عينها ، وقالوا إنه قال : لو شهد علي والزبير لم أقبل شهادتهما لفسق أحدهما لا لعينه ، ولو شهد علي مع آخر ففي قبول شهادته قولان ، وهذا القول شاذ فيهم ؛ والذي عليه عامتهم تعظيم علي .

ومن المشهور عندهم (أي عند المعتزلة) ذم معاوية وأبي موسى وعمرو بن العاص لأجل علي ؛ ومنهم من يكفر هؤلاء ويفسقهم بخلاف طلحة والزبير وعائشة (هؤلاء الثلاثة قادوا معركة الجمل ضد علي) ؛ فإنهم يقولون إن هؤلاء تابوا من قتاله (أي من قتال سيدنا علي) ، وكلهم يتولى عثمان ويعظمون أبا بكر وعمر ويعظمون الذنوب (أي يجدونها عظيمة فلا يرتكبونها) ، فهم يتحرون الصدق كالخوارج ؛ لا يختلقون الكذب كالرافضة ، ولا يرون أيضاً اتخاذ دار غير دار الإسلام كالخوارج ؛ ولهم كتب في تفسير القرآن ونصر الرسول ؛ ولهم محاسن كثيرة يترجحون على الخوارج والروافض .

أصول المعتزلة الخمسة

وهم قصدهم إثبات توحيد الله ورحمته وحكمته وصدقه وطاعته ؛ وأصولهم الخمسة عن هذه الصفات الخمس ، لكنهم غلطوا في بعض ما قالوه في كل واحد من أصولهم الخمسة ؛ فجعلوا من التوحيد نفي الصفات ، وإنكار الرؤية (أي أنهم أنكروا رؤية الله يوم القيامة) ، والقول بأن القرآن مخلوق ، فوافقوا في ذلك الجهمية ، وجعلوا من العدل أنه (أي الله) لا يشاء ما يكون ويكون ما لا يشاء ، وأنه لم يخلق أفعال العباد ، فنفوا قدرته ومشيئته وخلقه لإثبات العدل ، وجعلوا من الرحمة نفي أمور خلقها لم يعرفوا ما فيها

من الحكمة ؛ وكذلك هم والخوارج قالوا بإنفاذ الوعيد ليثبتوا أن الرب صادق لا يكذب إذ كان عندهم قد أخبر بالوعيد العام ، فمن لم يقل بذلك لزم كذبه ، وغلطوا في فهم الوعيد.

وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالسيف ؛ قصدوا به طاعة الله ورسوله كما يقصده الخوارج والزيدية فغلطوا في ذلك ، وكذلك إنكارهم للخوارق غير المعجزات قصدوا به إثبات النبوة ونصرها وغلطوا فيما سلكوه ، فإن النصر لا يكون بتكذيب الحق ، وذلك لكونهم لم يحققوا خاصة آيات الأنبياء.

موقف الأشعرية

والأشعرية ما ردوه من بدع المعتزلة والرافضة والجهمية وغيرهم ، وبينوا ما بينوه من تناقضهم وعظموا الحديث والسنة ومذهب الجماعة ، فحصل بما قالوه من بيان تناقض أصحاب البدع الكبار وردهم (أي وردهم لبدعهم) ما انتفع به خلق كثير.

موقف الأشعري عن المعتزلة

فإن الأشعري كان من المعتزلة وبقي على مذهبهم أربعين سنة يقرأ على أبي علي الجبائي ، فلما انتقل عن مذهبهم كان خبيراً بأصولهم وبالرد عليهم وبيان تناقضهم ، وأما ما بقي عليه من السنة فليس هو من خصائص المعتزلة بل هو من القدر المشترك بينهم وبين الجهمية. وأما خصائص المعتزلة فلم يوالهم الأشعري في شيء منها بل ناقضهم في جميع أصولهم ومال في مسائل العدل والأسماء والأحكام إلى مذهب جهم ونحوه.

وكثير من الطوائف كالبخارية أتباع حسين النجار ، والضرارية أتباع ضرار بن عمرو يخالفون المعتزلة في القدر والأسماء والأحكام وإنفاذ الوعيد .

والمعتزلة من أبعد الناس عن طريق أهل الكشف والخوارق ، والصوفية يذمونها ويعيبونها .

موقف المعتزلة من اليهود والنصارى

وكذلك يبالغون في ذم النصارى أكثر مما يبالغون في ذم اليهود ، وهم إلى اليهود أقرب ، كما أن الصوفية ونحوهم إلى النصارى أقرب ، فإن النصارى عندهم عبادة وزهد وأخلاق بلا معرفة ولا بصيرة ، فهم ضالون ، واليهود عندهم علم ونظر بلا قصد صالح ولا عبادة ولا زهد ولا أخلاق كريمة ، فهم مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون .

قال أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم : ولا أعلم في هذا الحرف اختلافاً بين المفسرين . وروي بإسناد عن أبي روق من ابن عباس وغير طريق ، الضالين وهم النصارى الذين أضلهم الله بفريتهم عليه (أي بقولهم المسيح ابن الله) يقول فألهمنا دينك الحق وهو لا إله إلا الله وحده لا شريك له حتى لا تغضب علينا كما غضبت على اليهود ، ولا تضلنا كما أضللت النصارى فتعذبنا كما تعذبهم ، يقول امنعنا من ذلك برفقك ورحمتك ورأفتك وقدرتك . قال ابن أبي حاتم : ولا أعلم في هذا الحرف (أي في هذه الكلمات من أواخر سورة الفاتحة « غير المغضوب عليهم ولا الضالين ») اختلافاً بين المفسرين ، وقد قال سفيان بن عيينة : كانوا يقولون : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى .

الفرق بين أهل الكلام وأهل التصوف

فأهل الكلام أصل أمرهم هو النظر في العلم ودليله ، فيعظمون العلم وطريقه وهو الدليل ؛ والسلوك في طريقه وهو النظر (أي أن العلم له طريق هو الدليل والسلوك فيه هو النظر) .

الفرق

وأهل الزهد يعظمون الإرادة والمريد وطريق أهل الإرادة ، فهؤلاء يبنون أمرهم على الإرادة وأولئك يبنون أمرهم على النظر ، وهذه هي القوة العلمية ، ولا بد لأهل الصراط المستقيم من هذا وهذا ، ولا بد أن يكون هذا وهذا موافقاً لما جاء به الرسول .

فالإيمان قول وعمل وموافقة السنة ، وأولئك عظموا النظر وأعرضوا عن الإرادة وعظموا جنس النظر ولم يلتزموا النظر الشرعي فغلطوا من جهة كون جانب الإرادة لم يعظموه ، وإن كانوا يوجبون الأعمال الظاهرة فهم لا يعرفون أعمال القلوب وحقائقها ، ومن جهة أن النظر لم يميزوا فيه بين النظر الشرعي الحق الذي أمر به الشارع وأخبر به وبين النظر البدعي الباطل المنهي عنه .

وكذلك الصوفية عظموا جنس الإرادة ، إرادة القلب ، وذموا الهوى وبالغوا في الباب ، ولم يميز كثير منهم بين الإرادة الشرعية الموافقة لأمر الله ورسوله وبين الإرادة البدعية ، بل أقبلوا على طريق الإرادة طريقة النظر .

وأعرض كثير منهم فدخل عليهم الداخل من هاتين الجهتين ، ولهذا صار

هؤلاء (أي أهل التصوف) يميل إليهم النصارى ويميلون إليهم، وأولئك (أي أهل الكلام) يميل إليهم اليهود ويميلون إليهم، وبين اليهود والنصارى غاية التنافر والتباغض، وكذلك بين أهل الكلام والرأي، وبين أهل التصوف والزهد تنافر وتباغض، وهذا وهذا من الخروج عن الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

نسأل الله العظيم أن يهدينا وسائر إخواننا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. آمين.

فصل
مناقشة آيات تشتمل على التوراة والإنجيل

فإن قيل : فإذا كان في كتب الأناجيل التي عندهم أن المسيح صلب ، وأنه بعد الصلب بأيام أتى إليهم وقال لهم أنا المسيح ، ولا يقولون إن الشيطان تمثل في صورته ، فالشيطان ليس هو لحم وعظم ، وهذه أثر المسامير أو نحو هذا الكلام ، فأين الإنجيل الذي قال الله عز وجل فيه ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ ﴾[1] وقال قبل هذا ﴿وَقَفَّيْنا على آثارِهِمْ بِعِيسَى بن مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَآتَيْناهُ ٱلْإِنْجيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوراةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ★ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ ٱلْفاسِقُونَ ﴾[2].

وقد قال قبل هذا ﴿ وكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ ٱلتَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَما أُولئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ★ إِنَّا أَنْزَلْنا التَّوْراةَ فِيها هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِها النَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا وَٱلرَّبّانِيُّونَ وَٱلْأَحْبارُ بِما ٱسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللهِ وكانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ ﴾[3].

---

(١) المائدة ٤٧ .

(٢) المائدة ٤٦ ، ٤٧ .

(٣) المائدة ٤٣ ، ٤٤ .

وقال أيضاً ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾[1] .

وقال أيضاً : ﴿ قُلْ يا أَهْلَ ٱلْكِتابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً فَلَا تَأْسَ على ٱلْقَوْمِ ٱلْكافِرِينَ ﴾[2] .

وهذا أمر للنبي ﷺ بأن يقول لأهل الكتاب الذين بعث إليهم وهم من كان في وقتهم ومن يأتي من بعدهم إلى يوم القيامة ، لم يؤمر (أي النبي) أن يقول ذلك لمن قد تاب منهم ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللهِ ﴾[3] إخبار عن اليهود الموجودين (أي في زمن النبي) وأن عندهم التوراة فيها حكم الله .

وكذلك قوله : ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنْجِيلِ بما أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ ﴾[3] هو أمر من الله على لسان محمد لأهل الانجيل ومن لا يؤمر على لسان محمد ﷺ .

قيل (هذه جواب لقوله في أول الفصل فإن: قيل) قبل هذا إنه قد قيل ليس في العالم نسخة بنفس ما أنزل الله في التوراة والإنجيل، بل ذلك مبدل، فإن التوراة انقطع تواترها الأناجيل إنما أخذت عن أربعة .

أقوال العلماء في التوراة والإنجيل

ثم من هؤلاء من زعم أن كثيراً مما في التوراة والإنجيل باطل ليس من كلام الله ، ومنهم من قال بل ذلك قليل ، وقيل لم يحرف أحد شيئاً من حروف

---

(١) المائدة ٦٦ .

(٢) المائدة ٦٨ .

(٣) المائدة ٤٧ .

الكتب إنما حرفوا معانيها بالتأويل. وهذان القولان قال كلا منهما كثير من المسلمين، والصحيح القول الثالث، وهو أن في الأرض نسخاً صحيحة وبقيت إلى عهد النبي ﷺ ونسخاً كثيرة محرفة ومن قال إنه لم يحرف شيء من النسخ فقد قال ما لا يمكنه نفيه. ومن قال جميع النسخ بعد النبي ﷺ حرفت فقد قال ما يعلم أنه خطأ والقرآن يأمرهم أن يحكموا بما أنزل الله في التوراة والإنجيل، ويخبر أن فيهما حكمه. وليس في القرآن خبر أنهم غيروا جميع النسخ.

الفرق بين ما هو من التوراة والإنجيل ما زيد عليهما

وإذا كان كذلك فنقول: هو سبحانه قال ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ﴾[1] وما أنزله الله هو ما تلقوه عن المسيح، فأما حكايته لحاله بعد أن رفع فهو مثلها في التوراة ذكر وفاة موسى عليه السلام. ومعلوم أن هذا الذي في التوراة والإنجيل من الخبر عن موسى وعيسى بعد توفيهما ليس هو مما أنزله الله ومما تلقوه عن موسى وعيسى، بل هو مما كتبوه مع ذلك للتعريف بحال توفيهما. وهذا خبر محض من الموجودين بعدهما عن حالهما، وليس هو مما أنزله الله عليهما ولا هو مما أمرا به في حياتهما ولا مما أخبرا به الناس.

وكذلك ﴿لَسْتُمْ على شَيْءٍ حتى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[2] وقوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾[3] فإن إقامة الكتاب

(١) المائدة ٤٧.
(٢) المائدة ٦٨.
(٣) المائدة ٦٦.

تعني العمل بما أمر الله به في الكتاب من التصديق بما أخبر به على لسان الرسول. وما كتبه الذين نسخوه من بعد وفاة الرسول ومقدار عمره ونحو ذلك ليس هو مما أنزله الله على الرسول ولا مما أمر به، ولا أخبر به. وقد يقع مثل هذا في الكتب المصنفة، يصنف الشخص كتاباً فيذكر ناسخه في آخره عمر المصنف ونسبه وسنه ونحو ذلك مما ليس هو من كلام المصنف.

ولهذا أُمر الصحابة والعلماء بتجريد القرآن، وأن لا يكتب في المصحف غير القرآن. فلا يكتب أسماء السور ولا التخميس والتعشير ولا آمين ولا غير ذلك، والمصاحف القديمة التي كتبها أهل العلم على هذه الصفة. وفي المصاحف من قد كتب ناسخها أسماء السور والتخميس والتعشير والوقف والابتداء، وكتب في آخر المصحف تصديقه ودعا وكتب اسمه ونحو ذلك، وليس هذا من القرآن.

فهكذا ما في الإنجيل من الخبر عن صلب المسيح وتوفيه ومجيئه بعد رفعه إلى الحواريين ليس هو مما قاله المسيح، وإنما هو مما رآه من بعده. والذي أنزله الله هو ما سُمع من المسيح المبلغ عن الله.

فإن قيل: فإذا كان الحواريون قد اعتقدوا أن المسيح صلب وأنه أتاهم بعد أيام، وهم الذين نقلوا عن المسيح الإنجيل والدين، فقد دخلت الشبهة.

قيل: الحواريون وكل من نقل عن الأنبياء إنما يجب أن يقبل منهم ما نقلوه عن الأنبياء، فإن الحجة في كلام الأنبياء، وما سوى ذلك فموقوف على الحجة إن كان حقاً قُبل وإلا رُدّ، ولهذا كان ما نقله الصحابة عن النبي ﷺ من القرآن والحديث يجب قبوله، لا سيما المتواتر كالقرآن وكثير من السنن، وأما ما قالوه (أي: ما قاله الصحابة مما ليس قرآناً وسنة): فما أجمعوا عليه فإجماعهم معصوم، وما تنازعوا فيه رد إلى الله والرسول. وعمر

قد كان أولاً أنكر موت النبي ﷺ حتى رد ذلك عليه أبو بكر، وقد تنازعوا في دفنه حتى فصل أبو بكر بالحديث الذي رواه. وتنازعوا في تجهيز جيش أسامة. وتنازعوا في قتال مانعي الزكاة. فلم يكن هذا قادحاً فيما نقلوه عن النبي ﷺ.

اختلاف النصارى حول صلب المسيح

والنصارى ليسوا متفقين على صلب المسيح، ولم يشهد أحد منهم صلبه فإن الذي صُلب إنما صلبه اليهود، ولم يكن أحد من أصحاب المسيح حاضراً وأولئك اليهود الذين صلبوه قد اشتبه عليهم المصلوب بالمسيح. وقد قيل إنهم عرفوا أنه ليس هو المسيح ولكنهم كذبوا وشبهوا على الناس. والأول (أي الرأي الأول) هو المشهور وعليه جمهور الناس.

وحينئذ فليس عند النصارى خبر عمن يصدقونه بأنه صلب، لكن عمدتهم على ذلك الشخص الذي جاء بعد أيام وقال أنا المسيح وذاك شيطان، وهم يعترفون بأن الشياطين كثيراً ما تجيء ويدعي أحدهم أنه نبي أو صالح، ويقول أنا فلان النبي أو الصالح ويكون شيطاناً، وفي ذلك حكايات متعددة، مثل حكاية الراهب الذي جاءه جاءٍ (أي: أتاه آتٍ) وقال أنا المسيح جئت لأهديك، فعرف أنه الشيطان، فقال أنت قد بلغت الرسالة ونحن نعمل بها فإن جئت اليوم بشيء يخالف ذلك لم نقبله منك.

فليس عند النصارى واليهود علم بأن المسيح صلب كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾[1] وأضاف (أي نسب) الخبر عن قتله إلى اليهود (أي أن اليهود هم

---

(١) النساء ١٥٧.

الذين قالوا إنهم قتلوا المسيح) بقوله ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ﴾[1] فإنهم بهذا الكلام يستحقون العقوبة إذ كانوا يعتقدون جواز قتل المسيح، ومن جوز قتله فهو كمن قتله، فهم في هذا القول كاذبون وهم آثمون، وإذا قالوه فخراً لم يحصل لهم الفخر لأنهم لم يقتلوه، وحصل الوزر لاستحلالهم ذلك وسعيهم فيه. وقد قال النبي ﷺ «إذا التقى مسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قالوا يا رسول الله فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».

وقوله ﴿وإِنَّ الَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾[2] قيل هم اليهود وقيل النصارى، والآية تعم الطائفتين. وقوله ﴿لَفِي شَكٍّ مِنه﴾ قيل: من قتله، وقيل منه، أي في شك منه هل صلب أم لا (أي وفي حال ثبوت الصلب اختلفوا في المصلوب هل هو المسيح أم غيره؟)، كما اختلفوا فيه، فقالت اليهود هو ساحر، وقالت النصارى إنه إله. فاليهود والنصارى اختلفوا هل صلب أم لا وهم في شك من ذلك ما لهم به من علم. فإذا كان هذا في الصلب فكيف في الذي جاء بعد الرفع وقال إنه هو المسيح.

فإن قيل: كان الحواريون الذين أدركوه قد حصل هذا في إيمانهم فأين المؤمنون به الذين قال فيهم ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[3] وقوله ﴿فَأَيَّدْنا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[2]؟

ظن بعض النصارى بأن المسيح صلب لا يخرجه عن الإيمان

قيل: ظن من ظن منهم أنه صلب لا يقدح في إيمانه إذا كان لم يحرف ما

---

(١) النساء ١٥٧.
(٢) آل عمران ٥٥.
(٣) الصف ١٤.

جاء به المسيح ، بل هو مقر بأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فاعتقاده بعد هذا أنه صلب لا يقدح في إيمانه ، فإن هذا اعتقاد موته على وجه معين ، وغاية الصلب أن يكون قتلاً له ، وقتل النبي لا يقدح في نبوته . وقد قتل بنو إسرائيل كثيراً من الأنبياء . وقال تعالى ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾[1] الآية . وقال تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[2] .

وكذلك اعتقاد من اعتقد منهم أنه جاء بعد الرفع وكلمهم ، هو مثل اعتقاد كثير من مشايخ المسلمين أن النبي ﷺ جاءهم في اليقظة ، فإنهم لا يكفرون بذلك ، بل هذا كان يعتقده من هو من أكثر الناس رجوعاً للسنة واتباعاً لها ، وكان في الزهد والعبادة أعظم من غيره ، وكان يأتيه من يظن أنه رسول الله ، فهذا غلط منه لا يوجب كفره . فكذلك ظن من ظن من الحواريين أن ذلك هو المسيح لا يوجب خروجهم عن الإيمان بالمسيح ، ولا يقدح فيما نقلوه عنه ، وعمر لما كان يعتقد أن النبي ﷺ لم يمت ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ، وأنه لا يموت حتى يموت أصحابه ، لم يكن هذا قادحاً في إيمانه ، وإنما كان غلطاً ورجع عنه .

---

(١) آل عمران ١٤٦ .

(٢) آل عمران ١٤٤ .

فصل

التماس الحق عن طريق العلم لا الظن

وقوله تعالى في هذه ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾(١) هو ذم لهم على اتباع الظن بلا علم: وكذلك قوله ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾(٢) وكذلك قوله ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾(٣) وقوله تعالى ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾(٤) وقوله ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ★ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(٥).

فهذه عدة مواضع يذم الله فيها الذين لا يتبعون إلا الظن. وكذلك قوله ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا

---

(١) النساء ١٥٧.

(٢) النجم ٢٣.

(٣) النجم ٢٨.

(٤) يونس ٦٦.

(٥) يونس ٣٥، ٣٦.

تَخْرُصُونَ ★ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ﴾[1] مطالبة بالعلم وذم لمن يتبع الظن وما عنده علم (أي: وما عنده يقين). وكذلك قوله ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[2] وقوله ﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[3] وأمثال ذلك ذم لمن عمل بغير علم وعمل بالظن.

وقد ثبت في السنة المتواترة وإجماع الأمة أن الحاكم يحكم بشاهدين وإن لم يكن شهود حلف الخصم (وأصل ذلك مأخوذ من «البيِّنة على المدعي واليمين على من أنكر»).

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال «إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضي بنحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار» (قوله «فلا يأخذه أي وإن قضى به النبي أو القضاء فيما بعد وذلك لعلمه بأن هذا ليس من حقه).

والاجتهاد في تحقيق المناط مما اتفق المسلمون عليه لا بد منه، كحكم ذَوَيْ عدل بالمثل في جزاء الصيد، وكالاستدلال على الكعبة عند الاشتباه ونحو ذلك فلا يقطع (أي: لا يجزم) به الإنسان، بل يجوز أن تكون القبلة في غير جهة اجتهاده، كما يجوز إذا حكم أن يكون قد قضى لأحدهما بشيء من حق الآخر.

---

(١) الأنعام ١٤٨، ١٤٩.
(٢) الأنعام ١٤٣.
(٣) الأنعام ١١٩.

أدلة الأحكام الثلاثة

وأدلة الأحكام لا بد فيها من هذا ، فإن دلالة العموم في الظواهر قد تكون محتملة للنقيض ، وكذلك خبر الواحد والقياس وإن كان قوم نازعوا في القياس فالفقهاء منهم لم ينازعوا في خبر الواحد كالظاهرية ، ومن نازع في هذا وهذا لم ينازع في العموم كالمعتزلة البغداديين ، وإن نازع في العموم والقياس منازع كبعض الرافضة مثل الموسوي ونحوه لم ينازع في الأخبار (أي : عن الواحد) ، فإن الإمامية عمدتهم على ما نقل عن الإثنى عشر فلا بد لهم من الرواية ، ولا يوجد من يستغني عن الظواهر والأخبار والأقيسة ، بل لا بد أن يعمل ببعض ذلك مع تجويز نقيضه ، وهذا عمل بالظن ، والقرآن قد حرم اتباع الظن .

وقد تنوعت طرق الناس في جواز هذا (أي اتباع الظن) ، فطائفة قالت لا يتبع قط إلا العلم ولا يعمل بالظن أصلاً ، وقالوا إن خبر الواحد يفيد العلم . وكذلك يقولون في الظواهر ، بل يقولون نقطع بخطأ من خالفنا وننقض حكمه كما يقوله داود (أي داود الظاهري) وأصحابه ، وهؤلاء عمدتهم إنما هو ما يظنونه ظاهراً وإما الاستصحاب ، والاستصحاب في كثير من المواضع من أضعف الأدلة ، وهم في كثير مما يحتجون به قد لا يكون ما احتجوا به ظاهر اللفظ بل الظاهر خلافه .

متى يكون الظن طريقاً للعلم

فطائفة قالت لما قام الدليل على وجوب العمل بالظن الراجح كنا متبعين للعلم ، فنحن نعمل بالعلم عند وجود العلم ولا نعمل بالظن ، وهذه طريقة القاضي أبي بكر وأتباعه .

الفقه يكون بطريق الظن

وهنا السؤال المشهور في الفقه أنه العلم بالأحكام الشرعية العملية.

وقال الرازي: العلم بالأحكام الشرعية العملية المستدل على أعيانها بحيث لا يعلم كونها من الدين ضرورة. قال:

فإن قلت: الفقه من باب الظنون فكيف جعلته علماً؟

قلت: المجتهد إذا غلب على ظنه مشاركة صورة لصورة في مناط الحكم قطع بوجوب العمل بما أدى إليه ظنه، فالعلم حاصل قطعاً، والظن واقع في طريقه، وحقيقة هذا الجواب أن هنا مقدمتين، إحداهما أنه قد حصل عندي ظن، والثانية قد قام الدليل القطعي على وجوب اتباع هذا الظن. فالمقدمة الأولى وجدانية، والثانية عملية استدلالية، فليس الظن هنا مقدمة في الدليل كما توهمه بعضهم، لكن يقال: العمل بهذا الظن هو حكم أصول الفقه ليس هو الفقه، بل الفقه هو ذاك الظن الحاصل بالظاهر وخبر الواحد والقياس والأصول يفيد أن العمل بهذا الظن واجب، وإلا فالفقهاء لا يتعرضون لهذا، فهذا الحكم العملي الأصولي ليس هو الفقه. وهذا الجواب جواب القاضي أبي بكر وهو بناه على أصله فإنه عنده كل مجتهد مصيب وليس في نفس الأمر أمر مطلوب ولا على الظن دليل يوجب ترجيح ظن على ظن، بل الظنون عنده بحسب الاتفاق.

انتصار الغزالي لمن أخذ بالظن

وقال الغزالي وغيره ممن نصر قوله: قد يكون بحسب ميل النفس إلى أحد القولين دون الآخر كمثل ذي الشدة الى قول (أي: يميل إلى قول) وذي اللين إلى قول، وحينئذ فعندهم متى وجد المجتهد ظناً في نفسه فحكم الله في حقه اتباع هذا الظن.

وقد أنكر أبو المعالي وغيره عليه هذا القول إنكاراً بليغاً، وهم معذورون في إنكاره، فإن هذا أولاً مكابرة، فإن الظنون عليها أمارات ودلائل يوجب وجودها ترجيح ظن على ظن، وهذا أمر معلوم بالضرورة، والشريعة جاءت به ورجحت شيئاً على شيء.

والكلام في شيئين، في اتباع الظن، وفي الفقه، هل هو من الظنون؟

ميل المؤلف إلى رأي أبي المعالي

أما الأول (أي: اتباع الظن) فالجواب الصحيح هو الجواب الثالث، وهو أن كل ما أمر الله تعالى به فإنما أمر بالعلم، وذلك أنه في المسائل الخفية عليه أن ينظر في الأدلة ويعمل بالراجح، وكون هذا هو الراجح أمر معلوم عند أمر مقطوع به، وإن قدر أن ترجيح هذا على هذا فيه شك عنده لم يعمل به، وإذا ظن الرجحان فإنما ظنه لقيام دليل عنده على أن هذا راجح. وفرق بين اعتقاد الرجحان ورجحان الاعتقاد.

وأما اعتقاد الرجحان فقد يكون علماً وقد لا يعمل حتى يعلم الرجحان، وإذا ظن الرجحان أيضاً فلا بد أن يظنه بدليل يكون عنده أرجح من دليل الجانب الآخر. ورجحان هذا غير معلوم، فلأن ينتهي الأمر إلى رجحان معلوم عنده فيكون متبعاً لما علم أنه أرجح، وهذا اتباع للعلم لا للظن، وهو اتباع الأحسن كما قال ﴿فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها﴾(١) وقال ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾(٢) وقال ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾(٣) فإذا كان أحد الدليلين

---

(١) الأعراف ١٤٥.

(٢) الزمر ١٨.

(٣) الزمر ٥٥.

هو الأرجح فاتباعه هو الأحسن ، وهذا معلوم .

فالواجب على المجتهد أن يعمل بما يعلم أنه أرجح من غيره وهو العمل بأرجح الدليلين المتعارضين ، وحينئذ فما عمل إلا بالعلم . وهذا جواب الحسن البصري وأبي (المعالي) وغيرهم .

والقرآن ذم من لا يتبع إلا الظن فلم يستند ظنه إلى علم ، فإن هذا أرجح من غيره كما قال ﴿وما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إنْ يَتَّبِعُونَ إلّا الظَّنَّ﴾[1] وقال ﴿قُلْ هَلْ عِنْدكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إنْ تَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنَّ﴾[2] .

وهكذا في سائر المواضع يذم الذين إن يتبعون إلا الظن ، فعندهم ظن مجرد لا علم معه وهم يتبعونه . والذي جاءت به الشريعة وعليه عقلاء الناس أنهم لا يعلمون إلا بعلم بأن هذا أرجح من هذا فيعتقدون الرجحان اعتقاداً عملياً .

المرجوح قد يكون هو الثابت

لكن لا يلزم إذا كان أرجح أن لا يكون المرجوح هو الثابت في نفس الأمر . وهذا كما ذكر النبي ﷺ حيث قال « ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضي بنحو مما أسمع » فإذا أتى أحد الخصمين بحجة مثل بينة تشهد له ولم يأت الآخر بشاهد معها كان الحاكم عالماً بأن حجة هذا أرجح فما حكم إلا بعلم ، لكن الآخر قد يكون له حجة لا يعلمها أو لا يحسن أن يبينها مثل أن يكون قد قضاه أو أبرأه وله بينة تشهد بذلك وهو لا

---

(١) النجم ٢٨ .

(٢) الأنعام ١٤٨ .

يعلمها أو لا يذكرها أو لا يجسر أن يتكلم بذلك ، فيكون هو المضيع بحقه (أي : لحقه) حيث لم يبين حجته. والحاكم لم يحكم إلا بعلم وعدل. وضياع حق هذا كان من عجزه وتفريطه لا من الحاكم.

كيف يرجح الحاكم أحد الخبرين

وهكذا أدلة الأحكام ، فإذا تعارض خبران أحدهما مسند ثابت والآخر مرسل كان المسند الثابت أقوى من المرسل ، وهذا معلوم لأن المحدث بهذا قد علم عدله وضبطه ، والآخر لم يعلم عدله ولا ضبطه كشاهدين زُكي أحدهما ولم يزك الآخر ، فهذا المزكى أرجح وإن جاز أن يكون في نفس الأمر قول الآخر هو الحق ، لكن المجتهد إنما عمل بعلم وهو علمه برجحان هذا على هذا ، ليس ممن لم يتبع إلا الظن ، ولم يكن تبين له إلا بعد الاجتهاد التام فيمن أرسل ذلك الحديث ، وفي تزكية هذا الشاهد ، فإن المرسل قد يكون راويه عدلاً حافظاً كما قد يكون هذا الشاهد عدلاً ، ونحن ليس معنا علم بانتفاء عدالة الراوي ، لكن معنا عدم العلم بعدالتهما وقد لا يعلم عدالتهما مع تقويتها ورجحانها في نفس الأمر ، فمن هنا يقع الخطأ في الاجتهاد ، لكن هذا لا سبيل إلى أن يكلفه العالم أن يدع ما يعلمه إلى أمر لا يعلمه لإمكان ثبوته في نفس الأمر.

فإذا كان لا بد من ترجيح أحد القولين وجب ترجيح هذا الذي علم ثبوته على ما لا يعلم ثبوته وإن لم يعلم انتفاؤه من جهته ، فإنهما إذا تعارضا وكانا متناقضين فإثبات أحدهما هو نفي الآخر ، فهذا الدليل المعلوم قد علم أنه يثبت هذا وينفي ذلك ، وذلك المجهول بالعكس.

الفرق بين رجحان الاعتقاد واعتقاد الرجحان

فإذا كان لا بد من الترجيح وجب قطعاً ترجيح المعلوم ثبوته على ما لم يعلم ثبوته. ولكن قد يقال إنه لا يقطع بثبوته، وقد قلنا فرق بين اعتقاد الرجحان ورجحان الاعتقاد؛ أما اعتقاد الرجحان فهو علم، والمجتهد ما عمل إلا بذلك العلم، وهو اعتقاد رجحان هذا على هذا. وأما رجحان هذا الاعتقاد على هذا الاعتقاد فهو الظن، لكن لم يكن ممن قال الله فيه ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾[1] بل هنا ظن رجحان هذا وظن رجحان ذاك، وهذا الظن هو الراجح ورجحانه معلوم، فحكم بما علمه من الظن الراجح ودليله الراجح، وهذا معلوم له لا مظنون عنده. وهذا يوجد في جميع العلوم والصناعات كالطب والتجارة وغير ذلك.

وأما الجواب عن قولهم الفقه من باب الظنون، فقد أجاب طائفة منهم أبو الخطاب بجواب آخر وهو أن العلم المراد به العلم الظاهر وإن جوز أن يكون الأمر بخلافه كقوله ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾[2].

قضية اتباع الظن في الفقه

والتحقيق أن عنه جوابين: أحدهما أن يقال: جمهور (أي: معظم) مسائل الفقه التي يحتاج إليها الناس ويفتون بها هي ثابتة بالنص أو الإجماع، وإنما يقع الظن والنزاع في قليل مما يحتاج إليه الناس، وهذا موجود في سائر العلوم. وكثير (أي: وأكثر) مسائل الخلاف هي في أمور

---

(١) النجم ٢٨.

(٢) الممتحنة ١٠.

قليلة الوقوع ومقدرة، وأما ما لا بد للناس منه من العلم بما يجب عليهم ويحرم ويباح فهو معلوم مقطوع به. وما يعلم من الدين ضرورة جزء من الفقه، وإخراجه من الفقه قول لم يعلم أحد من المتقدمين قاله ولا احترز بهذا القيد أحد إلا الرازي ونحوه. وجميع الفقهاء يذكرون في كتب الفقه وجوب الصلاة والزكاة والحج واستقبال القبلة، ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة، وتحريم الخمر والفواحش، وغير ذلك مما يعلم من الدين ضرورة.

وأيضاً فكون الشيء معلوماً من الدين ضرورة أمر إضافي (أي: نسبي). فحديث العهد بالإسلام ومن نشأ ببادية بعيدة قد لا يعلم هذا بالكلية فضلاً عن كونه يعلمه بالضرورة. وكثير من العلماء يعلم بالضرورة أن النبي ﷺ سجد للسهو، وقضى بالدية على العاقلة، وقضى أن الولد للفراش، (أي: في حال ثبوت الزنا من المتزوجة فإن الولد الذي يحصل يُنسب إلى الزوج لا إلى الزاني)، وغير ذلك مما يعلمه الخاصة بالضرورة، وأكثر الناس لا يعلمه البتة.

الجواب الثاني أن يقال: الفقه لا يكون فقهاً إلا من المجتهد المستدل، وهو قد علم أن هذا الدليل أرجح، وهذا الظن أرجح، فالفقه هو علمه برجحان هذا الدليل وهذا الظن، وليس الفقه قطعه (أي: جزمه) بوجوب العمل، أي بما أدى إليه اجتهاده، بل هذا القطع من أصول الفقه. والأصولي يتكلم في جنس الأدلة ويتكلم كلاماً كلياً، فيقول: يجب إذا تعارض دليلان أن يحكم بأرجحهما. ويقول أيضاً: إذا تعارض العام والخاص فالخاص أرجح، وإذا تعارض المسند والمرسل فالمسند أرجح. ويقول أيضاً العام المجرد عن قرائن التخصيص، شموله الأفراد أرجح من عدم شموله ويجب العمل بذلك.

كيفية نظر الفقيه في الدليل

فأما الفقيه فيتكلم في دليل معين في حكم معين، مثل أن يقول: قوله: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾(١) خاص في أهل الكتاب ومتأخر عن قوله ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾(٢) وتلك الآية لا تتناول أهل الكتاب وإن تناولتهم فهذا خاص متأخر فيكون ناسخاً ومخصصاً فهو يعلم أن دلالة هذا النص على الحل أرجح من دلالة ذلك النص على التحريم، وهذا الرجحان معلوم عنده قطعاً. وهذا الفقه الذي يختص به الفقيه وهو علم قطعي لا ظني. ومن لم يعلم كان مقلداً للأئمة الأربعة والجمهور (الجمهور: معطوف على الأئمة الأربعة) الذين جوزوا نكاح الكتابيات واعتقاد المقلد ليس بفقه، ولهذا قال (أي الرازي: حيث سبقت الإشارة إليه في هذا الفصل) المستدل على أعيانها والفقيه قد استدل على عين الحكم المطلوب والمسؤول عنه، وحيث لا يعلم الرجحان فهو متوقف لا قول له، وإذا قيل له فقد قال ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾(٣) قال هذا نزل عام الحديبية والمراد به المشركات، فإن سبب النزول يدل على أنهن مرادات قطعاً، وسورة المائدة بعد ذلك فهي خاص متأخر وذاك عام مقدم، والخاص المتأخر أرجح من العام المتقدم، ولهذا لما نزل قوله ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾(٣) فارق عمر امرأة مشركة، وكذلك غيره، فدل على أنهم كانوا ينكحون المشركات إلى حين نزول هذه الآية. ولو كانت آية البقرة قد

---

(١) المائدة ٥.

(٢) البقرة ٢٢١.

(٣) الممتحنة ١٠.

(٣) الممتحنة ١٠.

نزلت قبل هذه لم يكن كذلك ، فدل على أن آية البقرة بعد آية الممتحنة ، وآية المائدة بعد آية البقرة .

فهذا النظر وأمثاله هو نظر الفقيه العالم برجحان دليل وظن (أي : برجحان دليل على دليل وظن على ظن) . وظن على دليل وهذا علم لا ظن .

فقد تبين أن الظن له أدلة تقتضيه ، وأن العالم إنما يعمل بما يوجب العلم بالرجحان لا بنفس الظن إلا إذا علم رجحانه ، وأما الظن الذي لا يعلم رجحانه فلا يجوز اتباعه ، وذلك هو الذي ذم الله به من قال فيه ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾(١) فهم لا يتبعون إلا الظن ليس عندهم علم ، ولو كانوا عالمين بأنه ظن راجح لكانوا قد اتبعوا علماً ولم يكونوا ممن لا يتبع إلا الظن والله أعلم .

---

(١) النجم ٢٨ .

فصل

حال المجتهدين لا تخلو من أحد ثلاثه

فههنا ثلاثة أشياء : أحدها : الظن الراجح في نفس المستدل المجتهد.

والثاني : الأدلة التي يسميها بعض المتكلمين أمارات التي تعارضت وعلم المستدل بأن التي أوجبت ذلك الظن أقوى من غيرها.

الثالث : أنه قد يكون في نفس الأمر دليل آخر على القول الآخر لم يعلم به المستدل ، وهذا هو الواقع في عامة موارد الاجتهاد ، فإن الرجل قد يسمع نصًّا عاماً كما سمع ابن عمر وغيره أن النبي ﷺ نهى عن قطع الخفين ، وأنه أمر أن لا يخرج أحد حتى يودّع البيت ، (أي : الكعبة لأن الكلام موجه إلى الحاج) أو أن النبي ﷺ نهى عن لبس الحرير ، وظاهره العموم (العموم : أي يعم الرجال والنساء) ، وهذا راجح على الاستصحاب (الاستصحاب : أي كما كان في الأصل) النافي للتحريم ، فعلموا بهذا الراجح ، وهم يعلمون قطعاً أن النهي أولى من الاستصحاب ، لكن يجوز أن يكون مع الاستصحاب دليل خاص ، ولكن لما لم يعلموه لم يجز لهم أن يعدلوا عما علموه إلى ما لم يعلموه.

فكانوا يفتون بأن الحائض عليها الوداع (أي : عليها طواف الوداع في الحج) وعليها قطع الخفين ، وأن قليل الحرير وكثيره حرام ، وابن الزبير كان يحرمه على الرجال والنساء لعموم قوله « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » وكان (بمعنى وُجد) في نفس الأمر نصوص خاصة بأن النبي

ﷺ رخص للحائض أن تنفر بلا وداع ، وأنها تلبس الخفين وغيرهما مما نهى عنه المحرم (المحرم في الحج) ، ولكن تجتنب النقاب والقفازين ، وأنه رخص في موضع أصبعين أو ثلاثة أو أربعة من الحرير كما بين ذلك في الصحيح في رواية عمر ولم يعرف به ابنه عبد الله وكان له جبة مكفوفة بالحرير ، فلما سمع ابن عمر ونحوه هذه النصوص الخاصة رجعوا وعلموا حينئذ أنه كان في نفس الأمر دليل أقوى من الدليل الذي يستصحبونه ولم يعلموا به ، وهم في الحالين إنما حكموا بعلم ، لم يكونوا ممن لم يتبع إلا الظن ، فإنهم أولاً رجحوا العموم على استصحاب البراءة الأصلية ، وهذا ترجيح بعلم ؛ فإن هذا راجح بلا ريب ، والشرع طافح بهذا .

كيف يرجح المجتهد دليلاً على دليل

فما أوجبه الله أو حرمه كتابه كالوضوء والصلاة والحج وغيرهما هي نصوص عامة ، وما حرمه كالميتة والدم ولحم الخنزير حرمه بنصوص عامة وهي راجحة ومقدمة على البراءة الأصلية النافية للوجوب والتحريم ، فمن رجح ذلك فقد حكم بعلم ، وحكم بأرجح الدليلين المعلوم الرجحان ، ولم يكن ممن لم يتبع إلا الظن ، لكن لتجويزه أن يكون النص مخصوصاً صار عنده ظن راجح ، ولو علم أنه لا تخصيص هناك قطع بالعموم ، وكذلك لو علم إرادة نوع ، قطع بانتفاء النصوص ، وهذا القول في سائر الأدلة مثل أن يتمسك بنصوص وتكون منسوخة ولم يبلغه الناسخ ، كالذين نهوا عن الانتباذ في الأوعية وعن زيارة القبور ولم يبلغهم النص الناسخ ؛ وكذلك الذين صلوا إلى بيت المقدس قبل أن يبلغهم النسخ مثل من كان من المسلمين بالبوادي وبمكة والحبشة وغير ذلك ، وهؤلاء غير الذين كانوا بالمدينة وصلى بعضهم صلاة إلى القبلتين (أي : كانوا يصلون إلى بيت المقدس فلما بلغهم النسخ

تحولوا بنفس الصلاة إلى المسجد الحرام بمكة). بعضها إلى هذه القبلة وبعضها إلى هذه القبلة لما بلغهم النسخ. وهم في أثناء الصلاة، فاستداروا في صلاتهم من جهة بيت المقدس إلى جهة الكعبة، من جهة الشام إلى جهة اليمن.

فالقاضي أبو بكر ونحوه من الذين ينفون أن يكون في الباطن حكم مطلوب بالاجتهاد أو دليل عليه يقولون ما ثَمّ (أي هناك) إلا الظن الذي في نفس المجتهد، والأمارات لا ضابط لها، وليست أمارة أقوى من أمارة، فإنهم إذا قالوا ذلك لزمهم أن يكون الذي عمل بالمرجوح دون الراجح مخطئاً، وعندهم ليس في نفس الأمر خطأ.

المجتهد يصيب ويخطىء

وأما السلف والأئمة الأربعة والجمهور فيقولون بل الأمارات بعضها أقوى من بعض في نفس الأمر، على الإنسان أن يجتهد، ويطلب الأقوى، فإذا رأى دليلاً أقوى من غيره ولم ير ما يعارضه عمل به، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وإذا كان في الباطن ما هو أرجح منه كان مخطئاً معذوراً وله أجر على اجتهاده وعمله بما بين له رجحانه، وخطأه مغفور له، وذلك الباطن هو الحكم لكن بشرط القدرة على معرفته، فمن عجز عن معرفته لم يؤاخذ بتركه.

فإذا أريد بالخطأ الإثم فليس المجتهد بمخطىء. بل كل مجتهد مصيب مطيع لله فاعل ما أمره الله به، وإذا أريد به عدم العلم بالحق في نفس الأمر فالمصيب واحد وله أجران، كما في المجتهدين في جهة الكعبة إذا صلوا إلى أربع جهات، فالذي أصاب الكعبة واحد وله أجران لاجتهاده، وعمله كان

أكمل من غيره ، والمؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف . ومن زاده الله علماً وعملاً زاده أجراً بما زاده من العلم والعمل .

قال تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْنَاها إِبْراهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾(١) .

قال مالك عن زيد بن أسلم : بالعلم ، وكذلك قال في قصة يوسف ﴿ما كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ في دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلاّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾(٢) .

المجتهدون لا تنطبق عليهم الآية (إن يتَّبعون إلا الظن)

وقد تبين أن جميع المجتهدين إنما قالوا بعلم واتبعوا العلم ؛ وأن الفقه من أجلّ العلوم ، وأنهم ليسوا من الذين لا يتبعون إلا الظن ، لكن بعضهم قد يكون عنده علم ليس عند الآخر ؛ إما بأن سمع ما لم يسمع الآخر ؛ وإما بأن فهم ما لم يفهم الآخر ، كما قال تعالى : ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ في ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وكُنّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ★ فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً﴾(٣) .

وهذه حال أهل الاجتهاد والنظر والاستدلال في الأصول والفروع ، ولم يفرق أحد من السلف والأئمة بين أصول وفروع .

بل جعلُ الدين قسمين : أصولاً وفروعاً ، لم يكن معروفاً في الصحابة والتابعين ، ولم يقل أحد من السلف والصحابة والتابعين إن المجتهد الذي

---

(١) الأنعام ٨٣ .
(٢) يوسف ٧٦ .
(٣) الأنبياء ٧٨ ، ٧٩ .

استفرغ وسعه في طلب الحق يأثم ،لا في الأصول ولا في الفروع ،ولكن هذا التفريق ظهر من جهة المعتزلة ، وأدخله في أصول الفقه من نقل ذلك عنهم ، وحكوا عن عبيد الله بن الحسن العنبري أنه قال : كل مجتهد مصيب ؛ ومراده أنه لا يأثم .

وهذا قول عامة الأئمة كأبي حنيفة والشافعي وغيرهما .

ولهذا يقبلون شهادة أهل الأهواء ويصلون خلفهم ، ومن ردها كمالك وأحمد فليس ذلك مستلزماً لإثمهما ، لكن المقصود إنكار المنكر وهجر من أظهر البدعة ؛ فإذا هجر ولم يصلّ خلفه ولم تقبل شهادته كان ذلك منعاً له من إظهار البدعة ، ولهذا فرق أحمد وغيره بين الداعية للبدعة المظهر لها وغيره ، وكذلك قال الخرقي ومن صلى خلف من يجهر ببدعة أو منكر أعاد : (أي أعاد صلاته) وبسط هذا له موضع آخر .

الفرق بين الأصول والفروع

والذين فرقوا بين الأصول والفروع لم يذكروا ضابطاً يميز بين النوعين ، بل تارة يقولون هذا قطعي وهذا ظني وكثير من مسائل الأحكام قطعي ؛ وكثير من مسائل الأصول ظني عند بعض الناس ، فإن كون الشيء قطعياً وظنياً أمر إضافي (أي : نسبي) وتارة يقولون الأصول هي العلميات الخبريات ، والفروع العمليات ، وكثير من العمليات من جحدها كفر ، كوجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وتارة يقولون هذه عقليات ، وهذه سمعيات ، وإذا كانت عقليات لم يلزم تكفير المخطىء ، فإن الكفر حكم شرعي يتعلق بالشرع ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .

الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة على الأصول الخمسة يستند إلى دليل

وإذا تدبر الإنسان تنازع الناس وجد عند كل طائفة من العلم ما ليس عند الأخرى كما في مسائل الأحكام. مثال ذلك ما تقدم في الأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، ومسائل الأسماء والأحكام، وإنفاذ الوعيد، وهي التي توالي المعتزلة من وافقهم عليها ويتبرأون ممن خالفهم فيها، وقد قدمنا أنهم قصدوا توحيد الرب وإثبات عدله وحكمته ورحمته وصدقه وطاعة أمره، لكن غلطوا في كل واحدة من هذه الأمور كما تقدم. وكذلك الذين ناقضوهم من الجهمية، ومن سلك مسلكهم كأبي الحسن الأشعري، وأصحابه، فإنهم ناقضوهم في الأصول الخمسة، وكان عندهم علم ليس عند أولئك، وكان عند أولئك علم ليس عند هؤلاء.

بعض آراء المعتزلة

وكل من الطائفتين لم تحط علماً بما في الكتاب والسنة من بيان هذه الأمور، بل علموا بعضا وجهلوا بعضاً، فإن هؤلاء الجبرة هم في الحقيقة لا يثبتون لله عدلاً ولا حكمة ولا رحمة ولا صدقاً، فأولئك (أي: المعتزلة) قصدوا إثبات هذه الأمور، أما العدل فعندهم: كل ممكن فهو عدل، والظلم عندهم هو الممتنع، فلا يكون ثم عدل يقصد فعله وظلم يقصد تركه، ولهذا يجوزون عليه (أي الله سبحانه) فعل كل شيء وإن كان قبيحاً، ويقولون القبيح هو ما نهى عنه وهو (أي: الله) لا ناهي له، ويجوزون الأمر بكل شيء، وإن كان منكراً وشركاً، والنهي عن كل شيء وإن كان توحيداً ومعروفاً، فلا ضابط عندهم للفعل. فلهذا ألزموهم جواز إظهار المعجزات على يد الكاذب، ولم يكن لهم عن ذلك جواب صحيح، ولم يذكروا فرقاً بين

المعجزات وغيرها ، ولا ما به يعلم صدق النبي ﷺ إلا إذا نقضوا أصلهم ، وقد قال الله تعالى : ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَائِكَةُ وَأُولُو ٱلْعِلْمِ قَائِماً بِٱلْقِسْطِ﴾[1] وعندهم هذا لا فائدة فيه ، فليس في الممكن قسط وجور حتى يكون قائماً بهذا دون هذا . وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .

وكذلك الحكمة عندهم لا تفعل لحكمة ، وقد فسروا الحكمة إما بالعلم ، وإما بالقدرة ، وإما بالإرادة ، ومعلوم أن القادر قد يكون حكيماً ويكون غير حكيم ، كذلك المريد قد تكون إرادته حكمة وقد تكون سفهاً ، والعلم يطابق المعلوم ، سواء كان حكمة أو سفهاً ، فليس عندهم في نفس الأمر أن الله حكيم ، وكذلك الرحمة ما عندهم في نفس الأمر إلا إرادة ترجيح أحد المثلين بلا مرجح ، نسبتها إلى نفع العباد وضررهم سواء ، فليس عندهم في نفس الأمر رحمة ولا محبة أيضاً . وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .

وبيّن (أي واضح) تناقضهم في الصفات والأفعال ، حيث أثبتوا الإرادة مع نفي المحبة والرضا ومع نفي الحكمة ، وبيّن تناقضهم وتناقض كل من أثبت بعض الصفات دون بعض ، وأن المتفلسفة نفاة الإرادة أعظم تناقضاً منهم .

اضطراب الرازي حول بعض المسائل

فإن الرازي ذكر في المطالب العلية مسألة الإرادة ورجح فيها نفي الإرادة ، لأنه لم يمكنه أن يجيب عن حجة المتفلسفة على أصول أصحابه الجهمية والمعتزلة فغفر إليهم ، وكذلك في غير هذا من المسائل ، فهو تارة يرجح قوله قول المتفلسفة ، وتارة يرجح قول المتكلمة ، وتارة يحار ويقف ،

---

(١) آل عمران ١٨ .

واعترف في آخر عمره بأن طريق هؤلاء وهؤلاء لا تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، وقال: قد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، إقرأ في الإثبات ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[1] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[2] واقرأ في النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[3] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[4] ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل تعريفي.

فقد تبين أنهم لا يثبتون عدل الرب ولا حكمته ولا رحمته. وكذلك الصدق، فإنهم لما أرادوا أن يقيموا الدليل على أن الله صادق تعذر ذلك عليهم، فقالوا الصدق في الكلام النفساني واجب لأنه يعلم الأمور، ومن يعلم يمتنع أن يقوم في نفسه خبر بخلاف علمه، وعلى هذا اعتمد الغزالي وغيره.

فقيل لهم: هذا ضعيف لوجهين: أحدهما: الصدق في ذلك المعنى لا ينفع إن لم يثبت الصدق في العبارات الدالة عليه ويتميز بين الأفعال عندهم.

الثاني: أنهم أثبتوا الخبر النفساني، فإن الإنسان يخبرك بالكذب فيقوم في نفسه معنى ليس هو العلم وهو معنى الخبر، فهذا يقتضي أنهم يقولون إن العلم قد يقوم في نفسه خبر بخلاف علمه.

مناقشة الرازي في كلام الله

والرازي لما ذكر مسألة أنه (أي: الله سبحانه) لا يجوز أن يتكلم بكلام

---

(١) طه ٥.

(٢) فاطر ١٠.

(٣) الشورى ١١.

(٤) طه ١١٠.

ولا يعني به شيئاً خلافاً للحشوية، قيل له هل قال أحد من طوائف الأمة إن الله لا يعني بكلامه شيئاً، وإنما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم العباد معناه. وقيل لهم هب أن في هذا نزاعاً فهو لم يقم دليل على امتناع ذلك؛ بل قال هذا عيب أو نقص والله منزه عنه. فقيل له إما أن يريد المعنى القائم بالذات أو العبارات المخلوقة؛أما الأول فلا يجوز إرادته هنا، لأن المسألة هي فيمن يتكلم بالحروف المنظومة ولا يعني به شيئاً، وذلك القائم بالذات هو نفس المعنى، وإن أردت الحروف وهو مراده فتلك عندك مخلوقة ويجوز عندك أن يخلق كل شيء ليس منزهاً عن فعل من الأفعال. والعيب عندك هو ما لا تريده فهذا ممتنع. فتبين أنه ليس لهم حجة لا على صدقه ولا على تنزيهه عن العيب في خطابه، فإن ذلك إنما يكون ممن تنزيهه عن بعض الأفعال.

وتبين بذلك أنهم لا يثبتون عدله ولا حكمته ولا رحمته ولا صدقه، والمعتزلة قصدهم إثبات هذه الأمور، ولهذا يذكرونها في خطبة الصفات كما يذكرها أبو الحسين البصري وغيره، كما ذكر في أول صور الأدلة خطبة مضمونها أن الله واحد عدل لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون، وأنه بالناس لرؤوف رحيم، وأظن فيها إثبات صدقه، ولهذا يكفرون من يجوره (أي: ينسبه إلى الجور) أو يكذبه أو يسفهه أو يشبهه، ولكن قد غلطوا في مواضع كثيرة كما قد نبه على هذا في غير موضع.

فكلا الطائفتين معها حق وباطل، ولم يستوعب الحق إلا من اتبع المهاجرين والأنصار، وآمن بما جاء به الرسول كله على وجهه، لم يؤمن ببعض ويكفر ببعض، وهؤلاء هم أهل الرحمة الذين لا يختلفون بخلاف أولئك المختلفين. قال تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ★ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(1).

---

(1) هود ١١٩ - ١٢٠.

فصل
اختلاف المعتزلة وابن كلاب في إثبات بعض الصفات لله

والجهمية والمعتزلة مشتركون في نفي الصفات، وابن كلاب ومن تبعه كالأشعري وأبي العباس القلانسي ومن تبعهم أثبتوا الصفات، لكن لم يثبتوا الصفات الاختيارية مثل كونه يتكلم بمشيئته، ومثل كون فعله الاختياري يقوم بذاته، ومثل كونه يحب ويرضى عن المؤمنين بعد إيمانهم، ويغضب ويبغض الكافرين بعد كفرهم، ومثل كونه يرى أفعال العباد بعد أن يعملوها كما قال تعالى ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾(١) فأثبت رؤية مستقلة.

الخلاف حول كلام الله لموسى

وكذلك قوله تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلَائِفَ في ٱلْأَرْض ِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(٢) ومثل كونه نادى موسى حين أتى، لم يناده قبل ذلك بنداء قام بذاته، فإن المعتزلة والجهمية يقولون خلق نداء في الهواء. والكلابية والسالمية يقولون النداء قام بذاته وهو قديم لكن سمعه موسى، فاستجدوا سماع موسى (أي جعلوا سماع موسى لكلام الله هو الجديد، وأما

---

(١) التوبة ١٠٥.
(٢) يونس ١٤.

كلام الله فهو قديم) وإلا فما زال عندهم منادياً.

كلام الله بمشيئته

والقرآن والأحاديث وأقوال السلف والأئمة كلها تخالف هذا وهذا، وتبين أنه ناداه حين جاء، وأنه يتكلم بمشيئته في وقت بكلام معين كما قال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ (١).

وقال تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢).

والقرآن فيه مئون (أي: مئات) من الآيات تدل على هذا الأصل، وأما الأحاديث فلا تحصى. وهذا قول أئمة السنة والسلف وجمهور العقلاء.

القرآن غير مخلوق

ولهذا قال عبد الله بن المبارك والإمام أحمد بن حنبل وغيرهما: لم يزل متكلماً إذا شاء وكيف شاء، وهذا قول عامة أهل السنة. فلهذا اتفقوا على أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق. ولم نعرف عن أحد من السلف أنه قال هو قديم لم يزل، والذين قالوا من المتأخرين هو قديم كثير، منهم من لم يتصور المراد، بل منهم من يقول هو قديم في علمه، ومنهم من يقول قديم أي متقدم الوجود، متقدم على ذات زمان المبعث لا أنه أزلي لم يزل. ومنهم من يقول: بل مرادنا بقديم أنه غير مخلوق. وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع.

---

(١) الأعراف ١١.

(٢) آل عمران ٥٩.

رؤية الله لعباده وسماعه أصواتهم

والمقصود هنا أنه على هذا الأصل إذا خلق المخلوقات رآها وسمع أصوات عباده، وكان ذلك بمشيئته وقدرته، إذ كان خلقه لهم بمشيئته وقدرته، وبذلك صاروا يرون ويسمع كلامهم.

وقد جاء في القرآن والسنة في غير موضع أنه يخص بالنظر والاستماع بعض المخلوقات كقوله (أي عليه الصلاة والسلام والحديث المروي هنا فيه تقديم وتأخير وصوابه كما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكّيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: ملك كذاب، وشيخ زان، وعائل مستكبر»).

وكذلك في الاستماع قال تعالى ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾[1] أي استمعت.

وقال النبي ﷺ «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به» وقال «لله أشد أذنا إلى صاحب القرآن من صاحب القينة إلى قينته» فهذا تخصيص بالأذن وهو الاستماع لبعض الأصوات دون بعض.

وكذلك سمع الإجابة كقوله «سمع الله لمن حمده» وقول الخليل ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[2] وقوله ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾[3] يقتضي التخصيص بهذا السمع. فهذا التخصيص ثابت في الكتاب والسنة، وهو تخصيص بمعنى يقوم بذاته بمشيئته وقدرته كما تقدم. وعند النفاة هو تخصيص بأمر مخلوق منفصل لا بمعنى يقوم بذاته، وتخصيص من يحب ومحبته بالنظر والاستماع

---

(١) الانشقاق ٢.

(٢) آل عمران ٣٨.

(٣) سبأ ٥٠.

المذكور يقتضي أن هذا النوع منتف عن غيرهم.

لكن مع ذلك هل يقال: إن نفس الرؤية والسمع الذي هو مطلق الإدراك هو من لوازم ذاته فلا يمكن وجود مسموع ومرئي إلا وقد تعلق به كالعلم؛ أو يقال إنه أيضاً بمشيئته وقدرته فيمكنه أن لا ينظر إلى بعض المخلوقات. هذا فيه قولان، والأول قول من لا يجعل ذلك متعلقاً بمشيئته وقدرته، وأما الذين يجعلونه متعلقاً بمشيئته وقدرته فقد يقولون متى وجد المرئي والمسموع وجب تعلق الإدراك به.

والقول الثاني: إن جنس السمع والرؤية يتعلق بمشيئته وقدرته، فيمكن أن لا ينظر إلى شيء من المخلوقات، وهذا هو المأثور عن طائفة من السلف، كما روى ابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني قال: ما نظر الله إلى شيء من خلقه إلا رحمه ولكنه قضى أن لا ينظر إليهم.

ذكر الله لعباده ونسيانه لهم

وقد يقال: هذا مثل الذكر والنسيان، فإن الله تعالى قال ﴿فَٱذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾(١).

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال «يقول الله تعالى: (أي في الحديث القدسي) أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرّب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة».

---

(١) البقرة ١٥٢.

فهذا الذكر يخص بمن ذكره. فمن لا يذكره لا يحصل له هذا الذكر. ومن آمن به وأطاعه ذكره برحمته. ومن أعرض عن الذكر الذي أنزله أعرض عنه، كما قال تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فإنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضنكا، ونَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ أَعْمى * قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قالَ كذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وكَذلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنْسَى﴾[1].

ومثله قوله ﴿ٱلْمُنافِقُونَ وَٱلْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ويَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[2].

وقد فسروا هذا النسيان بأنه[*]   وهذا النسيان[**] ضد ذلك الذكر.

وفي الصحيح في حديث الكافر يحاسبه قال: «أفظننت أنك ملاقي؟ قال: لا. قال: فاليوم أنساك كما نسيتني، فهذا يقتضي أنه لا يذكره كما يذكر أهل طاعته. هو متعلق بمشيئته وقدرته أيضاً. وهو سبحانه قد خلق هذا العبد وعلم ما سيعمله قبل أن يعمله، ولما عمل علم ما عمل ورأى عمله، فهذا النسيان لا يناقض ما علمه سبحانه من حال هذا.

---

(١) طه ١٢٤ - ١٢٦.

(٢) التوبة ٦٧.

(*) بياض بالأصل

(**) (يمكن أن نفسر النسيان هنا بأن الله سبحانه لا يذكره برحمته. جاء في تفسير ابن كثير (وهو معاصر لابن تيمية) عن هذه الآية ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ أي عاملهم معاملة من نسيهم كما في قوله تعالى ﴿فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾.

فصل

اتباع الحق عن طريق الهدى والعلم والإيمان

وفي جماع الفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشاد والغي، وطريق السعادة والنجاة، وطريق الشقاوة والهلاك، أن يجعل ما بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه، وبه يحصل الفرقان والهدى، والعلم والإيمان، فيصدق بأنه حق وصدق، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه، (أي: على كتاب الله) فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطل. وإن لم يعلم هل وافقه أو خالفه لكون ذلك الكلام مجملاً لا يعرف مراد صاحبه، أو قد عرف مراده ولكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقه أو تكذيبه، فإنه يمسك فلا يتكلم إلا بعلم.

والعلم ما قام عليه الدليل والنافع منه ما جاء به الرسول. وقد يكون علم من غير الرسول لكن في أمور دنيوية، مثل الطب والحساب والفلاحة والتجارة. وأما الأمور الإلهية والمعارف الدينية، فهذه: العلم فيها ما أخذ عن الرسول، فالرسول أعلم الخلق بها، وأرغبهم في تعريف الخلق بها، وأقدرهم على بيانها وتعريفها. فهو فوق كل أحد في العلم والقدرة والإرادة.

وهذه الثلاثة (أي: العلم والقدرة والإرادة) بها يتم المقصود. ومن سوى الرسول (أي: من الناس) إما أن يكون في علمه بها نقص أو فساد إما لرهبة وإما ألا يكون له إرادة فيما علمه من ذلك فلم يبينه إما لرغبة وإما لغرض

آخر ، وإما أن يكون بيانه ناقصاً ليس بيانه البيان عما عرفه الجنان (أي : القلب) .

وبيان الرسول على وجهين ، تارة يبين الأدلة العقلية الدالة عليها ، والقرآن مملوء من الأدلة العقلية والبراهين اليقينية على المعارف الإلهية والمطالب الدينية ، وتارة يخبر بها خبراً مجرداً ، لما قد أقامه من الآيات البينات والدلائل اليقينيات على أنه رسول الله ، المبلغ عن الله . وأنه لا يقول عليه إلا الحق ، وأن الله شهد له بذلك ، وأعلم عباده ، وأخبرهم أنه صادق مصدوق فيما بلغه عنه .

والأدلة التي بها نعلم أنه رسول الله كثيرة متنوعة ، وهي أدلة عقلية ، يعلم صحتها بالعقل ، وهي أيضاً شرعية سمعية ، لكن الرسول بينها ، ودل عليها ، وأرشد إليها .

وجميع طوائف النظار (أي : الذين يتبعون النظر والعقل) متفقون على أن القرآن اشتمل على الأدلة العقلية في المطالب الدينية ، وهم يذكرون ذلك في كتبهم الأصولية وفي كتب التفسير . وعامة النظار أيضاً يحتجون بالأدلة السمعية الخبرية المجردة عن المطالب الدينية ، فإنه إذا ثبت صدق الرسول وجب تصديقه فيما يخبر به .

فصل

طرق العلم ثلاثة عقلية وسمعية ومشتركة

والعلوم ثلاثة أقسام: منها ما لا يعلم إلا بالأدلة العقلية، وأحسن الأدلة العقلية التي بينها القرآن، وأرشد إليها الرسول، فينبغي أن يعرف أن أجلّ الأدلة العقلية وأكملها وأفضلها مأخوذ عن الرسول، فإن من الناس من يذهل عن هذا، فمنهم من يقدح في الدلائل العقلية مطلقاً لأنه قد صار في ذهنه أنها هي الكلام المبتدع الذي أحدثه من المتكلمين (أي: علماء الكلام الذين يبحثون في الجانب الإلهي عن ذات الله وصفاته وأفعاله).

ومنهم من يعرض عن تدبر القرآن وطلب الدلائل اليقينية العقلية منه، لأنه قد صار في ذهنه أن القرآن إنما يدل بطريق الخبر فقط، فلا بد أن يعلم بالعقل قبل ذلك ثبوت النبوة وصدق الخبر حتى يستدل بعد ذلك بخبر من ثبت بالعقل صدقه.

ومنها ما لا يعلمه غير الأنبياء إلا بخبر الأنبياء، وخبرهم المجرد هو دليل سمعي مثل تفاصيل ما أخبروا به من الأمور الإلهية والملائكة والعرش والجنة والنار، وتفاصيل ما يؤمر به وينهى عنه، فأما نفس إثبات الصانع ووحدانيته وعلمه وقدرته ومشيئته وحكمته ورحمته ونحو ذلك، فهذا لا يعلم بالأدلة العقلية، (أي: فهذا لا يعلم بالأدلة العقلية وحدها بل مقترنة بخبر الأنبياء) وإن كانت الأدلة والآيات التي يأتي بها الأنبياء هي أكمل

الأدلة العقلية ، لكن معرفة هذه ليست مقصورة على الخبر المجرد وإن كان أخبار الأنبياء المجردة تفيد العلم اليقيني أيضاً فيعلم بالأدلة العقلية التي أرشدوا إليها ، ويعلم بمجرد خبرهم لما علم صدقهم بالأدلة والآيات والبراهين التي دلت على صدقهم .

فصل

اختلاف علماء الكلام حول اعتماد العقل أو النقل في مسألة المعاد

وقد تنازع الناس في العلم بالمعاد، (أي يوم القيامة) وبحسن الأفعال وقبحها، فأكثر الناس يقولون إنه يعلم بالعقل مع السمع، والقائلون بأن العقل يُعلم به الحسن والقبح أكثر من القائلين بأن المعاد يعلم بالعقل. قال أبو الخطاب: هو قول أكثر الفقهاء والمتكلمين. ومنهم من يقول المعاد والحسن والقبح لا يعلم إلا بمجرد الخبر، وهو قول الأشعري وأصحابه ومن وافقهم من أتباع الأئمة كالقاضي أبي يعلى وأبي المعالي الجويني وأبي الوليد التاجي وغيرهم. وكلهم متفقون على أن من العلوم ما يعلم بالعقل والسمع الذي هو مجرد الخبر مثل كون أفعال العباد مخلوقة لله أو غير مخلوقة، وكون رؤيته (أي: رؤية الله) ممكنة أو ممتنعة ونحو ذلك.

مناقشة الدليل العقلي والدليل السمعي

وكتب أصول الدين بجميع الطوائف مملوءة بالاحتجاج بالأدلة السمعية الخبرية، لكن الرازي طعن في ذلك في المطالب العالية، (أي: ما يتعلق بالجانب الإلهي وأخبار الغيب) قال: لأن الاستدلال بالسمع مشروط بألا يعارضه قاطع عقلي، فإذا عارضه العقل وجب تقديمه عليه (أي وجب تقديم الدليل العقلي على الدليل النقلي) قال: والعلم بانتفاء المعارض العقلي متعذر،

وهو إنما يثبت بالسمع ما علم بالاضطرار أن الرسول أخبر به كالمعاد.

وقد يظن أن هذه طريقة أئمته الواقفة في الوعيد كالأشعري والقاضي أبي بكر وغيرهما وليس كذلك، فإن هؤلاء إنما وقفوا في أخبار الوعيد خاصة لأن العموم عندهم لا يفيد القطع أو لأنهم لا يقولون بصيغ العموم، وقد تعارضت عندهم الأدلة وإلا فهم يثبتون الصفات الخبرية (أي: الواردة في الخبر في القرآن والسنة) لله كالوجه واليد بمجرد السمع والخبر ولم يختلف قول الأشعري في ذلك، وهو قول أئمة أصحابه، لكن أبو المعالي وأتباعه لا يثبتون الصفات الخبرية، بل فيهم من ينفيها ومنهم من يقف (يقف: أي لا يثبت ولا ينفي) فيها كالرازي والآمدي، فيمكن أن يقال قول الأشعري ينزع (أي يختلف) من قول هؤلاء بأن يقال لا يعرف أنهم اعتمدوا في الأصول على دليل سمعي، لكن يقال المعاد يحتجون عليه بالقرآن والأحاديث، ولكن الرازي هو الذي سلك فيه طريق العلم الضروري أن الرسول جاء به. وفي الحقيقة فجميع الأدلة اليقينية توجب علماً ضرورياً، والأدلة السمعية الخبرية توجب علماً ضرورياً بأخبار الرسول، لكن منها ما تكثر أدلته كخبر الأخبار المتواترة، ويحصل به علم ضروري من غير تعيين دليل، وقد يعين الأدلة ويستدل بها. وبسط هذا له موضع آخر.

العلوم الإلهية والدينية تؤخذ عن الرسول

والمقصود هنا أن يؤخذ من الرسول العلوم الإلهية الدينية، سمعيها وعقليها، ويجعل ما جاء به هو الأصول لدلالة الأدلة اليقينية البرهانية على أن ما قاله حق جملة وتفصيلاً. فدلائل النبوة واعلامها تدل على ذلك جملة،

وتفاصيل الأدلة العقلية الموجودة في القرآن والحديث يدل على ذلك تفصيلاً .

وأيضاً فإن الأنبياء والرسل إنما بعثوا بتعريف هذا ، فهم أعلم الناس به وأحقهم بقيامه ، وأولاهم بالحق فيه .

وأيضاً فمن جرب ما يقولونه ويقوله غيرهم وجد الصواب معهم والخطأ مع مخالفيهم ، كما قال الرازي مع أنه من أعظم الناس طعناً في الأدلة السمعية حتى ابتدع قولاً ما عرف به قائل مشهور غيره ، وهو أنها لا تفيد اليقين ، ومع هذا فإنه يقول : لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن ، إقرأ في الإثبات (أي في إثبات الصفات) ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾[1] ﴿ الرَّحْمٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَى ﴾[2] واقرأ في النفي (أي في نفي إدراك الله) ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[3] ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾[4] قال : ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

وأيضاً فمن اعتبر ما عند الطوائف الذين لم يتمسكوا بتعليم الأنبياء وإرشادهم وأخبارهم ، وجدهم كلهم حائرين ، ضالين شاكين مرتابين ، أو جاهلين جهلاً مركباً ، فهم لا يخرجون عن المثلين اللذين في القرآن ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَٱللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ★ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي

(١) فاطر ١٠ .
(٢) طه ٥ .
(٣) الشورى ١١ .
(٤) طه ١١٠

بَحْرٍ لُجّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾[١] .

(١) النور ٣٩ .

فصل

موقف أهل البدع من القرآن الحديث

وأهل الضلال الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، وهم كما قال مجاهد أهل البدع والشبهات ، يتمسكون بما هو بدعة في الشرع ومشتبه في العقل ، كما قال فيهم الإمام أحمد ، قال : هم مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب ، يحتجون بالمتشابه من الكلام ، ويضلون الناس بما يشبهون عليهم . والموفقة من أهل الضلال تجعل لها ديناً وأصول دين قد ابتدعوه برأيهم ، ثم يعرضون على ذلك القرآن والحديث ، فإن وافقه احتجوا به اعتقاداً لا اعتماداً وإن خالفه فتارة يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويتأولونه على غير تأويله ، وهذا فعل أئمتهم ، وتارة يعرضون عنه ويقولون نفوض معناه إلى الله ، وهذا فعل عامتهم ، وعمدة الطائفتين في الباطن غير ما جاء به الرسول ، يجعلون أقوالهم البدعية محكمة يجب اتباعها واعتقاد موجبها .

المخالفون يجعلون المحكم من القرآن متشابهاً وبالعكس

والمخالف إما كافر ، وإما جاهل لا يعرف هذا الباب ، وليس له علم بالمعقول ولا بالأصول ، ويجعلون كلام الله ورسوله الذي يخالفها من المتشابه الذي لا يعرف معناه إلا الله ، أو لا يعرف معناه إلا الراسخون في العلم والراسخون عندهم من كان موافقاً لهم على ذلك القول ، وهؤلاء أضل من

تمسك بما تشابه عليه من آيات الكتاب، ويترك المحكم، كالنصارى والخوارج، وغيرهم، إذ كان هؤلاء أخذوا بالمتشابه من كلام الله وجعلوه محكماً وجعلوا المحكم متشابهاً، وأما أولئك كنفاة الصفات من الجهمية، ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم (وكالفلاسفة) فيجعلون ما ابتدعوه هم برأيهم هو المحكم الذي يجب اتباعه، وإن لم يكن معهم من الأنبياء، والكتاب، والسنة ما يوافقه، ويجعلون ما جاءت به الأنبياء، وإن كان صريحاً قد يعلم معناه بالضرورة يجعلونه من المتشابه.

ولهذا كان هؤلاء أعظم مخالفة للأنبياء من جميع أهل البدع حتى قال يوسف بن أسباط وعبد الله بن المبارك وغيرهما كطائفة من أصحاب أحمد: إن الجهمية نفاة الصفات خارجون عن الثنتين وسبعين فرقة: قالوا: وأصولها أربعة، الشيعة، والخوارج، والمرجئة، والقدرية.

معنى آيات متشابهات

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن قوله تعالى: ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾[١] في المتشابهات قولان: أحدهما أنها آيات بعينها تتشابه على كل الناس.

والثاني وهو الصحيح أن التشابه أمر نسبي فقد تشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره، ولكن ثم آيات محكمات لا يتشابه فيها على أحد، وتلك المتشابهات إذا عرف معناها صارت غير متشابهة بل القول كله محكم كما قال ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾[٢] وهذا كقوله «الحلال بين والحرام

---

(١) آل عمران ٧.

(٢) هود ١.

بيّن، وبين ذلك أمور لا يعلمهن كثير من الناس ». وكذلك قولهم ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾[1] .

الآيات المتشابهة

وقد صنف أحمد كتاباً في الرد على الزنادقة والجهمية فيما سكت فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله، وفسر تلك الآيات كلها وذمهم على أنهم تأولوا ذلك المتشابه على غير تأويله.

وعامتها آيات معروفة قد تكلم العلماء في تفسيرها مثل الآيات التي سأل عنها نافع بن الأزرق لابن العباس، قال الحسن البصري ما نزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيم أنزلت وماذا عنى بها، ومن قال من السلف إن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله، فقد أصاب أيضاً، ومراده بالتأويل ما استأثر الله بعلمه، مثل وقت الساعة (أي القيامة) ومجيء أشراطها، ومثل كيفية نفسه (أي الله سبحانه) وما أعده في الجنة لأوليائه.

وكان من أسباب نزول الآية احتجاج النصارى بما تشابه عليهم كقوله: إنا ونحن، وهذا يعرف العلماء أن المراد به الواحد المعظم الذي له أعوان لم يرد به أن الآلهة ثلاثة، فتأويل هذا الذي هو تفسيره يعلمه الراسخون، ويفرقون بين ما قيل فيه إيا (إيا: المقصود بها المفرد: إياي وإياي فاعبدون) وما قيل فيه إنا (هي للجمع والمقصود المفرد واستعملت بصيغة الجمع تعظيماً) لدخول الملائكة فيما يرسلهم فيه إذ كانوا رسله، وأما كونه هو المعبود الإله فهو له وحده، ولهذا لا يقول فإيانا فاعبدوا ولا إيانا فارهبوا بل متى جاء الأمر بالعبادة، والتقوى، والخشية، والتوكل ذكر نفسه وحده

---

(١) البقرة ٧٠.

باسمه الخاص ، وإذا ذكر الأفعال التي يرسل فيها الملائكة قال : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق » ، ونحو ذلك مع أن تأويل هذا وهو حقيقة ما دل عليه من الملائكة وصفاتهم ، وكيفية إرسال الرب لهم لا يعلمه إلا الله ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

كيف نعرض المتشابه على القرآن والسنة

والمقصود هنا أن الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله ، هو الأصل ، ويتدبر معناه ويعقل ، ويعرف برهانه ودليله ، إما العقلي ، وإما الخبري السمعي ، ويعرف دلالة القرآن على هذا وهذا ، ويجعل أقوال الناس التي قد توافقه وتخالفه متشابهة مجملة ، فيقال لأصحاب هذه الألفاظ يحتمل كذا ، وكذا ، ويحتمل كذا وكذا ، فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول قُبل ، وإن أرادوا بها ما يخالفه ، رُدّ وهذا مثل لفظ المركب والجسم ، والمتحيز ، والجوهر ، والجهة والعرض ، ونحو ذلك ، ولفظ الحيز ، ونحو ذلك ، فإن هذه الألفاظ ما لا يوجد في الكتاب والسنة بالمعنى الذي يريده أهل هذا الاصطلاح بل ولا في اللغة أيضاً ، بل هم يختصمون بالتعبير بها على معان لم يعبر غيرهم عن تلك المعاني بهذه الألفاظ ، فيفسر تلك المعاني بعبارات أخرى ، ويبطن ما دل عليه القرآن الأدلة العقلية والسمعية ، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل وعرف وجه الكلام على أدلتهم فإنها ملفقة من مقدمات مشتركة ، يأخذون اللفظ المشترك في إحدى المقدمتين بمعنى ، وفي المقدمة الأخرى بمعنى آخر ؛ فهو في صورة اللفظ دليل وفي المعنى ليس بدليل ، كمن يقول سهيل بعيد من الثريا لا يجوز أن يقترن بها ولا يتزوجها ، والذي قال :

أيها المنكح الثريا سهيلا

أراد امرأة اسمها الثريا ورجلاً اسمه سهيل. ثم قال:

عمرك الله كيف يلتقيان

هي شاميــة إذا مــا استقلـت وسهيــل إذا استقــل يمــان

وهذا لفظ مشترك فجعل يعجبه وإنكاره من الظاهر من جهة اللفظ المشترك، وقد بسط الكلام على أدلتهم المفصلة في غير موضع.

دليل الذين قالوا بنفي الصفات عن الله

والأصل الذي بنى عليه نفاة الصفاة وعطلوا ما عطلوه حتى صار منتهاهم إلى قول فرعون الذي جحد الخالق، وكذب رسوله موسى في أن الله كلمه؛ هو استدلالهم على حدوث العالم، بأن الأجسام محدثة. واستدلالهم على ذلك بأنها لا تخلو من الحوادث، ولم تسبقها، وما لم يخل من الحوادث، ولم يسبقها فهو محدث، وهذا أصل قول الجهمية الذين أطبق السلف، والأئمة على ذمهم، وأصل قول المتكلمين الذين أطبقوا على ذمهم.

وقد صنف الناس. مصنفات متعددة فيها أقوال السلف والأئمة في ذم الجهمية وفي ذم هؤلاء المتكلمين.

الرأي في علم الكلام

والسلف لم يذموا جنس الكلام، فإن كل آدمي يتكلم، ولا ذموا الاستدلال والنظر والجدل الذي أمر الله به ورسوله، والاستدلال بما بينه الله ورسوله، بل ولا ذموا كلاماً هو حق بل ذموا الكلام الباطل، وهو المخالف للكتاب والسنة، وهو المخالف للعقل أيضاً وهو الباطل.

فالكلام الذي ذمه السلف هو الكلام الباطل، وهو المخالف للشرع والعقل، ولكن كثير من الناس خفي عليه بطلان هذا الكلام، فمنهم من اعتقده موافقاً للشرع والعقل، حتى اعتقد أن إبراهيم الخليل استدل به.

ومن هؤلاء من يجعله (أي يجعل علم الكلام) أصل الدين ولا يحصل الإيمان أو لا يتم إلا به، ولكنْ من عرف ما جاء به الرسول وما كان عليه الصحابة علم بالاضطرار أن الرسول والصحابة لم يكونوا يسلكون هذا المسلك، فصار من عرف ذلك يعرف أن هذا بدعة، وكثير منهم لا يعرف أنه فاسد، بل يظن مع ذلك أنه صحيح من جهة العقل، لكنه طويل، أو تبعد المعرفة، أي هو طريق مخيفة مخطر يخاف على سالكه، فصاروا يعيبونه كما يعاب الطريق الطويل والطريق المخيف، مع اعتقادهم أنه يوصل إلى المعرفة، وأنه صحيح في نفسه.

وأما الحذاق العارفون تحقيقه فعلموا أنه باطل عقلاً وشرعاً، وأنه ليس بطريق موصل إلى المعرفة، بل إنما يوصل لمن اعتقد صحته إلى الجهل والضلال، ومن تبين له تناقضه أوصله إلى الحيرة والشك.

الدليل على قدم الله

ولهذا صار حذاق سالكيه ينتهون إلى الحيرة والشك، إذ كان حقيقته أن كل موجود فهو حادث مسبوق بالعدم وليس في الوجود قديم، وهذا مكابرة، فإن الوجود مشهود وهو إما حادث وإما قديم؛ والحادث لا بد له من قديم، فثبت وجود القديم على التقديرين.

خطأ طريقة ابن سينا في الاستدلال على قدم الله

وكذلك ما ابتدعه في هذه الطريق ابن سينا وأتباعه من الاستدلال

بالممكن على الواجب أبطل من ذلك ، كما قد بسط ذلك في غير هذا الموضع . وحقيقته أن كل موجود فهو ممكن ، ليس في الوجود موجود بنفسه ، مع أنهم جعلوا هذا طريقاً لإثبات الواجب بنفسه ، كما يجعل أولئك هذا طريقاً لإثبات القديم ، وكلاهما ، يناقض ثبوت القديم والواجب ، فليس في واحد منهما إثبات ولا واجب بنفسه ، مع أن ثبوت موجود قديم واجب بنفسه معلوم بالضرورة ، ولهذا صار (أي انتهى) حذاق هؤلاء إلى أن الموجود الواجب والقديم هو العالم بنفسه ، وقالوا هو الله ، وأنكروا ألا يكون للعالم رب مباين للعالم ، إذ كان ثبوت القديم الواجب بنفسه لا بد منه على كل قول . وفرعون ونحوه ممن أنكر الصانع ما كان ينكر هذا الوجود المشهود ، فلما كان حقيقة قول أولئك يستلزم أنه ليس موجود قديم ولا واجب لكنهم لا يعرفون أن هذا يلزمهم (أي دليل ضدهم) بل يظنون أنهم أقاموا الدليل على إثبات القديم الواجب بنفسه .

فساد وصفهم لله بالسلب

ولكن وصفوه بصفات الممتنع فقالوا : لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو صفة ولا موصوف ، ولا يشار إليه ، ونحو ذلك من الصفات السلبية التي تستلزم عدمه ، وكان هذا مما تنفر عنه العقول والفطر ، ويعرف أن هذا صفة المعدوم الممتنع لا صفة الموجود ، فدليلهم في نفس الأمر يستلزم أنه ما ثم (هناك) لا قديم ولا واجب ، ولكنهم ظنوا أنهم أثبتوا القديم والواجب ، وهذا الذي أثبتوه هو ممتنع ، فما أثبتوا قديماً ولا واجباً ، فجاء آخرون من جهتهم فرأوا هذا مكابرة ولا بد من إثبات القديم والواجب ، فقالوا هو هذا العالم .

موقف الجهمية

فكان قدماء الجهمية يقولون إنه بذاته في كل مكان ، وهؤلاء قالوا هو غير الموجودات والموجود القديم الواجب هو نفس الموجود المحدث الممكن ، والحلول هو الذي أظهرته الجهمية للناس حتى عرفه السلف والأئمة وردوه . وأما حقيقة قولهم فهو النفي أن لا داخل العالم ولا خارجه ، ولكن هذا لم تسمعه الأئمة ، ولم يعرفوا أنه قولهم إلا من باطنهم ، ولهذا كان الأئمة يحكون على الجهمية أنه في كل مكان ، ويحكون عنهم وصفه بالصفات السلبية ، وشاع عند الناس أن الجهمية يصفونه بالسلوب حتى قال أبو تمام :

جهميـة الأوصـاف إلا أنهـا   قـد حليت بمحاسن الأشياء

المقصود من نفي القديم

وهم لم يقصدوا نفي القديم والواجب فإن هذا لا يقصده أحد من العقلاء لا مسلم ولا كافر ، إذ كان خلاف ما يعلمه كل أحد ببديهة عقله ، فإنه إذا قدر أن جميع الموجودات حادثة عن عدم لزم أن كل الموجودات حدثت بأنفسها . ومن المعلوم ببداهة العقول أن الحادث لا يحدث بنفسه ، ولهذا قال تعالى ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَالِقُون ﴾[1] وقد قيل خلقوا من غير شيء من غير رب خلقهم . وقيل من غير مادة . وقيل من غير عاقبة وجزاء ، والأول مراد قطعاً ، فإن كل ما خلق من مادة أو لغاية فلا بد له من خالق .

المخلوق لا بد له من خالق

ومعرفة الفطر أن المحدث لا بد له من محدث أظهر فيها من أن كل

---

(١) ٣٥ الطور .

محدث لا بد له من مادة خلق منها ، وغاية خلق لها ، فإن كثيراً من العقلاء نازع في هذا وهذا ، ولم ينازع في الأول طائفة قال إن هذا العالم حدث من غير محدث أحدثه ، بل من الطوائف من قال إنه قديم بنفسه واجب بنفسه ليس له صانع ، وأما أن يقول إنه محدث حدث بنفسه بلا صانع فهذا لا يعرف عن طائفة معروفة وإنما يحكى عمن لا يعرف . ومثل هذا القول وأمثاله يقوله من يقوله ممن حصل له فساد في عقله صار به إلى السفسطة ، والسفسطة تعرض لآحاد الناس وفي بعض الأمور ولكن أمة من الأمم كلهم سوفسطائية في كل شيء هذا لا يتصور .

فلهذا لا يعرف عن أمة من الأمم أنهم قالوا بحدوث العالم من غير محدث ، وهؤلاء لما اعتقدوا أن كل موصوف أو كل ما قامت به صفة أو فعل بمشيئته فهو محدث وممكن ، لزمهم القول بحدوث كل موجود ، إذ كان الخالق جل جلاله منصفاً بما يقوم به من الصفات والأمور الاختيارات ، مثل أنه متكلم بمشيئته وقدرته ، ويخلق ما يخلقه بمشيئته وقدرته ، لكن هؤلاء اعتقدوا انتفاء هذه الصفات عنه لاعتقادهم صحة القول بأن ما قامت به الصفات والحوادث فهو حادث ، لأن ذلك لا يخلو من الحوادث ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث . وإذا كان حادثاً كان له محدث قديم ، واعتقدوا أنهم أثبتوا الرب وأنه ذات مجردة عن الصفات ، ووجوده مطلق لا يشار إليه ولا يتعين ، ويقولون هو بلا إشارة ولا تعيين وهذا الذي أثبتوه لا حقيقة له في الخارج ، وإنما هو الذهن ، فكان ما أثبتوه واعتقدوا أنه الصانع للعالم إنما يتحقق في الأذهان لا في الأعيان ، وكان حقيقة قولهم تعطيل الصانع .

أخطاء الفرق في الاستدلال أوصلتهم إلى حدوث الله

فجاء إخوانهم في أصل المقالة وقالوا هذا الوجود المطلق المجرد عن

الصفات هو الوجود الساري في الموجودات ، فقالوا بحلوله في كل شيء .

وقال آخرون منهم : هو وجود كل شيء .

ومنهم من فرق بين الوجود والثبوت .

ومنهم من فرق بين التعيين والإطلاق .

ومنهم من جعله في العالم كالمادة في الصورة .

ومنهم من جعله في العالم كالزبد في اللبن ، وكالزيت والسارج في السمسم والزيتون .

وقد بسط الكلام على هؤلاء في غير هذا الموضع .

أساس الخطأ

والمقصود هنا أن الأصل الذي أضلهم قولهم ما قامت به الصفات والأفعال والأمور الاختيارية أو الحوادث فهو حادث ، ثم قالوا والجسم لا يخلو من الحوادث ، وأثبتوا ذلك بطرق : منهم من قال لا يخلو عن الأكوان الأربعة : الحركة والسكون والاجتماع والافتراق .

ومنهم من قال لا يخلو عن الحركة والسكون فقط .

ومنهم من قال لا يخلو عن الأعراض ، والأعراض كلها حادثة وهي لا تبقى زمانين ، وهذه طريقة الآمدي ، وزعم أن أكثر أصحاب الأشعرية اعتمدوا عليها . والرازي اعتمد على طريقة الحركة والسكون .

وقد بسط الكلام على هذه الطرق وجميع ما احتجوا به على حدوث الجسم وإمكانه ، وذكرنا في ذلك كلامهم هم أنفسهم في فساد جميع هذه الطرق وأنهم هم بينوا فساد جميع ما استدل به على حدوث الجسم وإمكانه ، وبينوا فسادها طريقاً طريقاً بما ذكروه ، كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع .

وأما الهشامية والكرامية وغيرهم ممن يقول بأنه جسم قديم ، فقد شاركوهم في أصل هذه المقالة ، لكن لم يقولوا بحدوث كل جسم ولا قالوا إن التجسم لا ينفك عن الحوادث؛ إذ كان القديم عندهم جسماً قديماً وهو خال من الحوادث .

أهل الضلال بين مجسم أو معطل أو مشبه

وقد قيل أول من قال في الإسلام إن القديم جسم هو هشام بن الحكم ، كما أن أول من أظهر في الإسلام في الجسم هو الجهم بن صفوان . وكلام السلف والأئمة في ذم الجهمية كثير مشهور ، فإن مرض التعطيل شر من مرض الجسم ، وإنما كان السلف يذمون المشبهة كما قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وإسحاق بن راهوية وغيرهما ، قالوا المشبهة الذين يقولون بصر كبصري ، (أي: لله بصر كبصر الإنسان) ، ويد كيدي ، وقدم كقدمي ، وابن كلاب ومن تبعه أثبتوا الصفات التي لا تثبت بمشيئته وقدرته فينفونها ، قالوا لأنها حادثة ولو قامت به الحوادث لكان حادثاً لأن ما قبل الشيء لم يخل عنه وعن ضده ، فلو قبل بعض هذه الحوادث لم يخل منه ومن ضده فلم يخل من الحوادث فيكون حادثاً .

رأي ابن كرام

ومحمد بن كرام ، فكان بعد ابن كلاب في عصر مسلم بن الحجاج ، أثبت أنه يوصف بالصفات الاختياريات ، ويتكلم بمشيئته وقدرته ، ولكن عنده يمتنع أنه كان في الأول متكلماً بمشيئته وقدرته لامتناع حوادث لا أزل لها ، فلم يقل بقول السلف إنه لم يزل متكلماً إذا شاء بل قال إنه صار يتكلم بمشيئته وقدرته كما صار يفعل بمشيئته وقدرته بعد أن لم يكن كذلك .

وقال هو وأصحابه في المشهور عنه: إن الحوادث التي تقوم به لا يخلو منها ولا يزول عنها، لأنه لو قامت به الحوادث ثم زالت عنه كان قابلاً لحدوثها وزوالها، وإذا كان قابلاً كذلك لم يخل منه، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث، وإنما يقبل على أصلهم أنه تقوم به الحوادث فقط كما يقبل أن يفعلها ويحدثها، ولا يلزم من ذلك أنها لم تخل منه، كما لم يلزم أنه لم يزل فاعلاً لها. والحدوث عندهم غير الإحداث، والقرآن عندهم حادث لا محدث، لأن المحدث يفتقر إلى إحداث بخلاف الحدوث، وهم إذا قالوا كان خالياً منها في الأزل وكان ساكناً لم يقولوا إنه قام به حادث، بل يقولون السكون أمر عدمي كما يقوله الفلاسفة، ولكن الحركة أمر وجودي بخلاف ما يقوله من المعتزلة والأشعرية إن السكون أمر وجودي كالحركة، فإذا حصل به حادث لم يكن ثم عدم هذا الحادث، فإنما يعدم الحادث بإحداث يقوم به وهذا ممتنع.

وهم يقولون إنه يمتنع عدم الجسم، وعندهم أن الباري يقوم به إحداث المخلوقات وإفناؤها، فالحوادث التي تقوم بـه لو أفناها لقام به الإحداث والإفناء، فكان قابلاً لأن يحدث فيه حادث ويفني ذلك الحادث، وما كان كذلك لم يخل من إحداث وإفناء، فلم يخل من الحوادث، وما لم يخل منها فهو حادث، وإنما كان كذلك لأن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده، كما قالت الكلابية.

الفرق بينهم وبين المعتزلة

لكن المعتزلة يقولون السكون ضد الحركة، فالقابل لأحدهما لا يخلو عنه وعن الآخر وهؤلاء يقولون السكون ليس بضد وجودي بل هو عدمي، وإنما الوجودي هو الإحداث والإفناء، فلو قبل قيام الإحداث والإفناء به لكان

قابلاً لقيام الأضداد الوجودية ، والقابل لشيء لا يخلو عنه وعن ضده .

وهؤلاء لما أراد منازعوهم إبطال قولهم كان عمدتهم بيان تناقض أقوالهم ، كما ذكر ذلك أبو المعالي وأتباعه ، وكما ذكر الآمدي تناقضهم من وجوه كثيرة قد ذكرت في غير هذا الموضع ، وغايتها أنها تدل على مناقضتهم لا على صحة مذهب المنازع .

الخلاف في كيفية كلام الله لموسى

وثم طائفة كثيرة تقول إنه تقوم به الحوادث وتزول ، وإنه كلم موسى بصوت ، وذلك الصوت عدم ، وهذا مذهب أئمة السنة والحديث من السلف وغيرهم ، وأظن الكراهية لهم في ذلك قولان ، وإلا فالقول بفناء الصوت الذي كلم به موسى من جنس القول بقدمه كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكلام والحديث والفقه من السالمية وغيرهم ومن الحنبلية والشافعية والمالكية يقول إنه كلم موسى بصوت سمعه موسى وذلك الصوت قديم ، وهذا القول يعرف فساده ببديهة العقل ، وكذلك قول من يقول كلمه بصوت حادث وأن ذلك الصوت باق لا يزال هو وسائر ما يقوم به من الحوادث هي أقوال يعرف فسادها بالبديهة .

الرد على الجهمية بالإيجاب لا بالسلب

وإنما أوقع هذه الطوائف في هذه الأقوال ذلك الأصل الذي تلقوه عن الجهمية ، وهو أن ما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وهو باطل عقلاً وشرعاً ؛ وهذا الأصل فاسد مخالف للعقل والشرع ، وبه استطالت عليهم الفلاسفة الدهرية فلا للإسلام نصروا ولا لعدوه كسروا ، بل قد خالفوا السلف والأئمة ، وخالفوا العقل والشرع ؛ وسلطوا عليهم وعلى المسلمين

عدوهم من الفلاسفة والدهرية والملاحدة بسبب غلطهم في هذا الأصل الذي جعلوه أصل دينهم ، ولو اعتصموا بما جاء به الرسول لوافقوا المنقول والمعقول وثبت لهم الأصل ، ولكن ضيعوا الأصول فحرموا الوصول ، والأصول اتباع ما جاء به الرسول.

أصولهم ليس لها أساس أو قرار

وأحدثوا أصولاً ظنوا أنها أصول ثابتة وكانت كما ضرب الله المثلين مثل البناء والشجرة ، فقال في المؤمنين والمنافقين ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ على تقوى مِنَ اللهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾[1].

وقال ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابتٌ وَفَرْعُها في السَّماءِ ★ تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللهُ ٱلْأَمْثالَ للنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ★ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ما لها مِنْ قَرارٍ ★ يُثَبِّتُ اللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱلْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي ٱلْحَياةِ الدُّنْيا وفي ٱلآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ ﴾[2].

والأصول مأخوذة من أصول الشجرة وأساس البناء ، ولهذا يقال فيه الأصل ما ابتني عليه غيره أو ما يفرع عنه غيره.

فالأصول الثابتة هي أصول الأنبياء كما قيل:

أيها المفتدي لتطلب علما كل علم عبد لعلم الرسول

---

(١) التوبة ١٠٩.

(٢) إبراهيم ٢٤.

تطلب الفرع كي تصحح حكما ثم أغفلت أصل أصل الأصول

والله يهدينا وسائر إخواننا المؤمنين إلى صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وَحَسُنَ أولئك رفيقاً.

وهذه الأصول ينبني عليها ما في القلوب ويتفرع عليها.

الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

وقد ضرب الله مثل الكلمة الطيبة التي في قلوب المؤمنين ومثل الكلمة الخبيثة التي في قلوب الكافرين.

والكلمة هي قضية جازمة وعقيدة جامعة، ونبينا ﷺ أوتي فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه، فبعث بالعلوم الكلية والعلوم الأولية والآخرية على أتم قضية.

معنى الكلمة الطيبة

فالكلمة الطيبة في قلوب المؤمنين وهي العقيدة الإيمانية التوحيدية كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، فأصل أصول الإيمان ثابت في قلب المؤمن كنبات أصل الشجرة الطيبة وفرعها في السماء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[1].

والله سبحانه مثّل الكلمة الطيبة أي كلمة التوحيد بشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

---

(١) فاطر ١٠.

فبين بذلك أن الكلمة الطيبة لها أصل ثابت في قلب المؤمن ، ولها فرع عال ، وهي ثابتة في قلب ثابت كما قال ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱلْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي ٱلْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾[1] فالمؤمن عنده يقين وطمأنينة ، والإيمان في قلبه ثابت مستقر ، وهو (أي المؤمن) في نفسه ثابت على الإيمان مستقر لا يتحول عنه ،

معنى الكلمة الخبيثة

والكلمة الخبيثة ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾[2] استؤصلت واجتثت كما يقطع الشيء يجتث من فوق الأرض ﴿ ما لها مِنْ قَرارٍ ﴾[2] لا مكان تستقر فيه ولا استقرار في المكان فإن القرار يراد به مكان الاستقرار ، كما قال تعالى ﴿ وَبِئْسَ ٱلْقَرارُ ﴾[3] وقال ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَراراً ﴾[4] ويقال فلان ما له قرار أي ثبات . وقد فسر القرار في الآية بهذا وهذا .

فالمبطل ليس قوله ثابتاً في قلبه ، ولا هو ثابت فيه ولا يستقر ، كما قال تعالى في المثل الآخر ﴿ فأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[5] فإنه وإن اعتقده مدة فإنه عند الحقيقة يخونه ، كالذي يشرك بالله فعند الحقيقة يضل عنه ما كان يدعو من دون الله .

---

(١) إبراهيم ٢٧ .
(٢) إبراهيم ٢٦ .
(٣) إبراهيم ٢٩ .
(٤) غافر ٦٤ .
(٥) الرعد ١٧ .

الفرق بين من معه أصل ومن ليس معه أصل

وكذلك الأفعال الباطلة التي يعتقدها الإنسان عند الحقيقة تخونه ولا تنفعه، بل هي كالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

فمن كان معه كلمة طيبة أصلها ثابت كان له فرع في السماء يوصله إلى الله، فإنه سبحانه إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، ومن لم يكن معه أصل ثابت فإنه يحرم الوصول لأنه ضيع الأصول. ولهذا تجد أهل البدع والشبهات لا يصلون إلى غاية محمودة كما قال تعالى ﴿لَهُ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلى ٱلْماءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ ٱلْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[1].

كيف يتمثل المؤمن ربه

والله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب بأن يكون هو المعبود وحده لا شريك له، وإنما يعبد بما أمر به على ألسن رسله.

وأصل عبادته (أي: وأصل عبادة الإنسان لله معرفته بما وصف الله به نفسه في كتابه الخ..) معرفته بما وصف به نفسه في كتابه وما وصفه به رسله، ولهذا كان مذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وما وصفه به رسله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. والذين ينكرون بعض ذلك ما قدروا الله حق قدره، وما عرفوه حق معرفته، ولا وصفوه حق صفته، ولا عبدوه حق عبادته.

---

(١) الرعد ١٤.

والله سبحانه قد ذكر هذه الكلمة ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[1] في ثلاثة مواضع ليثبت عظمته في نفسه وما يستحقه من الصفات ، وليثبت وحدانيته وأنه لا يستحق العبادة إلا هو ، وليثبت ما أنزله على رسله فقال في الزمر ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾[2] الآية .

قال في الحج ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ ﴿ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[3] .

وقال في الأنعام ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا ما أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾[4] .

تفسير الآية ﴿ما قدروا الله حق قدره﴾

وفي المواضع الثلاثة ذم الذين ما قدروه حق قدره من الكفار ، فدل ذلك على أنه يجب على المؤمن أن يقدر الله حق قدره ، كما يجب عليه أن يتقيه حق تقاته ، وأن يجاهد فيه حق جهاده . قال تعالى ﴿وَجَاهَدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ﴾[5] وقال ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ﴾[6] والمصدر هنا مضاف إلى المفعول والفاعل مراد أي حق جهاده الذي أمركم به ، وحق تقاته التي أمركم بها ، واقدروه قدره الذي بينه لكم وأمركم به : فصدقوا الرسول فيما أخبر وأطيعوه فيما أوجب وأمر . وأما ما يخرج عن طاقة البشر فذلك لا يذم أحد على تركه . قالت عائشة : فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو .

---

(١) الحج ٧٤ .

(٢) الزمر ٦٧ .

(٣) الحج ٧٤ .

(٤) الأنعام ٩١ .

(٥) الحج ٧٨ .

(٦) آل عمران ١٠٢

ودلت الآية على أن له قدراً عظيماً لا سيما قوله ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ والسَّموات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[1].

وفي تفسير ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: من آمن بأن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره.

أحاديث للرسول حول هذه الآية

وقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية لما ذكر له بعض اليهود أن الله يحمل السموات على أصبع والأرضين على أصبع، والجبال على أصبع، والشجر والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، فضحك رسول الله ﷺ تعجباً وتصديقاً لقول الحبر وقرأ هذه الآية.

وعن ابن عباس قال: مر يهودي بالنبي ﷺ فقال يا أبا القاسم ما تقول إذا وضع الله السماء على ذه، والأرض على ذه، والجبال والماء على ذه، وسائر الخلق على ذه، فأنزل الله تعالى ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ والسَّموات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[2] رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي الضحى عن ابن عباس وقال غريب حسن صحيح.

وهذا يقتضي أن عظمته أعظم مما وصف ذلك الحبر فإن الذي في الآية أبلغ كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض».

---

(١) الزمر ٦٧.

(٢) الزمر ٦٧.

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أين الملوك أين الجبارون أين المتكبرون» ورواه مسلم أبسط من هذا وذكر فيه أنه يأخذ الأرض بيده الأخرى.

وقد روى ابن أبي حاتم خدثنا أبي ثنا (أي: حدثنا مختصرة) عمرو بن رافع ثنا يعقوب بن عبد الله عن جعفر عن سعيد بن جبير قال: تكلمت اليهود في صفة الرب تبارك وتعالى فقالوا ما لم يعلموا ولم يروا، فأنزل الله على نبيه ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ وَالسَّمواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] فجعل صفته التي وصفوا بها شركاً.

وقال (أي: ابن أبي حاتم) حدثنا أبي ثنا أبو نعيم ثنا الحكم يعني أبا معاذ عن الحسن قال: عمدت اليهود فنظروا في خلق السموات والأرض والملائكة، فلما فرغوا أخذوا يقدرونه، فأنزل الله تعالى على نبيه ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[1] وهذا يدل على أنه أعظم مما وصفوه وأنهم لم يقدروه حق قدره.

وقوله ﴿عمّا يُشْرِكُونَ﴾[1] فكل من جعل مخلوقاً مثلاً للخالق في شيء من الأشياء فأحبه مثل ما يحب الخالق، أو وصفه بمثل ما يوصف به الخالق، فهو مشرك سوّى بين الله وبين المخلوق في شيء من الأشياء، فعدل بربه، والرب تعالى لا كفؤ له، ولا سميَّ له، ولا مثل له: ومن جعله مثل المعدوم والممتنع فهو شر من هؤلاء، فإنه معطل ممثل، والمعطل شر من المشرك.

---

(١) الزمر ٦٧.

والله ذكر قصة فرعون في القرآن في غير موضع لاحتياج الناس إلى الاعتبار بها ، فإنه حصل له من الملك ودعوى الربوبية والإلهية والعلو ما لم يحصل مثله لأحد من المعطلين ، وكانت عاقبته إلى ما ذكر الله تعالى .

لا أحد يماثل الله في صفة من صفاته

وليس لله صفة يماثله فيها غيره ، فلهذا لم يجز أن يستعمل في حقه قياس التمسك ولا قياس السموك الذي يستوي أفراده ، فإن ذلك شرك ، إذ سوّى فيه بالمخلوق ، بل قياس الأولى فإنه سبحانه له المثل الأعلى في السموات والأرض ؛ فهو أحق من غيره بصفات للكمال ، وأحق من غيره بالتنزيه عن صفات النقص وقد بسطت هذه الأمور في غير هذا الموضع .

وبين (بيّن : أي واضح) أن من جعله (أي : جعل الله) الوجود المطلق والمقيد بالسلب ، أو ذاتاً مجردة فهؤلاء مثلوه بأنقص المعقولات الذهنية ، وجعلوه دون الموجودات الخارجية والنفاة الذين قصدوا إثبات حدوث العالم بإثبات حدوث الجسم لم يثبتوا بذلك حدوث شيء ، كما قد بين في موضعه .

نفي الجسم وحده لا يكفي لتنزيه الله

ثم إنهم جعلوا عمدتهم في تنزيه الرب عن النقائص على نفي الجسم . ومن سلك هذا المسلك لم ينزه الله عن شيء من النقائص البتة ، فإنه ما من صفة ينفيها لأنها تستلزم التجسيم وتكون من صفات الأجسام إلا يقال له فيما أثبته نظير ما يقوله هو في نفس تلك الصفة ، فإن كان مثبتاً لبعض الصفات ، قيل له القول في هذه الصفة التي ينفيها كالقول فيما أثبته ، فإن كان هذا تجسيماً وقولاً باطلاً فهذا كذلك . وإن قلت : أنا أثبت هذا على الوجه الذي يليق

بالرب ، قيل له : وكذلك هذا كذلك . وإن قلت : أنا أثبته وأنفي التجسيم ، قيل ذلك وهذا كذلك ، فليس لك أن تفرق بين المتماثلين .

وإن ممن يثبت الأسماء وينفي الصفات كالمعتزلة قيل له في الصفات ما يقوله هو في الأسماء ، فإذا كان يثبت حياً عالماً قادراً وهو لا يعرف من هو متصف بذلك إلا جسماً كان إثبات أن له علماً وقدرة كما نطق به الكتاب والسنة كذلك . وإن كان ممن لا يثبت لا الأسماء ولا الصفات كالجهمية المحضة والملاحدة ، قيل له فلا بد أن تثبت ، موجوداً قائماً بنفسه ، وأنت لا تعرف ذلك إلا جسماً . وإن قال لا أسميه باسم لا إثبات ولا نفي قيل له سكوتك لا ينفي الحقائق ، ولا واسطة بين النفي والإثبات ، فإما أن يكون حقاً ثابتاً موجوداً وإما أن يكون باطلاً معدوماً .

وأيضاً فإن كنت لم تعرفه فأنت جاهل فلا تتكلم ، وإن عرفته فلا بد أن تميز بينه وبين غيره بما يختص به ، مثل أن يقول رب العالمين ، أو القديم الأزلي ، أو الموجود بنفسه ونحو ذلك ، وحينئذ فقد أثبت حياً موجوداً قائماً بنفسه وأثبته فاعلاً ، وأنت لا تعرف ما هو كذلك إلا الجسم .

وإن قدر أنه جاحد له ، قيل له فهذا الوجود مشهود ، فإن كان قديماً أزلياً موجوداً بنفسه ، فقد يثبت جسم قديم أزلي موجود بنفسه ، وهو ما فررت منه .

وإن كان مخلوقاً مصنوعاً فله خالق خلقه ، ولا بد أن يكون قديماً أزلياً ، فقد ثبت الموجود القائم بنفسه القديم الأزلي على كل تقدير . وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

وهنا قد نبهنا على ذلك ، وأنه كل من بنى تنزيهه للرب عن النقائص والعيوب على نفي الجسم ، فإنه لا يمكنه أن ينزهه عن عيب أصلاً بهذه

الحجة ، وكذلك من جعل عمدته نفي التركيب .

ومن تدبر ما ذكروه في كتبهم تبين له أنهم لم يقيموا حجة على وجوده ، فلا هم أثبتوه وأثبتوا ما يستحقه ولا نزهوه ونفوا عنه ما لا يجوز عليه ، إذ كان إثباته هو إثبات حدوث الجسم ولم يقيموا على ذلك دليلاً ، والنفي اعتمدوا فيه على ذلك وهم متناقضون فيه لو كانوا أقاموا دليلاً على نفي كونه جسماً ، فكيف إذا لم يقيموا على ذلك دليلاً وتناقضوا .

أصل الخطأ الخروج عن الكتاب والسنة

وهذا مما يتبين لك أن من خرج عن الكتاب والسنة فليس معه علم لا عقلي ولا سمعي ، لا سيما في هذا المطلوب الأعظم ، لكنهم قد يكونون معتقدين لعقائد صحيحة عرفوها بالفطرة العقلية ، وبما سمعوه من القرآن ودين المسلمين ، فقلوبهم تثبت ما تثبت وتنفي ما تنفي بناء على هذه الفطرة المكملة بالشرعة المنزلة ، لكنهم سلكوا هذه الطرق البدعية وليس فيها علم أصلاً ، ولكن يستفاد من كلامهم إبطال بعضهم لقول المبطل الآخر وبيان تناقضه . ولهذا لما ذكروا المقالات الباطلة في الرب جعلوا يردونها بأن ذلك تجسيم كما فعل القاضي أبو بكر في هداية المسترشدين وغيره ، فلم يقيموا حجة على أولئك المبطلين ، وردوا كثيراً مما يقول اليهود بأنه تجسيم .

وقد كان اليهود عند النبي ﷺ بالمدينة ، وكانوا أحياناً يذكرون له بعض الصفات كحديث الحبر ، وقد ذم الله اليهود على أشياء كقولهم إن الله فقير ، وإن يده مغلولة ، وغير ذلك ، ولم يقل النبي ﷺ قط إنهم يجسمون ، ولا إن في التوراة تجسيماً ، ولا عليهم بذلك ، ولا رد هذه الأقوال الباطلة بأن هذا تجسيم كما فعل ذلك من فعله من النفاة ، فبين أن هذه الطريقة مخالفة

للشرع والعقل، وأنها مخالفة لما بعث الله به رسوله ولما فطر عليه عباده، وأن أهلها من جنس الذين قالوا ﴿وقالوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا في أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾[1].

فساد طريقة الرازي

وقد بينا في غير هذا الموضع فساد ما ذكره الرازي من أن طريقة الوجوب والإمكان من أعظم الطرق وبينا فسادها وأنها لا تفيد علماً، وأنهم لم يقيموا دليلاً على إثبات واجب الوجود، وأن طريقة الكمال أشرف منها وعليها اعتماد العقلاء قديماً وحديثاً، وهو (أي الرازي) قد اعترف في آخر عمره بأنه قد تأمل الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما وجدها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ووجد أقرب الطرق طريقة القرآن.

فساد طريقة ابن سينا

وطريقة الوجوب والإمكان لم يسلكها أحد قبل ابن سينا، وهو أخذها من كلام المتكلمين الذين قسموا الوجود إلى محدث وقديم، فقسمه هو إلى واجب وممكن، ليمكنه القول بأن الفلك ممكن مع قدرته وخالف بذلك عامة العقلاء من سلفه وغير سلفه وخالف نفسه، فإنه قد ذكر في المنطق ما ذكره سلفه من أن الممكن لا يكون إلا محدثاً كما قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع.

يشبهون فرعون في جحد الإله

ثم إن هؤلاء الذين سلكوا هذه الطريقة انتهت بهم إلى قول فرعون، فإن

(١) الملك ١٠.

فرعون جحد الخالق وكذب موسى في أن الله كلمه ، وهؤلاء ينتهي قولهم إلى جحد الخالق. وإن أثبتوه قالوا إنه لا يتكلم ولا نادى أحداً ولا ناجاه ، وعمدتهم في نفي ذاته على نفي الجسم ، وفي نفي كلامه وتكليمه لموسى على أنه لا تحلّه الحوادث فلا يبقى عندهم رب ولا مرسل.

فحقيقة قولهم تناقض شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإن الرسول هو المبلغ لرسالة مرسله ، والرسالة هي كلامه الذي بعثه به ، فإذا لم يكن متكلماً لم تكن رسالة.

الصحيح أن الله متكلم

ولهذا اتفق الأنبياء على أن الله يتكلم ، ومن لم يقل إنه يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً يقوم بذاته لم يقل إنه يتكلم. والنفاة منهم من يقول: الكلام صفة فعل بمعنى أنه مخلوق بائن عنهم ، ومنهم من يقول هو صفة ذات بمعنى أنه كالحياة يقوم بذاته ، وهو لا يتكلم بمشيئته وقدرته. وكل طائفة مصيبة في إبطال باطل الأخرى.

الصحيح في صفة كلام الله

والدليل يقوم على أنه (أي كلام الله) صفة ذات وفعل تقوم بذات الرب ، والرب يتكلم بمشيئته وقدرته. فأدلة من قال إنه صفة فعل كلها إنما تدل على أنه يتكلم بقدرته ومشيئته وهذا حق ، وأدلة من قال إنه صفة ذات إنما تدل على أن كلامه يقوم بذاته وهذا حق. وأما من أثبت أحدهما كمن قال إن كلامه مخلوق ، أو قال إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، فهؤلاء في الحقيقة لم يثبتوا أنه يتكلم ، ولا أثبتوا له كلاماً ، ولهذا يقولون ما لا يعقل. هذا يقول إنه معنى واحد قام بالذات ، وهذا يقول حروف أو حروف

وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته، وهذا يقول مخلوق بائن عنه.

ولهذا لما ظهر لطائفة من أتباعهم ما في قولهم من الفساد ولم يعرفوا غير هذه الأقوال الثلاثة (الأقوال الثلاثة: ١ - أنه مخلوق. ٢ - أنه بحرف وصوت قديم. ٣ - معنى قائم بذات الله). حاروا وتوقفوا، وقالوا نحن نقر بما عليه عموم المسلمين من أن القرآن كلام الله، وأما كونه مخلوقاً، أو بحرف وصوت، أو معنى قائم بالذات فلا نقول شيئاً من هذا.

ومعلوم أن الهدى في هذه الأصول ومعرفة الحق فيها ومعرفة ما جاء به الرسول وهو الموافق لصريح المنقول أنفع وأعظم من كثير مما يتكلمون فيه من العلم لا سيما والقلوب تطلب معرفة الحق في هذه بالفطرة، ولما قد رأوا من اختلاف الناس فيها.

وهؤلاء يذكرون هذا الموقف في عقائدهم وفيما صنفوه في أصول الدين كما قد رأيت منهم من أكابر شيوخ العلم والدين، بمصر والشام قد صنفوا في أصول الدين ما صنفوه، ولما تكلموا في مسألة القرآن وهل هو مخلوق أو قديم، أو هو الحروف، والأصوات أو معنى قائم بالذات، نهوا عن هذه الأقوال وقالوا الواجب أن يقال ما قاله المسلمون كلهم إن القرآن كلام الله ويمسك (أي: لا تقول بواحد من الأقوال الثلاثة المشار إليها) عن هذه الأقوال.

فساد الأقوال الثلاثة

وهؤلاء توقفوا عن حيرة وشك، ولهم رغبة في العلم والهدى والدين، وهم من أحرص الناس على معرفة الحق في ذلك وغيره، لكن لم يعلموا إلا هذه الأقوال الثلاثة: قول المعتزلة والكلابية والسالمية، وكل طائفة تبين فساد

قول الأخرى ، وفي كل قول من الفساد ما يوجب الامتناع من قبوله ، ولم يعلموا قولاً غير هذه ، فرضوا بالجهل البسيط ، وكان أحب إليهم من الجهل المركب .

وكان أسباب ذلك أنهم وافقوا هؤلاء على أصل قولهم ودينهم ، وهو الاستدلال على حدوث الأجسام وحدوث العالم بطريقة أهل الكلام المبتدع ، كما سلكها من ذكرته من أجلاء شيوخ أهل العلم والدين والاستدلال على إمكانها بكونها مركبة كما سلك الشيخ الآخر ، وهذا ينفي عن الواجب أن يكون جسماً بهذه الطريقة ، وذلك نفي عنه أنه جسم بتلك الطريقة ،وحذاق النظار الذين كانوا أخبر بهذه الطرق وأعظم نظراً واستدلالاً بها وبغيرها قد عرفوا فسادها ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

المكذبون بالرسل يجزيهم ربهم بجنس تكذيبهم

والله سبحانه قد أخبر أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وأخبر أنه ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، والله سبحانه يجزي الإنسان بجنس عمله ، فالجزاء من جنس العمل ، فمن خالف الرسل عوقب بمثل ذنبه ، فإن كان قد قبح فيهم ونسب ما يقولونه إلى أنه جهل وخروج عن العلم والعقل ، ابتلي في عقله وعلمه ، وظهر من جهله ، ما عوقب به ، ومن قال عنهم إنهم تعمدوا الكذب أظهر الله كذبه ، ومن قال إنهم جهال أظهر الله جهله .

أمثلة على انتقام الله من المكذبين

ففرعون وهامان وقارون لما قالوا : عن موسى إنه ساحر كذاب ، أخبر الله بذلك عنهم في قوله : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وسُلْطانٍ مُبينٍ ★

إلى ﴿فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ﴾[1] وطلب فرعون إهلاكه بالقتل، وصار يصفه بالعيوب كقوله ﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ﴾[2]: وقال ﴿أَمْ أَنا خَيْرٌ مِنْ هذا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ﴾[3] أهلك الله فرعون وأظهر كذبه وافتراءه على الله وعلى رسله، وأذله غاية الإذلال؛ وأعجزه عن الكلام النافع فلم يبين حجة.

وفرعون هذه الأمة أبو جهل، كان يسمى أبا الحكم، ولكن النبي ﷺ سماه أبا جهل، وهو كما سماه رسول الله ﷺ أبو جهل أهلك به نفسه وأتباعه في الدنيا والآخرة.

والذين قالوا: عن الرسول ﷺ إنه أبتر، وقصدوا أنه يموت، فينقطع ذكره، عوقبوا بانبتارهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[4] فلا يوجد من شنأ الرسول إلا بتره الله، حتى أهل البدع المخالفون لسنته.

قيل لأبي بكر بن عياش: إن بالمسجد قوماً يجلسون للناس ويتكلمون بالبدعة، فقال: من جلس للناس جلس الناس إليه، لكن أهل السنة يبقون ويبقى ذكرهم، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم.

شبه الجهمية بفرعون

وهؤلاء المشبهون لفرعون الجهمية نفاة الصفات الذين وافقوا فرعون في

---

(١) غافر ٢٤، ٢٥.
(٢) غافر ٢٦.
(٣) الزخرف ٥٢.
(٤) الكوثر ٣.

جحده وقالوا : إنه ليس فوق السموات ، وإن الله لم يكلم موسى تكليماً كما قال فرعون : ﴿يَا هامانَ ابنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَابَ ★ أَسْبابَ السَّمواتِ فَأَطَّلِعَ إلى إلَهِ مُوسى وَإِنّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً﴾[1] وكان فرعون جاحداً للرب فلولا أن موسى أخبره أن ربه فوق العالم لما قال « أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً » قال تعالى : ﴿وكَذلكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إلاّ في تَبَابٍ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّها ٱلْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْري فَأَوْقِدْ لي يا هامانُ عَلى الطِّينِ فاجْعَلْ لي صَرْحاً لَعَلّي أَطَّلِعُ إلى إلَهِ مُوسى وَإِنّي لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكاذِبينَ ★ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ في ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَينا لا يُرْجَعُونَ ★ فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ في ٱلْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظّالِمينَ ★ وجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إلى النّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ ★ وَأَتْبَعْنَاهُمْ في هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيامَةِ هُمْ مِنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾[3] .

حديث النبي يدل على أن الله فوق السموات

ومحمد ﷺ لما عرج به إلى ربه ، وفرض عليه الصلوات الخمس ، ذكر أنه رجع إلى موسى وأن موسى قال له ارجع إلى ربك فسله التخفيف إلى أمتك كما تواتر هذا في أحاديث المعراج ، فموسى صدق محمداً في أن ربه فوق ، وفرعون كذب موسى في أن ربه فوق ، فالمقرّون بذلك متبعون لموسى ومحمد ، والمكذبون بذلك موافقون لفرعون .

---

(١) غافر ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) غافر ٣٧ .

(٣) القصص ٣٨ - ٤٢ .

دليل الأشعري على أن الله فوق

وهذه الحجة مما اعتمد عليها غير واحد من النظار ، وهي مما اعتمد عليه أبو الحسن الأشعري في كتابه في الإبانة ، وذكر عدة أدلة عقلية وسمعية على أن الله فوق العالم وقال في أوله :

فإن قال قائل : قد أنكرتم قول الجهمية ، والقدرية والخوارج ، والروافض والمعتزلة والمرجئة ، فعرفونا قولكم الذي به تقولون ، وديانتكم التي بها تدينون .

قيل له : قولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها ، التمسك بكتاب ربنا ، وسنة نبينا ، وما جاء عن الصحابة والتابعين ، وأئمة المسلمين ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل قائلون ، ولما خالف قوله مجانبون ، فإنه الإمام الكامل ، والرئيس الفاضل ، الذي أبان الله به الحق ، وأوضح به المناهج ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين ، وشك الشاكين ، فرحمه الله من إمام مقدم ، وكبير مفهم ، وعلى جميع أئمة المسلمين ، وذكر جملة الاعتقاد والكلام على علو الله على العرش ، وعلى الرؤية ، ومسألة القرآن ، ونحو ذلك ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

المعطلة والنفاة ليس لهم دليل

والمقصود هنا أن المعطلة نفاة الصفات ، أو نفاة بعضها ، لا يعتمدون في ذلك على ما جاء به الرسول ، إذ كان ما جاء به الرسول إنما يتضمن الإثبات لا النفي ، لكن يعتمدون في ذلك على ما يظنونه أدلة عقلية ، ويعارضون بذلك ما جاء به الرسول .

وحقيقة قولهم أن الرسول لم يذكر في ذلك ما يرجع إليه ، لا من سمع ،

ولا عقل ، فلم يخبر بذلك خبراً بين به الحق على زعمهم ، ولا ذكر أدلة عقلية تبين الصواب في ذلك على زعمهم ، بخلاف غير هذا ، فإنهم معترفون بأن الرسول ذكر في القرآن أدلة عقلية على ثبوت الرب ، وعلى صدق الرسول . وقد يقولون أيضاً إنه أخبر بالمعاد ، لكن نفوا الصفات لما رأوا أن ما ذكروه من النفي لم يذكره الرسول فلم يخبر به ، ولا ذكر دليلاً عقلياً عليه ، بل إنما ذكر الإثبات ، وليس هو في نفس الأمر حقاً ، فأحوجَ الناسَ إلى التأويل أو التفويض .

عقاب الله للمعطلة يكون من جنس الذنب

فلما نسبوا ما جاء به الرسول إلى أنه ليس فيه لا دليل سمعي ولا عقلي ، لا خبر يبين الحق ؛ ولا دليل يدل عليه ، عاقبهم الله بجنس ذنوبهم ، فكان ما يقولونه في هذا الباب خارجاً عن العقل والسمع . مع دعواهم أنه من العقليات البرهانية ، فإذا اختبره العارف وجده من الشبهات الشيطانية ، من جنس شبهات أهل السفسطة والإلحاد ، الذين يقدحون (أي : يذمون) في العقليات والسمعيات ، وأما السمع فخلافهم له ظاهر لكل أحد ، وإنما يظن من يعظمهم ويتبعهم أنهم أحكموا العقليات ؛ فإذا حقق الأمر وجدهم كما قال أهل النار ﴿وقالوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا في أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾[1] وكما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتّى إذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفّاهُ حِسابَهُ ، واللهُ سَرِيعُ الْحِساب ★ أَوْ كَظُلُماتٍ في بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يراها وَمَنْ لَمْ

---

(١) الملك ١٠ .

يَجْعَلِ اللهُ له نُوراً فما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾[٢].

فلما كان حقيقة قولهم أن القرآن والحديث ليس فيه في هذا الباب دليل سمعي ولا عقلي، سلبهم الله في هذا الباب معرفة الأدلة السمعية والعقلية، حتى كانوا من أضل البرية، مع دعواهم أنهم أعلم من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، بل قد يدعون أنهم أعلم من النبيين، وهذا ميراث من فرعون وحزبه اللعين.

أول من أظهر التعطيل

وقد قيل إن أول من عرف أنه أظهر في الإسلام التعطيل الذي تضمنه قول فرعون، هو الجعد بن درهم، فضحى به خالد بن عبد الله القسري وقال: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم، إني مضحٍ بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً، ثم نزل فذبحه، وشكر له علماء المسلمين ما فعله كالحسن البصري وغيره.

وهذا الجعد إليه ينسب مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بني أمية، وكان شؤمه عاد عليه حتى زالت الدولة، فإنه إذا ظهرت البدع التي تخالف دين الرسل، انتقم الله ممن خالف الرسل، وانتصر لهم، ولهذا لما ظهرت الملاحدة الباطنية، وملكوا الشام وغيرها، ظهر فيها النفاق والزندقة الذي هو باطن أمرهم، وهو حقيقة قول فرعون إنكار الصانع وإنكار عبادته، وخيار ما كانوا يتظاهرون به الرفض، فكان خيارهم وأقربهم إلى الإسلام الرافضة، وظهر بسببهم الرفض والإلحاد حتى كان من كان ينزل الشام مثل

---

(٢) النور ٣٩، ٤٠.

بـني حمدان الغالية ونحوهم متشيعين، وكذلك من كان من بني بويه في المشرق.

وكان ابن سينا وأهل بيته من أهل دعوتهم، قال (أي: ابن سينا) وبسبب ذلك اشتغلت في الفلسفة وكان مبدأ ظهورهم من حين تولي المقتدر ولم يكن بلغ بعد، وهو مبدأ انحلال الدولة العباسية، ولهذا سمي حينئذ بأمير المؤمنين الأموي الذي كان بالأندلس وكان قبل ذلك لا يسمى بهذا الاسم ويقول: لا يكون للمسلمين خليفتان، فلما ولي المقتدر قال هذا صبي لا تصح ولايته، فسمي بهذا الاسم.

وكان بنو عبيد الله القداح الملاحدة يسمون بهذا الاسم لكن هؤلاء كانوا في الباطن ملاحدة زنادقة منافقين، وكان نسبهم باطلاً كدينهم، بخلاف الأموي والعباسي، فإن كلاهما (الصواب: كليهما) نسبه صحيح، وهم مسلمون كأمثالهم من خلفاء المسلمين.

ظهور البدع والفجور سبب في تسلط الأعداء

فلما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول، سلطت عليهم الأعداء، فخرجت الروم والنصارى إلى الشام والجزيرة مرة بعد مرة وأخذوا الثغور الشامية شيئاً بعد شيء، إلى أن أخذوا بيت المقدس في أواخر المائة الرابعة، وبعد هذا بمدة حاصروا دمشق، وكان أهل الشام بأسوأ حال بين الكفار والنصارى والمنافقين الملاحدة، إلى أن تولى نور الدين الشهيد، وقام بما قام به من أمر الإسلام والطهارة والجهاد لأعدائه، ثم استنجد به ملوك مصر بنو عبيد على النصارى فأنجدهم، وجرت فصول كثيرة إلى أن أخذت مصر من بني عبيد، أخذها صلاح الدين يوسف بن سادي، وخطب بها لبني العباس، فمن حينئذ ظهر الإسلام بمصر بعد أن مكثت بأيدي المنافقين المرتدين عن دين الإسلام مائة سنة.

فكان الإيمان بالرسول والجهاد عن دينه سبباً لخير الدنيا والآخرة، وبالعكس البدع والإلحاد ومخالفة ما جاء به سبب لشر الدنيا والآخرة.

الانتصار لدين الله سبب للنصر

فلما ظهر في الشام ومصر والجزيرة الإلحاد والبدع سلط عليهم الكفار، ولما أقاموا ما أقاموه من الإسلام وقهر الملحدين والمبتدعين، نصرهم الله على الكفار، تحقيقاً لقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ★ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ★ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ★ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

وكذلك لما كان أهل المشرق قائمين بالإسلام، وكانوا منصورين على الكفار المشركين من الترك والهند والصين وغيرهم، فلما ظهر منهم ما ظهر من البدع والإلحاد والفجور، سلط عليهم الكفار قال تعالى ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً ★ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً ★ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ★ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ★ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾(٢).

---

(١) الصف ١٠ - ١٣.

(٢) الاسراء ٤ - ٨.

وكان بعض المشايخ يقول : هولاكو ملك الترك التتار الذي قهر الخليفة بالعراق ، وقتل ببغداد مقتلة (أي مجزرة) عظيمة جداً ، يقال قتل منهم ألف ألف ، وكذلك قتل بحلب دار الملك ، حينئذ كان بعض الشيوخ يقول : هو للمسلمين بمنزلة بختنصر لبني إسرائيل.

وكان من أسباب دخول هؤلاء ديار المسلمين ظهور الإلحاد والنفاق والبدع.

الرازي يشايع أهل الضلال ويصنف كتباً بذلك

حتى إنه صنف الرازي كتاباً في عبادة الكواكب والأصنام وعمل السحر سماه السر المكتوم في السحر ومخاطبة النجوم ، ويقال إنه صنفه لأم السلطان علاء الدين محمد بن لكش بن جلال الدين خوارزم شاه ، وكان من أعظم ملوك الأرض ، وكان للرازي به اتصال قوي حتى إنه وصى إليه على أولاده ، وصنف له كتاباً سماه « الرسالة العلائية في الاختيارات السماوية ».

وهذه الاختيارات لأهل الضلال بدل الاستخارة التي علمها النبي ﷺ المسلمين ، كما قال جابر في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول « إذا هَمَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر وتسميه باسمه ، خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، فاقدره لي ويسره ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به ».

وأهل النجوم لهم اختيارات ، إذا أراد أحدهم أن يفعل فعلاً أخذ طالعاً سعيداً فعمل فيه ذلك العمل لينجح بزعمهم . وقد صنف الناس كتباً في الرد عليهم ، وذكروا كثرة ما يقع من خلاف مقصودهم فيما يخبرون به ويأمرون به . وكم يخبرون من خبر فيكون كذباً . وكم يأمرون باختيار فيكون شراً .

حقيقة كتاب الاختيارات للرازي

والرازي صنف الاختيارات لهذا الملك ، وذكر فيه الاختيار لشرب الخمر وغير ذلك ، كما ذكر في السر المكتوم في عبادة الكواكب ودعوتها مع السجود لها والشرك بها ودعائها ، مثل ما يدعو الموحدون ربهم بل أعظم ، والتقرب إليها بما يظن أنه مناسب لها من الكفر والفسوق والعصيان . فذكر أنه يتقرب إلى الزهرة بفعل الفواحش وشرب الخمر والغناء ، ونحو ذلك مما حرمه الله ورسوله ، وهذا في نفس الأمر يقرب إلى الشياطين الذين يأمرونهم بذلك ، ويقولون لهم إن الكوكب نفسه يحب ذلك ، وإلا فالكواكب مسخرات بأمر الله مطيعة لله لا تأمر بشرك ولا غيره من المعاصي ، ولكن الشياطين هي التي تأمر بذلك ، ويسمونها روحانية الكواكب ، وقد يجعلونها ملائكة ، وإنما هي شياطين .

فلما ظهر بأرض المشرق نسب مثل هذا الملك ونحوه ، ومثل هذا العالم ونحوه ما ظهر من الإلحاد والبدع ، سلط الله عليهم الترك المشركين الكفار فأبادوا هذا الملك ، وجرت له أمور فيها عبرة لمن يعتبر ، ويعلم تحقيق ما أخبر الله بـه في كتابه حيث يقول ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾(١) أي أن القرآن حق . وقال : ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي

(١) فصلت ٥٣ .

فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[1] وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا أن دولة بني أمية كان انقراضها بسبب هذا الجعد المعطل، وغيره من الأسباب التي أوجبت إدبارها.

من هو الجهم بن صفوان

وفي آخر دولتهم ظهر الجهم بن صفوان بخراسان. وقد قيل إن أصله من ترمذ، وأظهر قول المعطلة النفاة الجهمية، وقد قتل في بعض الحروب، وكان أئمة المسلمين بالمشرق أعلم بحقيقة قوله من علماء الحجاز والشام والعراق. ولهذا يوجد لعبد الله بن المبارك وغيره من علماء المسلمين بالمشرق من الكلام في الجهمية أكثر مما يوجد لغيرهم، مع أن عامة أئمة المسلمين تكلموا فيهم، ولكن لم يكونوا ظاهرين إلا بالمشرق، لكن قوي أمرهم لما مات الرشيد وتولى ابنه الملقب بالمأمون بالمشرق، وتلقى عن هؤلاء ما تلقاه.

المأمون يدعو إلى خلق القرآن

ثم لما ولي الخلافة اجتمع بكثير من هؤلاء، ودعا إلى قولهم في آخر عمره، وكتب إلى بغداد وهو بالثغر بطرطوس، التي ببلدسيس وكانت إذ ذاك أعظم ثغور بغداد، ومن أعظم ثغور المسلمين يقصدها أهل الدين من كل ناحية ويرابطون بها، رابط بها الإمام أحمد رضي الله عنه، والسري السقطي وغيرهما، وتولى قضاءها أبو عبيد، وتولى قضاءها أيضاً صالح بن أحمد بن حنبل، ولهذا ذكرت في كتب الفقه كثيراً فإنها كانت ثغراً عظيماً.

فكتب من الثغر إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب كتاباً

---

(١) الأنبياء ٣٧.

يدعو الناس فيه إلى أن يقولوا (القرآن مخلوق) فلم يجبه أحد ، ثم كتب كتاباً ثانياً يأمر فيه بتقييد من لم يجبه وإرساله إليه ، فأجاب أكثرهم ، ثم قيدوا سبعة لم يجيبوا ، فأجاب منهم خمسة بعد القيد ، وبقي اثنان لم يجيبا : الإمام أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، فأرسلوهما إليه ، فمات قبل أن يصلا إليه . ثم أوصى إلى أخيه أبي إسحاق ، وكان هذا سنة ثمان عشرة ومائتين ، وبقي أحمد في الحبس إلى سنة عشرين ، فجرى ما جرى من المناظرة حتى قطعهم بالحجة ، ثم لما خافوا الفتنة ضربوه وأطلقوه ، وظهر مذهب النفاة الجهمية ، وامتحنوا الناس ، فصار من أجابهم أعطوه وإلا منعوه العطاء وعزلوه من الولايات ولم يقبلوا شهادته ، وكانوا إذا افتكوا الأسرى يمتحنون الأسير ، فإن أجابهم افتدوه وإلا لم يفتدوه .

وكتب قاضيهم أحمد بن أبي داود على ستارة الكعبة : ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم ، وهو لم يكتب السميع البصير .

ثم ولي الواثق ، واشتد الأمر ، إلى أن ولي المتوكل ، فرفع المحنة ، وظهرت حينئذ السنة . وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن أئمة المسلمين لما عرفوا حقيقة قول الجهمية بينوه ، حتى قال عبد الله بن المبارك : إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية ، وكان ينشد :

عجبت لشيطان دعا الناس جهرة ... إلى النار واشتق اسمه من جهنم

وقيل له : بماذا يعرف ربنا؟ قال : بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه . وقيل له : بحد؟ قال : بحد . وكذلك قال أحمد بن حنبل ، وإسحاق بن إبراهيم بن راهوية ، وعثمان بن سعيد الدارمي ، وغيرهم من أئمة السنة .

مذهب الجهمية

وحقيقة قول الجهمية المعطلة هو قول فرعون ، وهو جحد الخالق وتعطيل كلامه ودينه ، كما كان فرعون يفعل ، فكان يجحد الخالق جل جلاله ويقول ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي ﴾[1] ويقول لموسى :﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾[2] ويقول : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[3] وكان ينكر أن يكون الله كلم موسى ، أو لا يكون لموسى إله فوق السموات ، ويريد أن يبطل عبادة الله وطاعته ، ويكون هو المعبود المطاع .

فلما كان قول الجهمية المعطلة النفاة يؤول إلى قول فرعون ، كان منتهى قولهم إنكار رب العالمين ، وإنكار عبادته ، وإنكار كلامه ، حتى ظهروا بدعوى التحقيق والتوحيد والعرفان ، فصاروا يقولون العالم هو الله ، والوجود واحد ، والموجود القديم الأزلي الخالق هو الموجود المحدث المخلوق ، والرب هو العبد ، ما ثم رب وعبد ، وخالق ومخلوق ، بل هو عندهم فرقان ، ولهذا صاروا يعيبون على الأنبياء وينقصونهم ، يعيبون على نوح وإبراهيم الخليل وغيرهما ، ويمدحون فرعون ، ويجوزون عبادة جميع المخلوقات وجميع الأصنام . ولا يرضون بأن تعبد الأصنام حتى يقولوا إن عباد الأصنام لم يعبدوا إلا الله ، وإن الله نفسه هو العابد وهو المع ، وهو الوجود كله ، فجحدوا الرب ، وأبطلوا دينه ، وأمره ونهيه ، وما أ ل به رسله ، وتكليمه لموسى وغيره .

---

(١) القصص ٣٨ .

(٢) الشعراء ٢٩ .

(٣) النّازعات ٢٤ .

بين الجهمية وبعض المتصوفين

وقد ضل في هذا جماعة ولهم معرفة بالكلام والفلسفة والتصوف المناسب لـذلـك، كـابن سبعـين، والصـدر القونوي تلميـذ ابن عربي، والبليـاني، والتلمساني وهو من حذاقهم علماً ومعرفة، وكان يظهر المذهب بالفعل فيشرب الخمر ويأتي المحرمات.

وحدثني الثقة أنه قرأ عليه نصوص الحكم لابن عربي، وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين، فلما قرأه رآه يخالف القرآن، قال فقلت له هذا الكلام يخالف القرآن، فقال القرآن كله شرك، وإنما التوحيد في كلامنا. وكان يقول: ثبت عندنا في الكشف ما يخالف صريح المعقول.

وحدثني من كان معه ومع آخر نظير له، فمرا على كلب أجرب ميت بالطريق عند دار الطعم، فقال له رفيقه: هذا أيضاً هو ذات الله؟ فقال: وهل ثم شيء خارج عنها؟ نعم الجميع في ذاته!.

موقفهم كموقف فرعون

وهؤلاء حقيقة قولهم هو قول فرعون، لكن فرعون ما كان يخالف أحداً فينافقه، فلم يثبت الخالق، وإن كان في الباطن مُقِرًّا به، وكان يعرف أنه (أنه: أي فرعون نفسه) ليس هو إلا مخلوق، لكن حب العلو في الأرض والظلم دعاه إلى الجحود والإنكار كما قال﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ★ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾[1].

---

(١) النمل ١٣، ١٤.

وأما هؤلاء فهم من وجه ينافقون المسلمين فلا يمكنهم إظهار جحود الصانع ، ومن وجه هم ضلال يحسبون أنهم على حق وأن الخالق هو المخلوق ، فإن قولهم هو قول فرعون، لكن فرعون كان معانداً مظهراً للجحود والعنـاد ، وهؤلاء إمـا جهـال ضـلال ، وإمـا منـافقون مبطنون الإلحـاد والجحود ، ويوافقون المسلمين في الظاهر .

حوار مع قاضي اليهود الذي أسلم

وحدثني الشيخ عبد السيد الذي كان قاضي اليهود ثم أسلم ، وكان من أصدق الناس ومن خيار المسلمين وأحسنهم إسلاماً ، أنه كان يجتمع بشيخ منهم يقال له الشرف البلاسي ، يطلب منه المعرفة والعلم . قال فدعاني إلى هذا المذهب ، فقلت له : قولكم يشبه قول فرعون . قال : ونحن على قول فرعون . فقلت لعبد السيد : واعترف لك بهذا؟ قال : نعم . وكان عبد السيد إذ ذاك قد ذاكرني بهذا المذهب ، فقلت له : هذا مذهب فاسد ، وهو يؤول إلى قول فرعون ، فحدثني بهذا . فقلت له : ما ظننت أنهم يعترفون بأنهم على قول فرعون ، لكن مع إقرار الخصم ما يحتاج إلى بينة . قال عبد السيد : فقلت له : لا أدع موسى وأذهب إلى فرعون . فقال : ولم؟ قلت : لأن موسى أغرق فرعون . فانقطع واحتج عليه بالظهور الكوني . فقلت لعبد السيد ، وكان هذا قبل أن يسلم : نفعتك اليهودية ، يهودي خير من فرعوني .

الكلام على المتصوفين

وفيهم جماعات لهم عبادة وزهد وصدق فيما هم فيه وهم يحسبون أنه حق ، وعامتهم الذين يقرون ظاهراً وباطناً بأن محمداً رسول الله ، وأنه أفضل الخلق ، أفضل من جميع الأنبياء والأولياء ، لا يفهمون حقيقة قولهم ، بل

يحسبون أنه تحقيق ما جاء به الرسول ، وأنه من جنس كلام أهل المعرفة الذين يتكلمون في حقائق الإيمان والدين ، وهم من خواص أولياء الله ، فيحسبون هؤلاء من جنس أولئك ؛ من جنس الفضيل بن عياض ، وإبراهيم ابن أدهم ، وأبي سليمان الداراني ، والسري السقطي ، والجنيد بن محمد ، وسهل ابن عبد الله وأمثال هؤلاء .

وأما عرافهم الذين يعلمون حقيقة قولهم ، فيعلمون أنه ليس الأمر كذلك ، ويقولون ما يقول ابن عربي ونحوه إن الأولياء أفضل من الأنبياء ، وإن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، وإن جميع الأنبياء يستفيدون معرفة الله من مشكاة خاتم الأولياء ، وإنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يأتي خاتم الأنبياء ، فإنهم متجهمة متفلسفة ، يخرجون أقوال الفلسفة والجهمية في قالب الكشف . وعند المتفلسفة أن جبريل إنما هو خيال في نفس النبي ، ليس هو ملكاً يأتي من السماء ، والنبي عندهم يأخذ من هذا الخيال ، وأما خاتم الأولياء في زعمهم فإنه يأخذ من العقل المجرد الذي يأخذ منه الخيال ، فهو يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول .

لماذا يعظمون فرعون

وهم يعظمون فرعون ويقولون ما قاله صاحب الفصوص (أي : ابن عربي) قال : ولما كان فرعون في منصب التحكم صاحب الوقت وإن جاز في العرف الناموسي لذلك قال أنا ربكم الأعلى ، أي وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما فأنا الأعلى منهم ، بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم . قال : ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه وأقروا له بذلك ، وقالوا له

﴿ فَٱقْضِ ما أَنْتَ قَاضٍ إِنَّما تَقْضِي هٰذِهِ ٱلْحياةَ الدُّنْيا ﴾[1] قال فصح قول فرعون أنا ربكم الأعلى وإن كان فرعون عين الحق.

جانب من كفرهم

وحدثني الثقة الذي كان منهم ثم رجع عنهم أن أبغض الناس إليهم محمد ابن عبد الله ﷺ. قال: وإذا نهق الحمار ونبح الكلب سجدوا له وقالوا هذا هو الله، فإنه مظهر من المظاهر. قال: فقلت له: محمد بن عبد الله أيضاً مظهر من المظاهر، فاجعلوه كسائر المظاهر، وأنتم تعظمون المظاهر كلها أو اسكتوا عنه. قال فقالوا لي: محمد نبغضه، فإنه أظهر الفرق ودعا إليه، وعاقب من لم يقل به. قال: فتناقضوا في مذهبهم الباطل، وجعلوا الكلب والحمار أفضل من أفضل الخلق. قال لي: وهم يصرحون باللعنة له ولغيره من الأنبياء، ولا ريب أنهم من أعظم الناس عبادة للشيطان، وكفراً بالرحمن.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال (إذا سمعتم صياح الديكة فسلوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمار ونباح الكلب فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً) فهم إذا سمعوا نهيق الحمار ونباح الكلب تكون الشياطين قد حضرت فيكون سجودهم للشياطين.

وكان فيهم شيخ جليل من أعظمهم تحقيقاً، لكن هذا لم يكن من هؤلاء الذين يسبون الأنبياء، وقد صنف كتاباً سماه فك الأزرار عن أعناق الأسرار، ذكر فيه مخاطبة جرت له مع إبليس وأنه قال له ما معناه إنكم قد غلبتموني وقهرتموني ونحو هذا.

---

(١) طه ٧٢.

حوار إبليس مع متصوف

لكن جرت لي قصة تعجبت منها مع شيخ منكم فإني تجليت له فقلت أنا الله لا إله إلا أنا، فسجد لي، فتعجبت كيف سجد لي: قال هذا الشيخ. فقلت له ذاك أفضلنا وأعلمنا وأنت لم تعرف قصده، ما رأى في الوجود اثنين، وما رأى إلا واحداً فسجد لذلك، الواحد، لا يميز بين إبليس وغيره، فجعل هذا الشيخ ذاك الذي سجد لإبليس لا يميز بين الرب وغيره، بل جعلوا إبليس هو الله هو وغيره من الموجودات جعله أفضلهم وأعلمهم.

خطأ ابن عربي في ذم الأنبياء وامتداح الكفار

ولهذا عاب ابن عربي نوحاً أول رسول بعث إلى أهل الأرض، وهو الذي جعل الله ذريته هم الباقين، وأنجاه ومن معه في السفينة، وأهلك سائر أهل الأرض لما كذبوه، فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعظم قومه الكفار الذين عبدوا الأصنام، وأنهم ما عبدوا إلا الله، وأن خطاياهم خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله. وهذا عادته ينتقص الأنبياء ويمدح الكفار، كما ذكر مثل ذلك في قصة نوح وإبراهيم وموسى وهارون وغيرهم، ومدح عباد العجل، وتنقص هارون وافترى على موسى فقال: وكان موسى أعلم بالأمر من هارون لأنه علم ما عبده أصحاب العجل لعلمه بأن الله قد قضى ألا يعبد إلا إياه، وما قضى الله بشيء إلا وقع، فكان عتب موسى على أخيه هارون لما وقع الامر في إنكاره وعدم اتساعه، فإن العارف من يرى الحق في كل شيء. بل يراه عين كل شيء. فذكر عن موسى أنه عتب على هارون أنه (أي لأنه) أنكر عليهم عبادة العجل وأنه لم يسمع ذلك فلم ينكره (لم هنا زائدة لأن المقصود: فأنكره: وهذا حسب زعمهم). فإن العارف من يرى الحق (أي الله سبحانه) في كل شيء، بل يراه عين كل شيء.

موقف موسى كما ذكر القرآن

وهذا من أعظم الافتراء على موسى وهارون، وعلى الله وعلى عباد العجل، فإن الله أخبر عن موسى أنه أنكر العجل إنكاراً أعظم من إنكار هارون، وأنه أخذ بلحية هارون لم لما يدعهم ويتبع موسى لمعرفة قال تعالى: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى ★ قالَ هُمْ أُولاَءِ عَلى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إليكَ ربِّ لِتَرْضى ★ قال فإنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ★ فَرَجَعَ مُوسى إلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً ★ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ★ قَالُوا مَا أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَاها فَكَذٰلِكَ أَلْقى السَّامِرِيُّ ★ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هٰذا إِلٰهُكُمْ وَإِلٰهُ مُوسى فَنَسِيَ ★ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً ★ وَلَقَدْ قَال لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمٰنُ فَاتَّبِعُوني وَأَطِيعُوا أَمْري ★ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى ★ قَال يٰا هٰارُونُ مٰا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلّوا ★ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ★ قَالَ يا ٱبْنَ أُمَّ لَّا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرٰائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾[1].

قلت لبعض هؤلاء: هذا الكلام الذي ذكره (أي ابن عربي) هذا عن موسى وهارون يوافق القرآن أو يخالفه؟ فقال: لا بل يخالفه. قلت. فاختر لنفسك إما القرآن وإما كلام ابن عربي.

---

(١) طه ٨٣- ٩٤.

استمرار خطأ ابن عربي

وكذلك قال عن نوح . قال : لو أن نوحاً جمع لقومه بين الدعوتين لأجابوه ، أي ذكر لهم فدعاهم جهاراً ثم دعاهم إسراراً إلى أن قال : ولما علموا أن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو لأنه ما عدم من البداية فيدعى إلى الغاية أدعوا إلى الله ، فهذا عين المكر على بصيرة ، فنبه أن الأمر كله لله فأجابوه مكراً كما دعاهم ، فجاء المحمدي وعلم أن الدعوة إلى الله ما هي من حيث هويته وإنما هي من حيث أسماؤه فقال ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إلى الرَّحْمٰنِ وَفْداً ﴾[1] فجاء بحرف الغاية وقرنها بالاسم ، فعرفنا أن العالم كان تحت حيطة اسم إلهي أوجب عليهم أن يكونوا متقين ، فقالوا في مكرهم ﴿ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ولا تَذَرُنَّ وَدًّا ولا سواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾[2] ، فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق بقدر ما تركوا من هؤلاء ، فإن للحق في كل معبود وجهاً يعرفه من يعرفه ويجهله من يجهله ، كما قال في المحمديين ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِٱلْوالِدَيْنِ إِحْسَانا ﴾[3] أي حكم فالعارف يعرف من عبد وفي أي صورة ظهر حق عبد ، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء في الصورة المحسوسة وكالقوى المعنوية في الصورة الروحانية ، فما عبد غير الله في كل معبود .

خطأ ابن عربي في تأويل القرآن

وهو (أي ابن عربي) دائماً يحرف القرآن عن مواضعه ، كما قال في هذه

---

(١) مريم ٨٦ .

(٢) نوح ٢٣ .

(٣) الإسراء ٢٣ .

القصة (مما خطاياهم) فهي التي خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله وهي الحيرة (فأدخلوا ناراً) في عين الماء في المحمديين ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾(١) سجرت التنور أوقدته ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصاراً ﴾(٢) فكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه إلى الأبد وقوله ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاه ﴾(٣) بمعنى أمر وأوجب وفرض ، وفي القراءة الأخرى (ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) فجعل معناه أنه قدر وشاء ألا تعبدوا إلا إياه ، وما قدره فهو كائن ، فجعل معناها كل معبود هو الله ، وأن أحداً ما عبد غير الله قط .

وجه الخطأ عند ابن عربي بشواهد من القرآن

وهذا من أظهر الفرية على الله وعلى كتابه وعلى دينه ، وعلى أهل الأرض ، فإن الله في غير موضع أخبر أن المشركين عبدوا غير الله ، بل يعبدون الشيطان كما قال تعالى ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَم أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ★ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ★ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾(٤) .

وقال تعالى عن يوسف أنه قال ﴿ يا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللهُ ٱلْواحِدُ ٱلْقَهَّارُ ★ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذٰلِكَ الدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٦) .

---

(١) التكوير ٦ .

(٢) نوح ٢٥ .

(٣) ٦٠ – ٦٢ يس

(٤) يوسف ٣٩ ، ٤٠ .

وقال تعالى ﴿وَجاوَزْنا بِبَني إِسْرائِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكِفُونَ عَلَى أَصْنامٍ لَهُمْ، قالُوا يا مُوسى ٱجْعَلْ لَنا إِلٰهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ * قالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلٰهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعالَمِينَ﴾[1].

وقال تعالى عن الخليل ﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْني عَنْكَ شَيْئاً * يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْني أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا * يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا * يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا * قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْني مَلِيًّا * قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا * فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونَ اللهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنا نَبِياً * وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[2].

فهو سبحانه يقول ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[2] وهؤلاء الملحدون يقولون ما عبدنا غير الله في كل معبود.

وقال تعالى ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّه لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ٱتَّخَذُوهُ وَكانُوا ظالِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ

---

(١) الأعراف ١٣٨، ١٣٩.

(٢) مريم ٤٢ - ٥٠.

مِنَ ٱلْخاسِرينَ﴾[1] إلى قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ في ٱلْحياةِ الدُّنْيا وكَذلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ﴾[2].

قال أبو قلابة: هي (أي: الآية الكريمة) ﴿وكذلك نَجْزِي المفترين﴾[2] لكل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله.

والجهمية النفاة كلهم مفترون، كما قال الإمام أحمد بن حنبل إنما يقودون قولهم إلى فرية على الله، وهؤلاء من أعظمهم افتراء على الله فإن القائلين بأن وجود الخالق هو وجود المخلوق هم أعظم افتراء ممن يقول إنه يحل فيه، وهؤلاء يجهلون من يقول بالحلول أو يقول بالاتحاد. وهو أن الخالق اتحد مع المخلوق، فإن هذا إنما يكون إذا كان شيئان متباينان ثم اتحد أحدهما بالآخر، كما يقوله النصارى من اتحاد اللاهوت مع الناسوت، وهذا إنما يقال في شيء معين، وهؤلاء عندهم ما ثم وجود لغيره حتى يتحد مع وجوده، وهم من أعظم الناس تناقضاً فإنهم يقولون ما ثم غير ولا سوى.

ويقول السبعينية: ليس إلا الله، بدل قول المسلمين لا إله إلا الله، ثم يقولون: هؤلاء المحجوبون لا يرون هذا، فإذا كان ما ثم غير ولا سوى فمن المحجوب ومن الحاجب، ومن الذي ليس بمحجوب، وعما حجب.

فساد قول بعض المتصوفين باتحاد الخالق مع المخلوق

فقد أثبتوا أربعة أشياء، قوم محجوبون؛ وقوم ليسوا بمحجوبين، وأمراً انكشف لهؤلاء وحجب عن أولئك، فأين هذا من قولهم ما ثم اثنان ولا وجودان. كما حدثني الثقة أنه قال التلمساني فعلى قولكم لا فرق بين امرأة

---

(١) الأعراف ١٤٨، ١٤٩.

(٢) الأعراف ١٥٢.

الرجل وأمه وبنته . قال نعم ، الجميع عندنا سواء ، لكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم . فقيل لهم فمن المخاطب للمحجوبين ، أهو هم أم غيرهم ، فإن كانوا هم فقد حرم على نفسه لما زعم أنه حرام عليهم دونه وإن كانوا غيره فقد أثبت غيرين ، وعندهم ما ثم غير ، وهؤلاء اشتبه عليهم الواحد بالنوع بالواحد بالعين ، فإنه يقال الوجود واحد ، كما يقال الإنسانية واحدة ، والحيوانية واحدة أي يعني واحد كلي ، وهذا الكلي لا يكون كلياً إلا في الذهن لا في الخارج ، فظنوا هذا الكلي ثابتاً في الخارج ثم ظنوه هو الله .

الفرق بين الكليات والجزئيات بعينها

وليس في الخارج كلي مع كونه كلياً وإنما يكون كلياً في الذهن ، وإذا قدر في الخارج كلي فهو جزء من المعينات وقائم بها ، ليس هو متميزاً قائماً بنفسه ، فحيوانية الحيوان ، وإنسانية الإنسان سواء قدرت معينة أو مطلقة هي صفة له ، ويمتنع أن تكون صفة الموصوف مبدعة له ، ولو قدر وجودها مجرداً عن العيان على رأي من أثبت المثل الأفلاطونية ، فتثبت الماهيات الكلية مجردة عن الموصوفات ويدعى أنها قديمة أزلية ، مثل إنسانية مجردة وحيوانية مجردة ، وهذا خيال باطل ، وهذا الذي جعله مجرداً هو مجرد في الذهن وليس في الخارج كلي مجرد . وإذا قدر ثبوت كلي مجرد في الخارج وهو مسمى الوجود فهذا يتناول وجود المحدثات كلها كما يتناول وجود القديم ، وهذا لا يكون مبدعاً لشيء ولا اختصاص له بصفات الكمال ، فلا يوصف بأنه حي عليم قدير ، إذ ليس وصفه بذلك بأولى من وصفه بأنه عاجز جاهل ميت . والخالق لا بد أن يكون حياً عليماً قديراً سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

ثم لو قدر أن هذا هو الخالق فهذا غير الأعيان الموجودة المخلوقة فقد ثبت وجودان أحدهما غير الآخر، وأحدهما محدث مخلوق فيكون الآخر الخالق غير المخلوق، ولا يمكن جحد وجود الأعيان المعينة.

عدم رؤية الشيء لا تدل على انعدامه

ولكن الواحد من هؤلاء قد يغيب عن شهود المغيبات كما يغيب عن شهود نفسه، فيظن أن ما لم يشهده قد عدم في نفسه وفني وليس كذلك. فإن ما عدم وفني شهوده له وعلمه به ونظره إليه فالمعدوم الفاني صفة هذا الشخص، وإلا فالموجودات في نفسها باقية على حالها لم تتغير، وعدم العلم ليس علماً بالمعدوم، وعدم الشهود ليس شهوداً للعدم، ولكن هذا الحال يعتري كثيراً من السالكين يغيب أحدهم عن شهود نفسه وغيره من المخلوقات وقد يسمون هذا فناء واصطلاماً، وهذا فناء عن شهود تلك المخلوقات لا أنها في نفسها فنيت، ومن قال فني ما لم يكن وبقي ما لم يزل فالتحقيق إذا كان صادقاً أنه فني شهوده لما لم يكن وبقي شهوده لما لم يزل، لأن ما لم يكن فني في نفسه فإنه باق موجود ولكن يتوهمون إذا لم يشهدوه أنه قد عدم في نفسه.

تفسير الحلول

ومن هنا دخلت طائفة في الاتحاد والحلول، فأحدهم قد يذكر الله حتى يغلب على قلبه ذكر الله، ويستغرق في ذلك فلا يبقى له مذكور مشهود لقلبه إلا الله ويفنى ذكره وشهوده لما سواه، فيتوهم أن الأشياء قد فنيت وأن نفسه فنيت حتى يتوهم أنه هو الله وأن الوجود هو الله.

ومن هذا الباب غلط أبي يزيد ونحوه حيث قال: ما في الجبة إلا الله

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع.

وبيّن (أي: وظاهر) أنه يعبر بالفناء عن ثلاثة أمور:

الفناء المقبول شرعاً

أحدها: أنه يفني بعبادة الله عن عبادة ما سواه وبمحبته وطاعته وخشيته ورجائه والتوكل عليه، عن محبة ما سواه، وطاعته وخشيته ورجائه والتوكل عليه، وهذا هو حقيقة التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، فقد فني من قلبه التأله لغير الله وبقي في قلبه تأله الله وحده، وفني من قلبه حب غير الله وخشية غير الله والتوكل على غير الله، وبقي في قلبه حب الله وخشية الله والتوكل على الله.

وهذا الفناء يجامع البقاء، فيخلي القلب عن عبادة غير الله، مع تجلي القلب بعبادة الله وحده، كما قال ﷺ لرجل قل أسلمت لله وتخليت وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله بالنفي مع الإثبات، نفي إلهية غيره مع إثبات، إلهيته وحده، فإنه ليس في الوجود إله إلا الله، ليس فيه معبود يستحق العبادة إلا الله، فيجب أن يكون هذا ثابتاً في القلب، فلا يكون في القلب من يؤلهه القلب ويعبده إلا الله وحده، ويخرج من القلب كل تأله لغير الله، ويثبت فيه تأله الله وحده، إذ كان ليس ثم إله إلا الله وحده وهذه الولاية لله مقرونة بالبراءة والعداوة لكل معبود سواه ولمن عبدهم.

الآيات تدل على أن الخالق غير المخلوق

قال تعالى عن الخليل عليه السلام ﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنّي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدونَ ★ إلاّ الَّذِي فَطَرَني فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ★ وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً في

عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١).

وقال ﴿أَفَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ★ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ★ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لي إلَّا رَبَّ ٱلْعالَمِينَ﴾(٢).

وقال تعالى ﴿قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَداوَةُ وَٱلْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾(٣).

قلت لبعض ما خاطبته من شيوخ هؤلاء قول الخليل ﴿إِنَّني بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾(٤) مم تبرأ الخليل؟ أتبرأ من الله تعالى وعندكم ما عبد غير الله قط؟ والخليل قد تبرأ من كل ما كانوا يعبدون إلا من رب العالمين، وقد جعل الله لنا وفيمن معه (أي: في إبراهيم والذين معه الخ...) أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر. قال تعالى ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إِبْراهِيمَ والَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَداوَةُ وَٱلْبَغْضاءُ أَبَداً حَتّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَإِلَيْكَ أَنَبْنا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ★ رَبَّنا لَا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ★ لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾(٥).

---

(١) الزخرف ٢٦ - ٢٨.

(٢) الشعراء ٧٥.

(٣) الممتحنة ٤.

(٤) الزخرف ٢٦.

(٥) الممتحنة ٤.

الاستشهاد بأن الله حق وما سواه ضلال باطل

وقد قال صلى الله عليه وسلم: أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد:

★ ألا كل شيء ما خلا الله باطل★

وهذا تصديق قوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ ٱلْباطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾(١).

وقال تعالى ﴿فَذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَماذا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إلّا ٱلضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾(٢).

وقال سبحانه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إلّا وَجْهَهُ﴾(٣).

قال طائفة من السلف: كل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه.

وقد قال سبحانه ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إلى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ★ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ﴾(٤) والإله هو المألوه أي المستحق لأن يؤله أي يعبد، ولا يستحق أن يؤله ويعبد إلا الله وحده، وكل معبود سواه من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل. وفعال (لأن لفظ إله على وزن فِعال) بمعنى مفعول مثل لفظ الركاب والحمال بمعنى المركوب والمحمول.

وكان الصحابة يرتجزون في حفر الخندق يقولون:

هــذا الحمال لا حمال خيــبر   هــــذا أبر ربنـــا وأظهر

---

(١) الحج ٦٢.

(٢) يونس ٣٢.

(٣) القصص ٨٨.

(٤) القصص ٨٧.

وإذا قيل هذا هو الإمام فهو الذي يستحق أن يؤتم به كما قال تعالى لإبراهيم ﴿إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إماماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَتِي قَالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١) فعهده (أي : عهد الله سبحانه) بالإمامة لا ينال الظالم ، فالظالم لا يجوز أن يؤتم به في ظلمه ولا يركن إليه كما قال تعالى ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾(٢) فمن ائتم بمن لا يصلح للإمامة فقد ظلم نفسه ، فكيف بمن جعل مع الله إلهاً آخر وعبد من لا يصلح للعبادة ، والله تعالى لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

الإله بمعنى مفعول وليس بمعنى فاعل

وقد غلط طائفة من أهل الكلام فظنوا أن الإله بمعنى الفاعل وجعلوا الإلهية هي القدرة والربوبية ، فالإله هو القادر وهو الرب ، وجعلوا العباد مألوهين كما أنهم مربوبون .

فساد قول ابن عربي

فالذين يقولون بوحدة الوجود متنازعون في أمور لكن إمامهم ابن عربي يقول الأعيان ثابتة في العدم ووجود الحق فاض عليها ، فلهذا قال فنحن جعلناه بمألوهيتنا إلهاً فزعم أن المخلوقات جعلت الرب إلهاً لها حيث كانوا مألوهين . ومعنى مألوهين عنده مربوبين وكونهم مألوهين حيث كانت أعيانهم ثابتة في العدم وفي كلامهم من هذا وأمثاله مما فيه تنقص بالربوبية ما لا يحصى ، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

---

(١) البقرة ١٢٤ .

(٢) هود ١١٤ .

والتحقيق أن الله خالق كل شيء ، والمعدوم ليس بشيء في الخارج. ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون (أي : وقبل أن يكتبه). وقد يذكره ويجريه فيكون شيئاً في العلم والذكر والكتاب لا في الخارج ، كما قال ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1] والله سبحانه خالق الإنسان ومعلمه ، فهو الذي خلق الإنسان من علق وهو الأكرم الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم. ولو قدر (أي: فرض) أن الإله بمعنى الرب فهو (أي الله) الذي جعل الرب مربوباً فيكون على هذا هو الذي جعل المألوه مألوها والمربوب لم يجعله رباً (أي إن العبد «المربوب» لم يجعل الإله رباً) بل ربوبيته صفة وهو الذي خلق المربوب وجعله مربوباً وهو (أي : الإنسان) إذا آمن بالرب واعتقد ربوبيته وأخبر بها كان قد اتخذ الله رباً ولم يبغ رباً سوى الله ولم يتخذ رباً سواه كما قال تعالى : ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2].

وقال تعالى ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمواتِ وَالْأَرْضِ﴾[3].
وقال ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً أَيَأْمُرُكُمْ بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[4].

وهو أيضاً في نفسه هو الإله الحق لا إله غيره فإذا عبده الإنسان فقد وحده ولم يجعل معه إلهاً آخر ولا اتخذ إلهاً غيره قال تعالى ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ

---

(١) يس ٨٢.
(٢) الأنعام ١٦٤.
(٣) الأنعام ١٤.
(٤) آل عمران ٨٠.

إلهاً آخَرَ فتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾(1).

وقال تعالى ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً﴾(2).

وقال إبراهيم لأبيه آزر ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إنِّي آراكَ وَقَوْمَكَ في ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(3).

الرد على من يتخذ أرباباً من دون الله

فالمحبوب ليس بإله في نفسه لكن عابده اتخذه إلهاً وجعله إلهاً وسماه إلهاً وذلك كله باطل لا ينفع صاحبه بل يضره، كما أن الجاهل إذا اتخذ إماماً ومفتياً وقاضياً كان ذلك باطلاً، فإنه لا يصلح أن يؤم ولا يفتي ولا يقضي، وغير الله لا يصلح أن يُتخذ إلهاً يُعبد ويُدعى، فإنه لا يخلق ولا يرزق وهو سبحانه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا ينفع ذا الجد منه الجد.

ومن دعا من لا يسمع دعاءه أو يسمع ولا يستجيب له فدعاؤه باطل وضلال. وكل من سوى الله إما أنه لا يسمع دعاء الداعي، أو يسمع ولكن لا يستجيب له، فإن غير الله لا يستقل بفعل شيء البتة. وقد قال تعالى ﴿قُلْ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ في السَّمواتِ وَلا في ٱلْأَرْضِ وَما لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ★ وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾(4) فغير الله لا مالك لشيء، ولا شريك في شيء، ولا هو معاون للرب في شيء، بل قد يكون له شفاعة إذا كان من الملائكة

(1) الشعراء ٢١٣.
(2) الأسراء ٢٢.
(3) الأنعام ٧٤.
(4) سبأ ٢٢، ٢٣.

والأنبياء والصالحين، ولكن لا تنفع الشفاعة عنده (أي: عند الله) إلا لمن أذن له. فلا بد أن يأذن للشافع أن يشفع، وأن يأذن للمشفوع له أن يشفع له. ومن دونه لا يملكون الشفاعة البتة فلا يصلح من سواه لأن يكون إلهاً معبوداً كما لا يصلح أن يكون خالقاً رازقاً، لا إله إلا هو وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

سبب ضلال بعض الفرق ومتابعتهم لآراء الفلاسفة

وهؤلاء كان من أعظم أسباب ضلالهم مشاركتهم للفلاسفة، وتلقيهم عنهم، فإن أولئك القوم من أبعد الناس عن الاستدلال بما جاء به الرسول، فإن الرسول بعث بالبينات والهدى، بين الأدلة العقلية، ويخبر الناس بالغيب الذي لا يمكنهم معرفته بعقولهم. وهؤلاء المتفلسفة يقولون إنه لم يفد الناس علماً بخبره ولا بدلالته، وإنما خاطب خطاباً جمهورياً ليصلح به العامة، فيعتقدون في الرب والمعاد اعتقاداً ينفعهم وإن كان كذباً وباطلاً وحقيقة كلامهم أن الأنبياء تكذب فيما تخبر به لكن كذباً للمصلحة، فامتنع أن يطلبوا من خبرهم علماً، وإذا لم تكن أخبارهم مطابقة للمخبر، فكيف يثبتون أدلة عقلية على ثبوت ما أخبروا به.

والمتكلمون الذين يقولون إنهم لا يخبرون إلا بصدق. ولكن يسلكون في العقليات غير طريقهم، مبتدعون مع إقرارهم بأن القرآن اشتمل على الأدلة العقلية، فكيف بهؤلاء الملاحدة المفترين، ولهذا لا يعتنون بالقرآن وتفسيره، ولا بالحديث وكلام السلف، وإن تعلموا من ذلك شيئاً فلأجل تعلق الجمهور به، ليعيشوا بينهم بذكره لا لاعتقادهم (أي: لاعتقادهم يوجبه في الباطن) موجه في الباطن. وهذا بخلاف طوائف المتكلمين، فإنهم يعظمون القرآن في الجملة وتفسيره، مع ما فيهم من البدع.

ولهذا لما استولى التتار على بغداد ، وكان الطوسي منجماً لهولاكو ، استولى على كتب الناس الوقف والملك ، فكان كتب الإسلام مثل التفسير والحديث والفقه والرقائق يعدمها ، وأخذ كتب الطب والنجوم والفلسفة والعربية ، فهذه عنده هي الكتب المعظمة . وكان بعض من أعرفه قارئاً خطيباً ، لكن كان يعظم هؤلاء ويرتاض رياضة فلسفية سخرية ، حتى يستخدم الجن ، وكان بعض الشياطين ألقى إليه أن هؤلاء يستولون على دار الإسلام ، فكان يقول لبعض أصحابنا : يا فلان عن قليل (أي : بعد قليل) يرى هذا الجامع جامع دمشق يقرأ فيه المنطق والطبيعي والرياضي والإلهي ثم يرضيه فيقول والعربية أيضاً والعربية إنما احتاج المسلمون إليها لأجل خطاب الرسول بها ، فإذا أعرض عن الأصل كان أهل العربية بمنزلة شعراء الجاهلية أصحاب المعلقات السبع ونحوهم من حطب النار .

فصل

الخوارج أول المنشقين عن المسلمين

أول التفرق والابتداع في الإسلام بعد مقتل سيدنا عثمان وافتراق المسلمين، فلما اتفق علي ومعاوية على التحكيم أنكرت الخوارج وقالوا لا حكم إلا لله، وفارقوا جماعة المسلمين، فأرسل إليهم ابن عباس فناظرهم فرجع نصفهم، والآخرون أغاروا على ماشية الناس واستحلوا دماءهم، فقتلوا ابن خباب، وقالوا كلنا قتلة، فقاتلهم علي.

أصل مذهب الخوارج

وأصل مذهبهم تعظيم القرآن وطلب اتباعه، لكن خرجوا عن السنة والجماعة، فهم لا يرون اتباع السنة التي يظنون أنها تخالف القرآن كالرجم ونصاب السرقة وغير ذلك فضلوا، فإن الرسول أعلم بما أنزل الله عليه، والله قد أنزل عليه الكتاب والحكمة. وجوزوا على النبي أن يكون ظالماً فلم ينقادوا لحكم النبي ولا لحكم الأئمة بعده، بل قالوا إن عثمان وعلياً ومن والاهما قد حكموا بغير ما أنزل الله ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[1]، فكفروا المسلمين بهذا وبغيره. وتكفيرهم وتكفير سائر أهل البدع مبني على مقدمتين باطلتين إحداهما أن هذا يخالف القرآن،

(١) المائدة ٤٨.

والثانية أن من خالف القرآن يكفر ولو كان مخطئاً أو مذنباً معتقداً للوجوب والتحريم.

وبإزائهم الشيعة، غلوا في الأئمة، وجعلوهم معصومين يعلمون كل شيء، وأوجبوا الرجوع إليهم في جميع ما جاءت به الرسل، فلا يعرجون لا على القرآن ولا على السنة، بل على قول من ظنوه معصوماً، وانتهى الأمر إلى الائتمام بإمام معدوم لا حقيقة له، فكانوا أضل من الخوارج، فإن أولئك يرجعون إلى القرآن وهو حق وإن غلطوا فيه، وهؤلاء لا يرجعون إلى شيء بل إلى معدوم لا حقيقة له. ثم إنما يتمسكون بما ينقل لهم عن بعض الموتى، فيتمسكون بنقل غير مصدق عن قائل غير معصوم، ولهذا كانوا أكذب الطوائف، والخوارج صادقون، فحديثهم من أصح الحديث، وحديث الشيعة من أكذب الحديث.

مفارقات بين الفرق

ولكن الخوارج ذنبهم المعظم مفارقة جماعة المسلمين، واستحلال دمائهم وأموالهم، والشيعة تختار هذا لكنهم عاجزون. والزيدية تفعل هذا، والإمامية تارة تفعله وتارة يقولون لا نقتل إلا تحت راية إمام معصوم. والشيعة استتبعوا أعداء الملة من الملاحدة والباطنية وغيرهم، ولهذا أوصت الملاحدة مثل القرامطة الذين كانوا في البحرين وهم من أكفر الخلق، ومثل قرامطة المغرب ومصر، وهم كانوا يستترون بالتشيع، أوصوا بأن يدخل على المسلمين من باب التشيع، فإنهم يفتحون الباب لكل عدو للإسلام من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، وهم من أبعد الناس عن القرآن والحديث، كما قد بسط هذا في مواضع.

والمقصود أن النبي ﷺ قال «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله» فحض على كتاب الله ثم قال «وعترتي أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، ثلاثاً» فوصى المسلمين بهم، لم يجعلهم أئمة يرجع المسلمون إليهم. فانتحلت الخوارج كتاب الله، وانتحلت الشيعة أهل البيت، وكلاهما غير متبع لما انتحله. فإن الخوارج خالفوا السنة التي أمر القرآن باتباعها، وكفروا المؤمنين الذين أمر القرآن بموالاتهم. ولهذا تأول سعد بن أبي وقاص فيهم هذه الآية ﴿وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الفاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾[1] وصاروا يتتبعون المتشابه من القرآن فيتأولونه غير تأويله، من غير معرفة منهم بمعناه، ولا رسوخ في العلم، ولا اتباع للسنة، ولا مراجعة لجماعة المسلمين الذين يفهمون القرآن. وأما مخالفة الشيعة لأهل البيت فكثيرة جداً قد بسطت في مواضع.

---

(١) البقرة ٢٦، ٢٧.

فصل

تشابه الخوارج والقدرية في أن كلا منهما قطع ما أمر الله به أن يوصل

ثم حدث في آخر عصر الصحابة القدرية ، فكانت الخوارج تتكلم في حكم الله الشرعي ، أمره ونهيه وما يتبع ذلك من وعده ووعيده ، وحكم من وافق ذلك ومن خالفه ، ومن يكون مؤمناً وكافراً ، وهي مسائل الأسماء والأحكام ، وسُمُّوا (أي الخوارج) محكمة لخوضهم في التحكيم بالباطل وكان الرجل إذا قال لا حكم إلا لله ، قالوا هو محكم أي خائض في حكم الله ، فخاض أولئك في شرع الله بالباطل .

وأما القدرية فخاضوا في قدره بالباطل ، وأصل ضلالهم ظنهم أن القدر يناقض الشرع ، فصاروا حزبين: حزباً يعظمون الشرع والأمر والنهي ، الوعد والوعيد ، واتباع ما يحبه الله ويرضاه ، وهجر ما يبغضه وما يسخطه ، وظنوا أن هذا لا يمكن أن يجمع بينه وبين القدر ؛ فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ؛ ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه .

كما قطعت الخوارج ما أمر الله به أن يوصل ؛ من اتفاق الكتاب والسنة وأهل الجماعة ، ففرقوا بين الكتاب والسنة ، وفرقوا بين الكتاب وجماعة المسلمين ، وفرقوا بين المسلمين ، فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل .

وكذلك القدرية ، فصاروا حزبين : حزباً يغلب الشرع فيكذب بالقدر

وينفيه أو ينفي بعضه ؛ وحزباً يغلب القدر فينفي الشرع في الباطن أو ينفي حقيقته ويقول لا فرق بين ما أمر الله به وما نهى عنه في نفس الأمر ، الجميع سواء ، وكذلك أولياؤه وأعداؤه ، (أي : سواء) وكذلك ما ذكر أنه يحبه ، وذكر أنه يبغضه ؛ (أي : سواء لا فرق بينهما) لكنه فرق بين المتماثلين بمحض المشيئة ، يأمر بهذا وينهى عن مثله ، فجحدوا الفرق والفصل الذي بين التوحيد والشرك ، وبين الإيمان والكفر ، وبين الطاعة والمعصية ، وبين الحلال والحرام .

كما أن أولئك (أي : النفاة) وإن أقروا بالفرق ، فأنكروا الجمع وأنكروا أن يكون الله على كل شيء قديراً ، ومنهم من أنكر أن يكون الله بكل شيء عليماً ، وأنكروا أن يكون خالقاً لكل شيء ، وأن يكون ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنكروا أن يكون الله فعالاً لما يشاء ، وأثبتوا لغير الله الانفراد بالإحداث ، وشركاء خلقوا كخلقه كما فعلت المجوس ، واعتقدوا أنه لا يمكن الإيمان بأمره ونهيه إلا مع تعجيزه أو تجهيله ، وأنه لا يمكن أن يوصف بالإحسان والكرم إن لم يجعل عاجزاً وإلا لزم أن يكون بخيلاً .

كما أن القدرية المجبرة قالوا لا يمكن أن يجعل عالماً قادراً إلا بتسفهه وتجويره ، فهؤلاء نفوا حكمته وعدله ، وأولئك (أي النفاة) نفوا قدرته ومشيئته ، أو قدرته ومشيئته وعلمه . وهؤلاء (أي النفاة) ضاهوا المجوس في الإشراك بربوبيته ، حيث جعلوا غيره خالقاً ، وأولئك (أي القدرية) ضاهوا المشركين الذين لا يفرقون بين عبادته وعبادة غيره ، بل يجوّزون عبادة غيره كما يجوزون عبادته ، ويقولون ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾[1] الآية . . .

---

(١) الأنعام ١٤٨ .

وهؤلاء (أي القدرية) منتهى توحيدهم توحيد المشركين، وهو توحيد الربوبية، فأما توحيد الإلهية المتضمن للأمر والنهي، ولكون الله يحب ما أمر به ويبغض ما نهى عنه، فهم ينكرونه، ولهذا هم أكثر اتباعاً لأهوائهم، وأكثر شركاً وتجويراً من المعتزلة، ومنتهى متكلميهم وعبادهم تجويز عبادة الأصنام، وأن العارف لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة، كما ذكر ذلك صاحب منازل السائرين.

وأما عبادة الأصنام فباح بها متأخروهم كالرازي صنف فيها مصنفاً، وابن عربي، وابن سبعين، وأمثالهما، يصرحون بجواز عبادتها وبالإنكار على من أنكر ذلك وهم متناقضون في ذلك.

أصل فكرة القدرية

فالقدرية أصلهم أنه لا يمكن إثبات قدرته وحكمته، إذ لو كان قادراً لفعل غير ما فعل، فلما لم يفعله دل على أنه غير قادر، وقالوا يثبت حكمته كما يثبت حكمه، لأن نفي ذلك يوجب السفه والظلم وهو منزه عنه، بخلاف ما لم يقدر عليه، فإنه معذور إذا لم يفعله فلا يلام عليه.

أصل قول الجبرة

وقال الجبرة: بل قدرته ثابتة بلا حكمة، ولا يجوز أن يفعل لحكمة، لأن ذلك إنما يكون أن يحتاج إلى الفعل وهو منزه عن الحاجة، ولا عدل ولا ظلم، بل كل ما أمكن فعله هو فهو عدل، وليس في الأفعال ما هو حسن ينبغي الأمر به، وقبيح ينبغي النهي عنه، ولا معروف ومنكر، بل يجوز أن يأمر بكل شيء، وينهى عن كل شيء.

القدرية بين منكر للنبوات أو مقرٍ بها لكنه منكر للشرع في الباطن

ثم من حقق منهم أنكر الشرع بالكلية، وأنكر النبوات، مع أنه مضطر إلى أن يأمر بشيء وينهى عن شيء، فإن هذا لازم لجميع الخلق، لا يجدون عنه محيصاً، لكن من اتبع الأنبياء يأمر بما ينفعه وينفع غيره، وينهى عما يضره ويضر غيره، ومن خالف الأنبياء فلا بد أن يأمر بما يضر، وينهى عما ينفع فيستحق عذاب الدنيا والآخرة. وأما من كان منهم مقراً بالنبوة، فأنكر الشرع في الباطن وقال: العارف لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة، فصار منافقاً يظهر خلاف ما يبطن ويقول: الشرع لأجل المارستان، ولهذا يسمون باطنية، كما سموا الملاحدة باطنية، فإن كليهما يبطن خلاف ما يظهر يبطنون تعطيل ما جاء به الرسول من الأمر والنهي.

الجبرة بين الشرك والنفاق

فمنتهى الجهمية الجبرة إما مشركون ظاهراً وباطناً، وإما منافقون فيبطنون الشرك، ولهذا يظنون بالله ظن السوء، وأنه لا ينصر محمداً وأتباعه كما قال تعالى ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِٱللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[1] وهم يتعلقون بقوله ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[2] وبأنه يفعل ما يشاء.

تأييدهم للتتار يدل على ذلك

ولذلك لما ظهر المشركون التتار وأهل الكتاب كثر في عبادهم وعلمائهم

---

(١) الفتح ٦.

(٢) الأنبياء ٢٣.

من صار مع المشركين وأهل الكتاب ،وارتد عن الإسلام إما باطناً وظاهراً وإما باطناً ، وقال إنه مع الحقيقة ومع المشيئة الإلهية ، وصاروا يحتجون (أي قدموا حجة للمؤمنين على موالاتهم المشركين بأن عملهم هذا كان بأمر الرسول الذي خيل لهم أنه مكتوب من نور) لمن هو معظم للرسل عما يوافق على تكذيبه بأن ما يفعله من الشرك والخروج عن الشريعة وموالاة المشركين وأهل الكتاب والدخول في دينهم ومجاهدة المسلمين معهم ، هو بأمر الرسول ، فتارة يأتيهم شياطينهم بما يخيلون لهم أنه مكتوب من نور ، وأن الرسول أمر بقتال المسلمين مع الكفار ، لكون المسلمين قد عصوا .

مواقف ثلاثة إزاء الخوارق

ولما ظهر أن مع المشركين وأهل الكتاب خفراً لهم من الرجال المسلحين برجال الغيب ، وأن لهم خوارق يقتضي أنهم أولياء الله ،صار الناس من أهل العلم ثلاثة أحزاب ، حزب يكذبون بوجود هؤلاء ولكن عاينهم الناس ، وثبت ذلك عمن عاينهم ، أو حدثه الثقات بما رأوه هؤلاء إذ رأوهم أو تيقنوا وجودهم ، فخضعوا لهم . وحزب عرفوهم ورجعوا إلى القـــــدر ، واعتقدوا أن ثم في الباطن طريقاً إلى الله غير طريقة الأنبياء . وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا أولياء الله خارجاً عن دائرة الرسول ، فقالوا يكون الرسول هو ممـــداً للطـــائفتـــين ، لهؤلاء وهؤلاء ، فهؤلاء معظمون للرسول ، جاهلون بدينه وشرعه ، والذين قبلهم يجوّزون اتباع دين غير دينه ، وطريق غير طريقه .

وكانت هذه الأقوال الثلاثة بدمشق لما فتحت عكة ، ثم تبين بعد ذلك أن هؤلاء من أتباع الشياطين ، وأن رجال الغيب هم الجن ، وأن الذين مع الكفار شياطين ، وأن من وافقهم من الإنس فهو من جنسهم شيطان من

شياطين الإنس أعداء الأنبياء كما قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَـدُوًّا شَيَـٰطِـينَ ٱلْإِنْسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْـضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُوراً ﴾[1].

وكان سبب الضلال عدم الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وأصله قول الجهمية الذين يسوون بين المخلوقات ، فلا يفرقون بين المحبوب والمسخوط ، ثم إنه بعد ذلك جرت أمور يطول وصفها .

ولما جاء قازان - وقد أسلم - دمشق انكشفت أمور أخرى ؛ فظهر أن اليونسية كانوا قد ارتدوا وصاروا كفاراً مع الكفار .

الرد على من والى الكفار

وحضر عندي بعض شيوخهم واعترف بالردة عن الإسلام ، وحدثني بفصول كثيرة . فقلت له لما ذكر لي احتجاجهم بما جاءهم من أمر الرسول فهب أن المسلمين كأهل بغداد كانوا قد عصوا ، وكان في بغداد بضع عشرة بغياً . فالجيش الكفار المشركون الذين جاءوا كانوا شراً من هؤلاء ، فإن هؤلاء كن يزنين اختياراً ، فأخذ أولئك المشركون عشرات الألوف من حرائر المسلمين وسراريهم بغير اختيارهم ، وردوهم عن الإسلام إلى الكفر ، وأظهروا الشرك وعبادة الأصنام ، ودين النصارى ، وتعظيم الصليب ، حتى بقي المسلمون مقهورين مع المشركين ، وأهل الكتاب ، مع تضاعيف ما كان يفعل من المعاصي ، فهل يأمر محمد ﷺ : بهذا ؛ ويرضى بهذا؟ فتبين له : وقال : لا والله . وأخبرني عن ردة من ارتد من الشبرخ عن الإسلام لما كانت شياطين المشركين تكرههم على الردة في الباطن وتعذبهم إن لم يرتدوا :

---

(١) الأنعام ١١٢ .

ضعف الإيمان يجعل صاحبه لا يفرق بين حزب الشيطان وحزب الرحمن

فقلت: كان هذا لضعف إيمانهم وتوحيدهم والمادة التي يشهدونها من جهة الرسول، وإلا فالشياطين لا سلطان لهم على قلوب الموحدين. وهذا (أي وهذا الشيخ) وأمثاله ما كانوا يعتقدون أنهم شياطين بل إنهم رجال من رجال الغيب الإنس وكّلهم الله بتصريف الأمر.

فبينت لهم أن رجال الغيب هم الجن كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ ٱلإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ ٱلْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً﴾[1] ومن ظن أنهم إنس فمن جهله وغلطه، فإن الإنس يؤنسون أي يشهدون ويرون، إنما يحتجب الإنسي أحياناً، لا يكون دائماً محتجباً عن أبصار الإنس بخلاف الجن. فإنهم كما قال الله ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾[2].

مثل آخر من هذا القبيل مع ابن السكران

وكان غير هذا من المشايخ من يذكر عن الشيخ محمد بن السكران أن هولاكو ملك المشركين لما دخل بغداد رأى ابن السكران شيخاً محلوق الرأس على صورة شيخ من مشايخ الدين والطريق آخذاً بفرس هولاكو. قال، فلما رأيته أنكرت هذا، واستعظمت أن يكون شيخ من شيوخ المسلمين يقود فرس ملك المشركين لقتل المسلمين. فقلت يا هذا أو كلمة نحو هذا.

فقال (أي ابن السكران) تأمر بأمر أو قال له هل يفعل هذا بأمر أو فعلت هذا بأمر؟ فقال (أي ذلك الشيخ الآخذ بفرس هولاكو) نعم بأمر

---

(١) الجن ٦.

(٢) الأعراف ٢٧.

فسكت ابن السكران وأقنعه هذا الجواب ، وكان هذا لقلة علمه بالفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وظن أن ما يؤمن به الشيوخ في قلوبهم هو من الله ، وأن من قال حدثني قلبي عن ربي فإن الله هو يناجيه ، ومن قال أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت هو كذلك . وهذا أضل ممن ادعى الاستغناء عن الأنبياء وأنه لا يحتاج إلى واسطتهم .

الرد على ابن السكران

وجواب هذا أن يقال : بأمر من تؤمر؟ فإن قال : بأمر الله ، قيل : بأمر الله الذي بعث به رسوله ، وأنزل به القرآن ، أم بأمر وقع في قلبك؟

فإن قال بالأول ظهر كذبه ، فإنه ليس فيما يأمر الله به رسوله أن يأتي بالكفار المشركين وأهل الكتاب لقتل المسلمين ، وسبيهم وأخذ أموالهم لأجل ذنوب فعلوها ويجعل الدار تعبد بها الأوثان ، ويضرب فيها بالنواقيس ، ويقتل قراء القرآن وأهل العلم بالشرع ، ويعظم النجسية علماء المشركين ، وقساوسة النصارى وأمثال ذلك ، فإن هؤلاء أعظم عداوة لمحمد ﷺ ، وهو من جنس مشركي العرب ، الذين قاتلوه يوم أحد . وأولئك عصاة من عصاة أمته ، وإن كان فيهم منافقون كثيرون ، فالمنافقون يبطنون نفاقهم .

وإن قال بأمر وقع في قلبي لم يُكذَّب ، لكن يقال من أين لك أن هذا رحماني ، ولم لا يكون الشيطان هو الذي أمرك بهذا ؟ وقد علمت أن ما يقع في قلوب المشركين وأهل الكتاب هو من الشيطان؟ فإن رجع إلى توحيد الربوبية وأن الجميع بمشيئته ، قيل له : فحينئذ يكون ما يفعله الشيطان والمشركون وأهل الكتاب هو بالأمر ، ولا ريب أنه بالأمر الكوني القدري ، فجميع الخلق داخلون تحته ، لكن من فعل بمجرد هذا الأمر لا بأمر الرسول

فإنما يكون من جنس شياطين الإنس والجن ، وهو مستوجب لعذاب الله في الدنيا والآخرة ، وهو عابد لغير الله متبع لهواه ، وهو ممن قال الله فيه ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(١) وممن قال فيهم الشيطان ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ★ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (٢) قال الله ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ★ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾(٤) .

وقال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ★ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾(٥) .

فكيف تأمر بالشرك والكفر ، وتسلط الكفار من المشركين وأهل الكتاب على المسلمين ، وقتل الكفار للمسلمين ، هذا لا يأمر الله به كما لا يأمر بالفحشاء ، فإن هذا من أفحش الفواحش . إذا جعلت الفاحشة اسماً لكل ما يعظم قبحه ، فكانت جميع القبائح السيئة داخلة في الفحشاء .

مثل آخر مع شيخ من بعلبك

وكان أيضاً بالشام بعض أكابر الشيوخ ببعلبك الشيخ عثمان شيخ دير

(١) ص ٨٥ .
(٢) ص ٨٢ ، ٨٣ .
(٣) الحجر ٤٢ .
(٤) النحل ٩٩ .
(٥) الأعراف ٢٧ .

ناعس، يأتيه خفير الفرنج النصارى راكباً أسداً ويخلو به ويناجيه. ويقول يا شيخ عثمان وكلت بحفظ خنازيرهم: فيعذره عثمان وأتباعه في ذلك. ويرون أن الله أمره بهذا، كما أمر الخضر أن يفعل ما فعل: كما عذر ابن السكران وأمثاله لخفراء المشركين التتار.

والجواب لهذا كالجواب لذلك: يقال له: وكلك الله تعالى بهذا، أنزل (أي وقد أنزل) على لسان نبيه الدين. أمر أن يوالي المسلمين: وألا يتخذ اليهود والنصارى أولياء، بل أمرك أن تبغضهم وتجاهدهم بما استطعت: هو أمرك أن تتوكل بحفظ خنازيرهم؟ فإن قال هذا ظهر كذبه، وإن قال بل هو أمر ألقي في قلبي، لم يكذب، وقيل له: فهذا من أمر الشيطان لا من أمر الرحمن، الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله، ولكنه من الأمر الذي كونه وقدره كشرك المشركين الذين قالوا ﴿لَوْ شَآءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا﴾[1].

الرد على من وهم بأن هؤلاء من الأولياء أو الملائكة

ومن هؤلاء من يظن الرجال الذين يؤيد بهم الكفار من المشركين وأهل الكتاب هم أولياء الله، ولا يجب عليهم اتباع الرسول كالملائكة الموكلة ببني آدم المعقبات (إشارة إلى الآية الكريمة) ﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِن أَمْرِ اللهِ﴾[2].

فقلت لشيخ كان من شيوخهم: محمد أرسل إلى الثقلين الإنس والجن، ولم يرسل إلى الملائكة، فكل إنسي أو جني خرج عن الإيمان به فهو عدو لله لا ولي لله بخلاف الملائكة.

---

(١) الأنعام ١٤٨.

(٢) الرعد ١١.

ثم يقال له الملائكة لا يعاونون الكفار على المعاصي ولا على قتال المسلمين ، وإنما يعاونهم على ذلك الشياطين ، ولكن الملائكة قد تكون موكلة بخلقهم ورزقهم وكتابة أعمالهم ، فإن ذلك ليس بمعصية . فهذا الجواب بالفرق بينهم وبين الملائكة من هذين الوجهين .

وقد ظهر أنهم من جنس الشياطين لا من جنس الملائكة ، وكان هذا الشيخ هو وأبوه من خفراء الكفار ، وكان والده يقال له محمد الخالدي نسبة إلى شيطان كان يقربه يقال له الشيخ خالد ، وهم يقولون إنه من الإنس من رجال الغيب .

وحدثني الثقة عنه أنه كان يقول : الأنبياء ضيعوا الطريق ، ولعمري لقد ضيعوا طريق الشياطين شياطين الإنس والجن .

هؤلاء لم يفرقوا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

وهؤلاء المشايخ ، الذين يحبون المسلمين ولكن يوالون الشيوخ الذين يوالون المشركين الذين هم خفراء الكفار ويظنون أنهم من أولياء الله اشتركوهم وهم في أصل الضلالة ، وهو أنهم جعلوا الخوارق الشيطانية من جنس الكرامات الرحمانية ، ولم يفرقوا بين أولياء الرحمن كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾[1] فهؤلاء وهؤلاء عشوا عن ذكر الرحمن الذي أنزله ، وهو الكتاب والسنة ، وعن الروح الذي أوحاه الله إلى نبيه الذي أنزله ، وهو الكتاب والسنة ، وعن الروح الذي أوحاه الله إلى نبيه الذي جعله الله نوراً يهدي به من يشاء من عباده ، وبه يحصل الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ولم يفرقوا

---

(١) الزخرف ٣٦ .

بين آيات الأنبياء ومعجزاتهم ، وبين خوارق السحرة والكهان ، إذ هذا مذهب الجهمية المجبرة .

وهؤلاء كلهم يشتركون في هذا المذهب ، فلا يجعلون الله يحب ما أمر به ويبغض ما نهى عنه : بل يجعلون كل ما قدره وقضاه فإنه يحبه ويرضاه : فبقي جميع الأمور عندهم سواء ، وإنما يتميز بنوع من الخوارق : فمن كان له خارق جعلوه من أولياء الله وخضعوا له : إما اتباعاً له ، وإما موافقة له ومحبة ، وإما أن يسلموا له حاله فلا يحبوه ولا يبغضوه ، إذ كانت قلوبهم لم يبق فيها من الإيمان ما يعرفون به المعروف وينكرون به المنكر في هذا الموضع .

طبيعة المؤمن إزاء المنكر

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ : أنه قال « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » ، وفي رواية لمسلم « من جاهدهم بيده فهو مؤمن : ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن : ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

وميت الأحياء الذين لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً .

وفي حديث حذيفة الذي في صحيح مسلم « إن الفتنة تعرض على القلوب كعرض الصبر عوداً عوداً فأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، وأيما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء حتى تبقى القلوب على قلبين قلب أبيض مثل الصفا لا يضره فتنة ما دامت السماء والأرض ، وقلب أسود مرباد لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواء » .

الرد على من اعتبر المعروف والمنكر تابعاً للذوق لا للأمر والنهي

فهؤلاء العباد الزهاد الذين عبدوا الله بآرائهم وذوقهم ووجدهم لا بالأمر والنهي، منتهاهم اتباع أهوائهم ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ ٱتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ﴾[1] لا سيما إذا كانت حقيقتهم هي قول الجهمية المجبرة، فرأوا أن جميع الكائنات اشتركت في المشيئة ولم يميز بعضها عن بعض، فإن الله يحب هذا ويرضاه، وهذا يبغضه ويسخطه، فإن الله يحب المعروف ويبغض المنكر.

فإذا لم يفرقوا بين هذا وهذا نكت في قلوبهم نكت سود فسود قلوبهم، فيكون المعروف ما يهوونه ويحبونه (أي يكون المعروف في نظرهم ما يحبونه ولو كان مخالفاً لأمر الله) ويجدونه ويذوقونه، ويكون المنكر ما يهوون بغضه وتنفر عنه قلوبهم (أي على مزاجهم وإن كان من المعروف في نظر الشرع) كالمشركين الذين كانوا عن التذكرة معرضين، كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة. ولهذا يوجد في هؤلاء وأتباعهم من ينفرون عن القرآن والشرع كما تنفر الحمر المستنفرة التي تفر من الرماة ومن الأسد، ولهذا يوصفون بأنهم إذا قيل لهم قال المصطفى نفروا.

وكان الشيخ إبراهيم بن معضاد يقول لمن رآه من هؤلاء كاليونسية والأحمدية يا خنازير يا أبناء الخنازير ما أرى لله ورسوله عندكم رائحة، بل يريد كل منهم أن يؤتى صحفاً منشرة، كل منهم يريد أن يحدثه قلبه عن ربه فيأخذ من الله بلا واسطة الرسول ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ ، اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[2]

---

(١) القصص ٥٠.

(٢) الأنعام ١٢٤.

وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن قول القدرية الجهمية المجبرة أعظم مناقضة لما جاءت به الرسل من قول النفاة ، ولهذا لم يكن هؤلاء مظهرين لهذا في زمن السلف ، بل كلما ضعف نور النبوة أظهروا حقيقة قولهم ، فإنه من جنس قول المشركين المكذبين للرسل ، ومنتهاهم الشرك وتكذيب الرسل وهذا جماع الكفر ، كما أن التوحيد وتصديق الرسل جماع الإيمان ، ولهذا صاروا مع أهل الكفر المحض من المشركين وأهل الكتاب ، وبسط هذه الأمور له موضع آخر .

ضلال القدرية والنفاة والرد عليهما

والمقصود هنا أن القدرية المجبرة من جنس المشركين ، كما أن النافية من جنس المجوس ، وأن المجبرة ما عندهم سوى القدرة والمشيئة في نفس الأمر ، والنافية تنفي القدرة العامة والمشيئة التامة وتزعم أنها تثبت الحكمة والعدل . وفي الحقيقة كلاهما نافٍ للحكمة والعدل ، والمشيئة والقدرة ، كما قد بسط في مواضع . وأولئك يتعلقون بقوله تعالى ﴿لا يُسْأَلُ عمّا يَفْعَلُ﴾[1] والله يفعل ما يشاء . وهذا ذكره الله إثباتاً لقدرته لا نفياً لحكمته وعدله ، بل بين سبحانه أنه يفعل ما يشاء فلا أحد يمكنه أن يعارضه إذا شاء شيئاً ، بل هو قادر على فعل ما يشاء ، بخلاف المخلوق الذي يشاء أشياء كثيرة ولا يمكنه أن يفعلها . ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، فإن الله لا مُكرِهَ له ، ولكن ليعزم المسئلة » .

---

(١) الأنبياء ٢٣ .

وذلك أنه إنما يقال إفعل كذا إن شئت لمن قد يفعله مكرهاً فيفعل ما لا يريد لدفع ضرر الإكراه عنه، والله تعالى لا مكره له، فلا يفعل إلا ما يشاء فقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾[1] ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾[2]، ونحو ذلك هو لإثبات قدرته على ما يشاء.

وهذا رد لقول القدرية النفاة الذين يقولون إنه لم يشأ كل ما كان بل لا يشاء إلا الطاعة، ومع هذا فقد شاءها، ولم يكن ممن عصاه، وليس هو قادراً عندهم على أن يجعل العبد لا مطيعاً ولا عاصياً.

الجبرة والنفاة دليل كل منهما يرد على الآخر وكلاهما باطل لأنه يصير ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه الآخر

فهذه الآيات التي تحتج بها الجبرة تدل على فساد مذهب النفاة، كما أن الآيات التي يحتج بها النفاة التي تدل على أنه حَكم عادل لا يظلم مثقال ذرة، وأنه لم يخلق الخلق عبثاً ونحو ذلك، يدل على فساد قول الجبرة. وليس في هذه الآيات ولا هذه ما يدل على صحة قول واحدة من الطائفتين، بل ما تحتج به كل طائفة يدل على فساد مذهب الأخرى، وكلا القولين باطل، وهذا هو الذي نهى عنه النبي ﷺ في الحديث الذي في المسند وغيره وبعضه في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو وعن النبي ﷺ «أنه خرج على أصحابه وهم يتمارون في القدر وهذا يقول ألم يقل الله كذا، وهذا يقول ألم يقل الله كذا، فكأنما فُقىء في وجهه حب الرمان، فقال أبهذا أمرتم أم إلى

(١) الحج ١٨.
(٢) المائدة ١٨.

هذا دعيتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ».

ولهذا قال أحمد في بعض مناظرته لمن صار يضرب الآيات بعضها ببعض: إنا قد نهينا عن هذا.

فمن دفع نصوصاً يحتج بها غيره لم يؤمن بها، بل آمن بما يحتج، صار ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض.

وهذا حال أهل الأهواء، هم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب، وقد تركوا كلهم بعض النصوص، وهو ما يجمع تلك الأقوال فصاروا كما قال عن أهل الكتاب ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾(١).

فإذا ترك الناس بعض ما أنزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء، إذ لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾(٢). وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق إلا ما وافقوا فيه الرسول، وهو ما تمسكوا به من شرعه مما أخبر به وما أمر به وأما ما ابتدعوه فكله ضلالة، كما قال ﷺ « وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة ».

الرأي عند أهل البدع مقدم على الشرع

وقد تكون تلك البدعة أعظم عندهم مما أخذوا به من الشريعة، يجعلون

---

(١) المائدة ١٤.

(٢) المؤمنون ٥٣.

تلك هي الأصول العقلية كالقدرية المجبرة والنفاة . فكلاهما يجعل ما أحدثوه من الكلام في الأصول وهو الذي يسمونه العقليات ، أعظم عندهم مما تلقوه من الشرع . فالمعتزلة يجعلون العقليات هي الخبريات والأمريات جميعاً كالواجبات الشرعية ، لكن يقولون أيضاً إن الشرع أوجبها ولكن لهم فيها تخليط ليس هذا موضعه .

وكذلك ما ابتدعوه في الخبريات كإثبات حدوث العالم بطريقة الأعراض واستلزامها للأجسام ، وهم ينفون الصفات والقدر ويسمون ذلك التوحيد والعدل .

وجهم بن صفوان وأتباعه هم أعظم نفياً منهم ، فإنهم ينفون الأسماء مع الصفات ، وهم رؤوس المجبرة ، والأشعرية وافقتهم في الجبر ، لكن نازعوهم نزاعاً لطيفاً في إثبات الكسب والقدرة عليه .

الأصول العقلية وشرفها وعدم تعليم النبي لها

وهم يرون أن هذه الأصول العقلية وهي العلم بما يجب للرب ويمتنع عليه وما يجوز عليه من الأفعال هي أعظم العلوم وأشرفها ، وأنهم برزوا بها على الصحابة ، وأن النبي لم يعلمها الصحابة ، إما لكونه وكلها إلى استنباط الأمة ، وإما لكون الصحابة كانوا مشغولين عنها بالجهاد ، وإما لكونه قال لهم في ذلك ما لم يبلغوه ولم يشغلهم بالأدلة لاشتغالهم بالجهاد .

وهذه هي الأصول العقلية التي يعتمدون عليها هم ومن يوافقهم ، كالقاضي أبي يعلى وأبي المعالي وأبي الوليد الباجي ، تبعاً للقاضي أبي بكر وأمثاله ، وهو وأتباعه يناقضون عبد الجبار وأمثاله ، كما ناقض الأشعري وأمثاله أبا علي وأبا القاسم .

الدليل على أن الأصول العقلية باطلة

وكل الأصول العقلية التي ابتدعها هؤلاء وهؤلاء باطلة في العقل والشرع، وإن كانت كل واحدة من الطائفتين تعتقد أنها أعظم الدين (أي أن الأصول العقلية هي أعظم شيء في الدين). ويقدمونها على الأصول الشرعية، فإنهم في ذلك بمنزلة ما يعظمه العباد والزهاد والفقراء والصوفية من الخوارق الشيطانية ويفضلونها على العبادات الشرعية والعبادات الشرعية هي التي معهم من الإسلام، وتلك كلها باطلة، وإن كانت أعظم عندهم من العبادات حتى يقولوا نهاية الصوفي ابتداء الفقيه، ونهاية الفقيه ابتداء الموله، وكذلك صاحب منازل السائرين يذكر في كل باب ثلاث درجات، فالأولى وهي أهونها عندهم توافق الشرع في الظاهر، والثانية قد توافق الشرع وقد لا توافق، والثالثة في الأغلب تخالف لا سيما في التوحيد والفناء والرجاء ونحو ذلك. وهذا الذي ابتدعوه هو أعظم عندهم مما وافقوا فيه الرسل، وكثير من العباد يفضل نوافله على أداء الفرائض، وهذا كثير والله أعلم.

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيراً والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

مطابع العيتاني ص.ب. ٥٧٥١ بيروت - لبنان